رواية
سقوط أزرق
أحمد مسعد
دار نون للنشر والتوزيع

إهداء

إلى كل الساقطين بمختلف ألوان سقوطهم.

وإليكِ

يا خسائري الجميلة.

وإليك

أيها الزمن، سأقهرك بقلمي يومًا.

(٠)

هذا جميل.. أنا أسقط..

سقوط حر بطيء وناعم.. كل شيء من حولي أزرق.. كم يشعرني ذلك بالألفة والحنين.. أشعر كأنما الأزرق يحتضنني.. لكنه حضن بارد بعض الشيء، فقاعات كثيرة هنا، بعضها يطوف من حولي والبعض الآخر يخرج من فمي، ليطوف حول جسدي الساقط قبل أن تتابع الفقاعات رحلتها إلى الأعلى، لكن.. كيف جئت إلى هنا؟ مهلًا، من أنا في الأساس؟ يبدو لي ذلك السؤال أكثر أهمية، أغمض عيني بقوة وأحاول التذكر، لكني لا أجد سوى الظلام، أفتح عينيّ مجددًا وقد أدركت أنني ضائع.. فقدت العالم وفقدني.

أحاول مجددًا، أطبق على جفنيّ، فتتسرب بعض الصور إلى عقلي، الضباب يمحو كل شيء، السماء تنهار والأرض تبتلع كل ما فوقها، غراب يكلمني وقطة تطالبني بالقفز في النيل، ومدينة من الوجوه المبهمة تطالب برأسي، وأمي تعطيني هديتها الأخيرة، أتذكر بعض الأمور، هل انتهى العالم وانهار؟ ما الذي حصل؟ وهل أنا سبب ما حصل؟ أفتح عينيّ لأجد الفقاعات وقد أنارت، وفوق سطحها الرقيق الشفاف بدأت تطوف من حولي بعض الصور، ذكريات عديدة عشتها خفق قلبي لمرآها، ابتعدت كل الفقاعات صاعدة إلى أعلى

عدا فقاعة واحدة ظلت إلى جواري، عطية أمي الأخيرة، مددت يدي مقاومًا الأزرق الذي يلفني، لأقبض على تلك الفقاعة، لكن الثقل المظلم حول أطرافي يمنعني، أستمر في المقاومة فهذا هو سبيلي الأخير حتى أعرف الحقيقة، حتى أخرج من ضياعي الأبدي، وحين أنجح أخيرًا في لمس الفقاعة تبدأ العديد من الألوان في الخروج منها متخللة الأزرق، وجنبات عقلي.

***

-١-

أزرق لأنك تحبينه.. أزرق لأنني أحبك..

حدوتة سيف شبورة العجيب

لديّ عادة مُنذ الصغر أن أقف أسفل المطر أثناء هطوله، وأغمض عينيّ ثم أفتح فمي لتدلف إليه عشرات القطارات المتساقطة قبل أن تنزلق إلى جوفي، كنت أحب طعمها.. طعم المياه العذب التي يشوبها القليل من الأتربة في الهواء، طعم عذوبتها الذي لم يتلوث بعد بالأرض التي تحمل خطايانا وهمومنا وأوجاعنا لآلاف السنين، كانت بالنسبة لي كماء نُزل من الجنة، أرسلت لنا كي نتذوق حلاوة السماء.

أسمع صوت أمي تدعوني إلى الداخل حتى لا أصاب بالبرد، فأفتح عينيّ وأطبق فمي، مكتفيًا سعيدًا بما جمعت اليوم، وأدلف إلى البيت، لم أكن أخاف من البرد أو المرض، فأمي كانت هنا، فلما أخاف؟ كل شيء سيكون على ما يرام، تجففني أمي وتغير لي ملابسي ثم تدخلني إلى سريري، قبل أن أسألها قصة قصيرة، كانت أمي مخزنًا للحكايات، بعض تلك القصص ورثتها عن جدي وأسفاره، والبعض الآخر من قصص قرأتها هي مع إضافات بسيطة منها لتصبح مناسبة للأجواء التي عودتني عليها.

قالت: «لحسن حظك قرأت قصة مصورة صغيرة للتو اسمها سيف شبورة».

رددت الاسم متعجبًا من وقع كلمة شبورة الغير المألوفة على أذني، ويبدو أنها فهمت تعجبي فابتسمت، وكانت ابتسامتها كوعد لي أن أفهم عما قريب، ثم أخرجت من أحد الأدراج تلك المجلة المصورة التي تصور البطل الصغير رافعًا سيفًا غريب الشكل ويشهره وسط الضباب، ثم بدأت تحكي بينما تشير لتلك الصور.

«لقد ورث بطلنا الشاب سيفًا كبيرًا، مميز الشكل لم يكن يعرف عنه سوى اسمه، سيف شبورة، ولم يجد للسيف فائدة بالنسبة له فوضعه فوق الدولاب ونسيه، إلى أن بدأ يقابل شخصًا ما في الأحلام يطلب منه المساعدة، وكان هذا الشخص هو ساحر صغير السن، وسيم ذو شعر أصفر، ويرتدي عباءة بنية».

وأشارت إليه في القصة ثم استطردت:

- «لكن بطلنا لم يهتم بتلك الأحلام وتجاهلها إلى أن ظهر له ذلك الساحر داخل غرفته، ولم يصدق البطل أن هذا حقيقي وظن أنه سيستيقظ في أي لحظة، لكن الساحر أخبره أنه قادم من أرض سحرية موجودة في السماء بين الغيوم تسمى أرض شبورة، وسميت شبورة لأنها وسط غيوم السماء وتغطيها شبورة من الضباب الخفيف تخفيها عن الأعداء والطامعين في سحرها».

قلت بصيغة متسألة: «تمامًا كذلك الذي نراه في الصباح بينما أنا ذاهب إلى المدرسة؟».

قالت: «بالضبط». ثم تابعت القصة: «وكان هناك ساحر شرير قد سيطر على أرض شبورة وسيطر على منابع السحر فيها وغطاها بالدخان الأسود، لذلك طلب الساحر الشاب من بطلنا أن يستخدم سيف شبورة الذي ورثه ليقضي على ذلك الساحر ويحرر أرض شبورة من الدخان الأسود، فإذا تمكن الساحر الشرير من أرض شبورة سيستخدم سحرها في إغراق سماء العالم بالدخان والظلام، لكن بطلنا رفض.. أحس أن الأمر أكبر منه وأن لديه مخاوف كثيرة لا تؤهله لأن يكون بطلًا حتى أنه إذا رأى عنكبوتًا صغيرًا قد يصرخ من الخوف والفزع، لكن الساحر الطيب أكد له أن السيف اختاره، ليس لأنه أشجع الأبطال.. لكن لأنه يمتلك القدرة على مواجهة مخاوفه إذا أراد، رغم رفض بطلنا فإن سيف شبورة ظل يناديه في كل يوم ويحفزه، لذلك حين أتى الساحر الطيب في المرة التالية وافق البطل على حمل سيف شبورة والمضي قدمًا لتحرير أرض شبورة، ففتح الساحر الطيب فجوة في الهواء تؤدي إلى أرض شبورة». كانت الصور في المجلة توضح أرضًا خيالية طافية في السماء تحيط بها شبورة كبيرة يتوسطها مبنى حجري كبير كالهرم، وعلى أطرافها متاهة من الأشجار، تابعت أمي

الحكي: «أمسك البطل بسيف شبورة وقفز داخل الفجوة، ليجد نفسه أمام غابة كثيفة الأشجار، تراصت فيها الاشجار جوار بعضها كالجدار، وهناك أخبره الساحر الطيب أنه وحتى يصل للساحر الشرير عليه عبور التيه أو المتاهة الموجودة داخل تلك الغابة حتى يصل بعد هذا إلى المبنى المدرج وسط أرض شبورة الذي يحكم الساحر الشرير من خلاله الجزيرة، وأن عليه الإسراع قبل أن يبتلع الضباب الأسود كل شيء فيحل الظلام إلى الأبد على حيوانات وسكان أرض شبورة، قال الساحر للبطل إنه سيراقبه ويتواجد لإرشاده إذا احتاجه، ثم رحل.. همَّ بعدها البطل وعبر تيه الغابة متسلحًا بسيف شبورة ضد كل ما قد يقابله من أخطار». ثم راحت أمي تقلب الصفحات وأنا أتابع في شغف ولهفة رحلة البطل وسط النباتات الشريرة والوحوش المفترسة والسحرية، وكيف استخدم البطل معرفته بالاتجاهات وظل الشمس في الخروج من المتاهة، تابعت أمي: «بعد أن خرج من التيه جرى عبر بيوت سكان شبورة الذين عرفوا أنه البطل الذي ينتظرونه حين رؤوا السيف في يده، ووصل أخيرًا إلى المبنى الحجري الهرمي، ودخل إليه بينما يتوعد الساحر الشرير فكانت المفاجأة التي صدمت بطلنا هي شكل المبنى من الداخل». أشارت أمي إلى صورة المبنى من الداخل فبهرني شكله، كان عبارة عن سلالم بعدد غير

محدود وأشكال مختلفة بعضها ينزل إلى الأسفل بشكل طبيعي وبعضها يحتاج أن تمشي على السقف لتنزل عليها، لا منطق أو جاذبية في حركتها أو شكلها، وكل سلم كان يتصل بباب أو يؤدي لباب، كانت متاهة من السلالم والأبواب إذا جاز التعبير: «راح البطل يجري عبر السلالم ويفتح كل الأبواب دون جدوى، لم يجد الساحر.. لكنه بدا يسمع صوته يخرج من كل أركان المبنى يخيفه ويهدده، فتح بطلنا بابًا فوجد به حيوانًا مفترس فأسرع يغلقه، باب آخر وجد خلفه نباتًا شريرًا لكن نجح في الهرب منه، خلف كل باب كان بطلنا يقابل أحد مخاوفه العديدة فيهرب منها، حتى قابل أخيرًا خوفه الأكبر.. غرفة مليئة بالعناكب.. هنا شل وارتجف وخاف.. إلا أن صوت الساحر الطيب ذكره بأن السيف اختاره لأنه يمتلك قلبًا قادرًا على مواجهة مخاوفه، لذلك واجه البطل تلك العناكب بسيفه وأخافها فعادت إلى الباب، ثم تابع صوت الساحر الشرير الذي راح يهدده ويتوعده إلى أن تمكن من تتبع الصوت والوصول إلى الباب الذي يختبئ به الساحر الشرير، ليجده راجل طويل يختبئ داخل عباءة سوداء، وأمامه البلورة السحرية السوداء التي تنشر الدخان الأسود فوجه البطل سيفه مباشرة نحو البلورة وحطمها فتحولت إلى شظايا، ثم بضربة أخرى كشف حقيقة الساحر الشرير».
قلبت أمي الصفحة وكانت الصور توضح ما وجده

البطل حينها: «لم يكن الساحر الشرير سوى رجل صغير سيئ يختبئ داخل هيكل خشبي وعباءة، حاول الشرير الهرب لكن الساحر الطيب أمسك به وحبسه في قفص سحري، وهنَّأ بطلنا بنصره فقد زال الدخان بعد أن زال سحر البلورة.. فرفع بطلنا السيف عاليًا وقال فلتحيا شبورة.. تمَّت».

قلت لأمي بعد أن أنهت القصة بينما أتثاءب: «أريد أن أصبح بطلًا وأن أحمل سيف شبورة».

قالت مبتسمة: «أنت بطلي دون أن تحمل أي سيف».

بعد عدة أيام أحضر لي أبي سيفًا يشبه كثيرًا سيف شبورة بناء على طلب من أمي، حين سألني يومها عن ما إذا كان قد أعجبني، قلت بجدية: «سيكون كافيًا لقتل الساحر الشرير».

ثم بعد عدة أعوام رحلت أمي.. وتوقفت الحكايا للأبد.

***

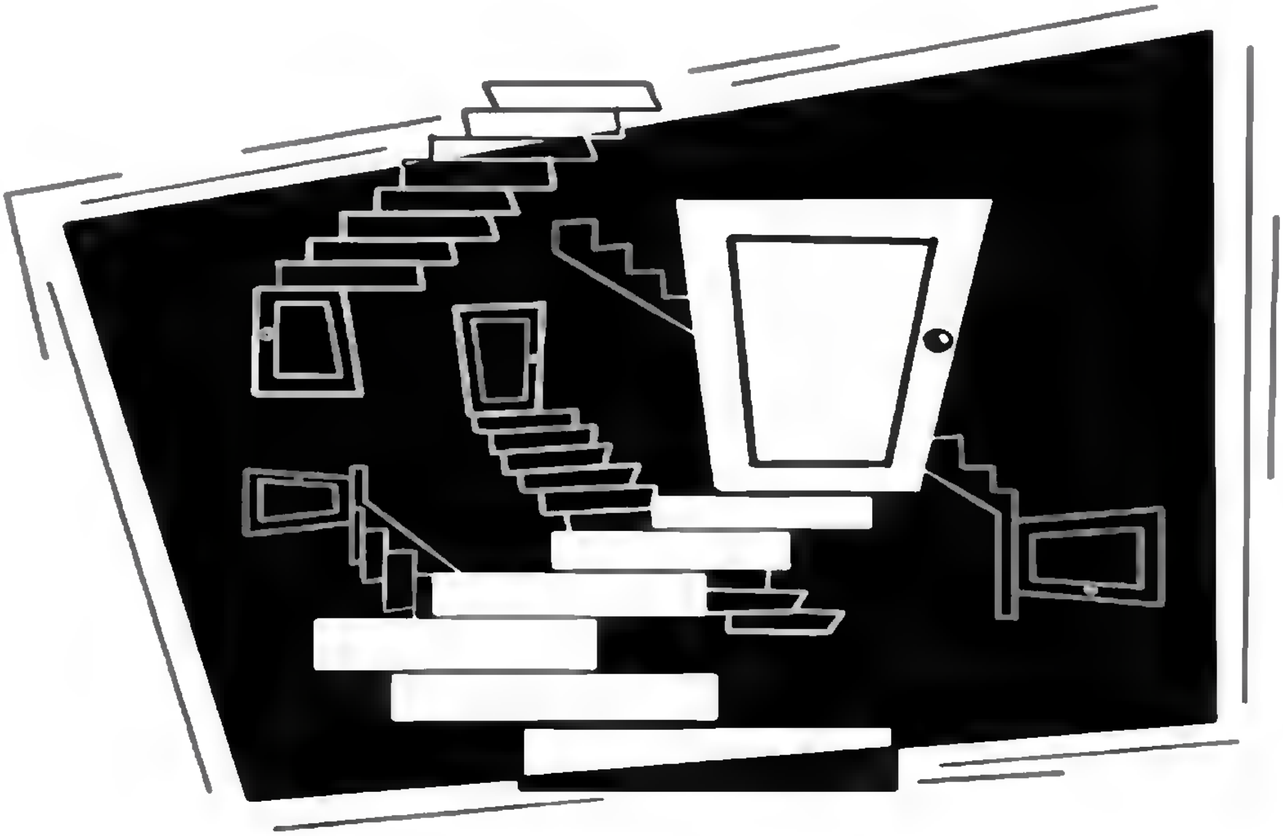

(١)

أتعرف ما الأجمل من لوحة جميلة؟ لوحة جميلة تراها بأعين من تحب.

لا أنفَكُّ أستغل فرصة وجود معرض جيد للوحات حتى أصطحب معي حورية، لم تكن فنانة كبيرة على مستوى الأداء، لكنها كانت صاحبة قلبِ فنان وعيني فنان، وكانت حبيبتي.

لم يكن الغرض الأساسي من صحبتها مشاهدة اللوحات معًا، بل مشاهدتها هي بينما تراقب اللوحات بتمعن واهتمام وحب، تارة تسكن.. وتارة أخرى تبدو علامات التفكير على وجهها.. ثم تارة أخرى تعلق على اللوحة، وكانت لحظتي المفضلة حين تضم شفتيها مصدرة صوت حرف (O) ممطوط لتعبر عن دهشتها وإعجابها بعمل ما فتنتبه حواسي كلها مترقبة تعليقها القادم، وكأنها على وشك أن تصدر أعظم شهادة فنية سيحصل عليها هذا الفنان المحظوظ صاحب اللوحة.

كان المعرض الذي زرناه هذه المرة كبيرًا مكونًا من طابقين، ويعرض أعمالًا للعديد من الفنانين الشباب من مدارس فنية مختلفة، فتجولنا بين اللوحات الزيتية ولوحات الحفر

والطباعة والمنحوتات وأعمال التجهيز في الفراغ إلى أن جذب انتباهنا وجود غرفة صغيرة حجبت بستائر سوداء كُتب على بابها «لعبة الزمكان»، وأسفل الاسم كتب بخط أصغر «تجهيز في الفراغ»، هذا يعني أن الغرفة بالكامل هي العمل الفني.

أفلتت حورية يدي وأسرعت تدلف إلى الغرفة دون أن تنتظرني فلحقت بها، وعلى الرغم من دخولها قبلي بثوانٍ فإنني لم أجد لها أثرًا حين دخلت! فقط وجدت غرفة سوداء تمامًا وواسعة بشكل يجعلك تتساءل كيف يمكن لهذا المعرض أن يحتوي على غرفة بذاك الاتساع، وخمنت أنها خدعة بصرية، بالغرفة أوراق لعب معلقة بالسقف دون أن يظهر الخيط الشفاف الذي علقت به فيعطيك ذلك الانطباع أن الأوراق تحلق وتدور في الهواء، وكانت الأوراق عبارة عن ثلاث ورقات (فتى، وفتاة، وشايب) مكررة بعدد غير محدود تقريبًا، وعلى جدران الغرفة الذي لا يمكنك تبين مكانه تحديدًاعدد كبير من الساعات مختلفة الأحجام، لم أهتم كثيرًا بمحاولة تفسير ذلك العمل، رحت أنادي حورية بينما أمشي داخل الغرفة، وشعرت وكأنني أمشي في سواد الفضاء اللانهائي، بدأت الأوراق المعلقة تدور حول نفسها وكذلك الساعات بدأت عقاربها تدور بسرعة مصدرة صوت تكتكات مزعج يحطم الأعصاب.

- «حورية؟».

أبحث عن الباب الذي دخلت منه فلا أجده وسط الأسود، أخرج الهاتف الجوال من جيبي وأشرع في الإتصال بها علّي أعرف مكانها فلا أجد أثرًا لرقمها على الهاتف!

العقارب تغدو أسرع ومعالم الرسم على الأوراق بدأت في التماهي.

أبحث على واتساب وفيسبوك فلا أجد حتى صندوق محادثاتنا! وكأنها لم تكن يومًا!

- «حورية؟.. حـــ..».

أشعر أنني عاجز عن النطق فجأة، للدقة عاجز عن تذكر اسمها، كلحظة أن تود قول شيء لكنك لا تدري يقينًا ما هو.

عقارب الساعة اختفت تقريبًا من شدة االتسارع، وبدأت أرى الصحون البيضاوية تذوب أمام عينيّ كما صورها «دالي»، وأنا أتخبط بينها لا أدري إلى أين أتوجه؟ قبل أن تختفي الأرض من تحت قدمي فأسقط في هوّة ما لها من قرار.. سقوط يحتم عليّ الاستيقاظ من هذا الكابوس.

***

(٢)

٢٢ نوفمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٧°

حواسي متيقظة لكن جسدي لا زال غارقًا في نوم عميق، أعصابي مرتخية إلى الدرجة التي تجعلني عاجزًا عن إزاحة جفنيّ لأتمكن من رؤية ضوء النهار الذي يعكسه زجاج نافذتي، أريد أن أعطي الأمر لأحد أطرافي بالتحرك لكني لا أملك من الدوافع ما يكفي، أبحث داخل عقلي عن أي دوافع لكني ما أنفك أجد المزيد من الأسباب تلزمني الفراش، بعد مرور وقت غير محسوب لم أجد بدًا من محاولة تحريك أصابعي، ثم تبعها ساعداي وذراعاي اللذين استخدمتهما في إعطاء جسدي وباقي أطرافي دفعة للتحرك، ثم تبع ذلك أن فتحت جفنيّ ببطء، وبمجرد أن تغير وضع جسدي ورأسي بدأت الطقطقات تصدر من جميع مفاصلي المتيبسة كمقطوعة موسيقية عن الشقاء والبؤس.

أزيح الفراش ثم أجلس على طرف السرير أتأمل اللاشيء، بينما يقوم عقلي في تلك الأثناء بإعادة تحديث للمعلومات ليذكرني بواقعي الحالي، قد يظن من يراني الآن أنني أكثر البشر تعاسة على الأرض، لكن حسبما أذكر عن نفسي الآن فأنا أتمتع بحياة جيدة إلى حد بعيد، ربما هي الضغوط وبوادر الشتاء الحزين هما من يرسمان كل ذلك الشقاء على

وجهي.

أتذكر فجأة أن عندي محاضرة اليوم في تمام العاشرة فتستيقظ حواسي فجأة، أُمسك بهاتفي الجوال المدسوس أسفل وسادتي وأنظر إلى الساعة لأجد الرقم ثمانية يقف على يمين الشاشة بينما الرقم خمسون يقف بجواره على يسارها، أقف منحني الظهر وأمشي بخطوات وئيدة نحو الحمام، أمر في طريقي أمام غرفة أبي فأجده نائمًا بالداخل، من المفترض أن يكون الآن في عمله، لكنه مؤخرًا أصبح يتغيب كثيرًا على غير العادة.

لم أشغل عقلي بالأمر لأكثر من عشر ثوان وبدأت أستعد للنزول، دقيقتين في الحمام يتبعهم انزلاقي داخل التيشيرت الأسود الذي يخفي بشكل جيد الوزن الذي اكتسبته موخرًا بينما تساعد لحيتي والنظارة وشعري الكثيف في جعل ذلك يبدو غير ملحوظ على وجهي أيضًا، لطالما نجح شعري الكثيف والنظارات في إخفاء عيوب وجهي وعلى الأخص تلك الندبة الكبيرة التي أصبت بها صغيرًا في جبهتي.

خلال ساعة كنت قد وصلت إلى باب كليتي وعبرته إلى الداخل، لطالما كنت مؤمنًا أن العالم داخل كليتي يختلف عن العالم خارجها، كلية الفنون الجميلة، حيث يسكن فن وجمال العالم، هنا حيث قضيت أفضل خمس سنوات في حياتي،

وها أنا في سنتي الأخيرة وعليّ أن أودعها بعينيّ كلُما دخلتها وتأملت فيها.

أنظر إلى هاتفي المحمول فأجد أن المحاضرة قد بدأت بالفعل، ألاحظ أيضًا أن هناك العديد من الاتصالات الواردة التي لم أرد عليها، مصدر الاتصالات رقمان، الأول رقم «رفيق» صديقي، والثاني رقم «حورية» فراولتي الزرقاء.

قررت أن أتجاهل ذلك الأمر الآن، وتابعت طريقي نحو آتيلية الرسم، بينما تنساب إلى أذنيّ كلمات أغنية يسمعها أحد الطلبة في ساحة الكلية.

The mystery of it I recall

Suddenly the truth will change the way we fall

***

كان أول ما نطق به «رفيق» حين رأى وجهي: «لماذا لا ترد على الهاتف؟ ضبطته على الوضع الصامت أليس كذلك؟».

كان الضيق جليًا في ملامح وجهه ونبرة صوته، وكعادتي لم أجد سببًا لهذا الانفعال فرددت: «تعرف أنني لا أحب صوت رنين الهواتف المحمولة».

- «أعرف ولا أفهم لماذا، حورية تبحث عنك، وأنت مختفٍ مُنذ أيام ولا ترد على رسائلنا».

ابتسمت لألطف من حدة الحوار وقلت: «كل شيء على ما يرام، أنت تضخم الأمور».

أظن أنه كان غاضبًا من ردة فعلي وتابع التفوه بالعديد من الكلمات التي لم أتبينها وقتها، لأنني كنت مركزًا على شيء آخر: «حورية».. لم يفشل مرآها يومًا في سرقتي من وسط العالم، فجأة ينزاح عن قلبي كل شيء سلبي وتصبح الشمس أكثر ضياءً والعالم أكثر دفئًا، غلبت عليه درجات اللون الأصفر، فلم أعد قادرًا على إبعاد عيني عن تلك الفراولة ذات الملابس الزرقاء، يمكنني أن أتخيل نفسي أنظر لها بعينين متسعتين لامعتين هائم كمدمن حُقِن لتوه بجرعات عالية من المخدرات.

كانت تقترب والغضب والقلق يجتمعان فوق وجهها الذي لا ينجح مهما حاولت في إخفاء مشاعرها، بينما قرط الفراولة الذي صنعته بيدها يتدلى من أذنيها متأرجحًا أسفل طرحتها.

***

جلسنا في أحد أركان كلية الفنون الجميلة في حالة صمت استمرت لدقائق حاولت أن أقطعها بأن أتساءل عن أحوالها،

فأجابت بأنها بخير ثم تابعت صمتها، لكنها لم تكن بخير وكان من السهل أن أستوضح ذلك بسهولة من صوتها.

سألتها: «ما مشكلتك؟».

أجابت وهي تنظر لي بتعجب: «ألا تجد أن هناك مشكلة؟». أجبت أن لا، فانفجرت فيّ: «نحن لسنا بخير، علاقتنا تتداعى مُنذ أشهر، ألا تشعر بالأمر؟ كان من المفترض أن نتقابل ونتكلم بشأن العديد من الأشياء، لكنك فجأة تختفي لأيام، ولا ترد على مكالماتي ولا رسائلي».

أجبت: «كنت فقط أحتاج لبعض الوقت مع ذاتي».

- «وهل يبرر ذلك أن تختفي فجأة ضاربًا بقلقي عرض الحائط؟! من حقك أن تتمتع ببعض الخصوصية.. لكن أنت لست وحدك في الحياة، عليك أن تعلمني بقرار كهذا».

قلت بصدق: «أشعر أن كل شيء على ما يرام، أنتِ تضخمين الأمور».

كادت تصرخ في وجهي وهي تقول: «دائمًا أنا أضخم الأمور.. دائمًا الأمور بسيطة».

ردت بحدة: «نعم.. عليك أن تقدري أن علي ضغوطات كثيرة في تلك الفترة.. إنه عامي الأخير في الدراسة، وأحاول

أن أشق طريقي في سوق العمل، وذلك حتى أؤمن مستقبلنا معًا، ولا أطلب منك سوى أن تقدري ذلك».

مشكلتي معها هي أن روحها شفافة أكثر من اللازم، شفافة إلى الحد الذي يجعل حزنها وألمها يصبغان الكون من حولها فتصل أحاسيسها إلى قلبك، لقد كانت على وشك أن تبكي، اختفت الشمس فجأة وتلون العالم بالأزرق الحزين البارد، فانكمشت وانكمش صوتي وروحت أعتذر مرارًا وتكرارًا، ولدعم اعتذاري ذاك أخرجت من حقيبتي كتابًا كنت أحتفظ به لتلطيف الحدة المتصاعدة للأجواء بيننا في الفترة الاخيرة، وكان مجموعة قصصية للكاتب إحسان عبد القدوس لعلمي بحبها البالغ لكتابات هذا الرجل، فأخرجت من حقيبتها رواية قديمة كانت قد أنهت قراءتها، وأعطتها لي، كانت «فاوست» لجوته، لا أعرف لما شعرت بالقليل من العجب من إعطائها لي تلك الرواية وكأنني كنت أتوقع رواية أخرى، لكني ابتسمت لتلك المبادلة الثقافية اللطيفة التي نقوم بها من آن إلى آخر، فبادلتني الابتسام كما بادلتني الكُتب.

كانت كل خلجاتي وكلماتي حينها عبارة عن محاولات اعتذار، لماذا كنت أعتذر وقتها؟ هل كنت أعتذر عن وقاحتي أم عن لهجتي الحادة أم عن إقلاقها، أم ماذا؟ لأكون صادقًا

لم أكن أعتذر عن الشيء الحقيقي الذي أحزنها، كنت أعتذر عن أشياء لم تكن هي المشكلة الحقيقية، المشكلة التي لم أفهمها إلا متأخرًا.

***

بعد انتهاء اليوم الدراسي جلسنا أنا و«رفيق» في أحد المقاهي المجاورة لكليتنا لتبادل الأحاديث اليومية المعتادة التي غالبًا ما تدور حول الدراسة والعمل والفتيات بالطبع، لكن حوارنا دار هذه المرة بشكل أساسي حول مشروع التخرج الذي لم نخطط له ولم نعد له عدة حتى الآن، كان «رفيق» يتكلم بمرح وحماس كعادته، ويحاول أن يشرح ويصف الأفكار التي يشتعل بها رأسه، بينما سرحت أنا في تلك الأثناء فذكرياتي حول هذين الوغدين الصغيرين اللذين جمعهما القدر مُنذ المرحلة الإعدادية إلى أن وصلا إلى عامهما الأخير في الدراسة، يا لها من رحلة خضناها معًا! وها نحن في تلك النقطة، على وشك أن ننطلق منها إلى فصل جديد من حياتينا أتمنى أن نبقى فيها متجاورين كما كنا دائمًا.

وبينما أنا سارح في تلك الأفكار، إذا بي أتلقى لكمة «رفيق» في الجانب الأيسر من صدري مباشرة فأتوه قبل أن أقول بحدة: «قلبي هنا يا غبي!».

- «جيد.. عسى أن تشعر بأن عليك التركيز مع الحمار الذي ينهق أمامك»، (قال رفيق).

- «أنت تعرف أنني فقط.. عقلي مشغول بأمور عدة هذه الفترة.. وأنا مشتت في العادة.. فما بالك بالآن؟»، (قلت مدافعًا عن نفسي).

صمت «رفيق» يتأملني هنيهة قبل أن يتطرق إلى آخر شيء كنت أتمنى أن يصل له حوارنا:

- هل يتعلق هذا بمشاكلك الأخيرة مع حورية؟.

- «الأمور على ما يرام»، (رددت).

- الأمور ليست على مايرام، أخبرني لو كان في إمكاني المساعدة.

- ساعدني بالصمت يا صاحبي.

واستسلم مدركًا أنني لن أتكلم عن الأمر طالما قررت، فقام بتحويل مسار الحديث إلى شيء آخر، أخرج من حقيبته الفنية الكبيرة (art bag) لوحة قام باستنساخها ليأخذ رأيي فيها، كانت اللوحة عبارة عن خطوط كثيرة متقاطعة طولًا وعرضًا ومساحات مربعة ومستطيلة من الألوان المجردة، نظرت له نظرة طويلة قبل أن أقول بعدم اكتراث:

- موندريان.. اخترت أسهل شيء في العالم لتقوم بنسخه، إن لوحاته عبارة عن مربعات ملونة.

قال مدافعًا: «الحمقى فقط من يقولون إن لوحات موندريان سهلة، لقد درس هذا الرجل لسنين طويلة حتى تمكن من الوصول إلى تلك المرحلة العالية من التجريد، تحويل كل شيء إلى مربعات مرتبة، خالية من أي تعقيدات، حتى المشاعر قام بتجريدها في لوحاته، أنا أستنسخ لوحاته لأحاول أن أفهمها وليس استسهالًا».

قلت متعجبًا: «لا أفهم سبب حبك الكبير له، وكأنه مونيه أو دالي».

- «الراحة.. هذا ما أشعر به حين أنظر إلى لوحاته، كل شيء بسيط ومرتب ومريح، كل شيء في لوحاته في مكانه، لا شيء مقلق، بينما لوحات دالي بالنسبة لي كارثية.. إنها مرعبة وغير مريحة كل تلك السريالية والعبثية يشعراني بالتوتر، أتذكر حين رأيت لوحته أهوال الحرب للمرة الأولى، كنت مضطربًا طوال اليوم».

كان هناك العديد من الألوان التي تحيط برفيق بينما يتكلم، الأصفر والأخضر والأحمر، كل تلك البهجة والطاقة حوله جعلاني رغمًا عني أبتسم، كنت أحب أن أسمعه بينما يتكلم عن وجهات نظره الفنية رغم اختلافي معها، لكني لم أكن

أبدي اهتمامي بما يقول، لكني شعرت برغبة حقيقية هذه المرة في أن أقول:

- «وجهة نظر جيدة.. أحسنت».

بدا عليه العجب من تعليقي وربما توتر قليلًا فانطلق لنقطة أخرى سريعًا:

- «أعرف.. حسنًا.. إذًا هل ستأتي إلى رحلة يوم الجمعة القادمة.. وادي دجلة؟».

حين أتى على ذكر تلك الرحلة شعرت بانقباضة لم أفهمها في صدري، وكأن هناك شيئًا شريرًا فيما يخص تلك الرحلة، وحقيقة لم أفهم ذلك الشعور، فالنهاية هي رحلة.. طهي خلوي.. تصوير.. غناء.. ما الشيء الذي قد يسبب تلك الانقباضة! ولماذا اصطبغ العالم فجأة بلون كحلي مقبض؟ ربما أعيد التفكير في الذهاب.

- «لا أعرف.. أظن أنني ربما..» قاطع رفيق محاولتي الهزيلة للتملص من تلك الرحلة وقال:

- الجمعة القادمة.. كفاك توحدًا مع غرفتك وتعال.. تعرف أنني لم أكن مرتاحًا في غير وجودك.. هيا ندفع الحساب فورائي هم ما يتلم في البيت..». نظر إلى عينيّ لوهلة ثم أردف: «ما بك؟.. لماذا تدمع عينيك؟..».

لمست بأطراف أصابعي وجنتي فإذ بالدمع يبللهما، ولم أفهم سبب ذلك.

***

لم يكن (رفيق) مجرد صديق، إنه صاحب العمر، الوحيد الذي فهمني وأحبني بصدق وبقي.

في طفولتي غادرني كل من صادقتهم وتعلقت بهم وكان على رأسهم صديق طفولتي (سامر) الذي ولد معي في نفس البناية، وتشاركنا نفس الروضة والألعاب والاهتمامات، كان (سامر) طفلًا مميزًا وذكيًا لكن خجولًا، و كنت أنا ضعيفًا وشديد الحساسية لكن أتمتع بروح المغامرة، ومعًا كنا ثنائيًا عشوائيًا تمامًا، لكننا كنا منسجمين كانسجام العسل مع الطحين، فحين يريد هو أن يتحصل على بعض الأسلاك وشرائح السيلكون ليقوم بتجاربه وتوصيلاته التي كانت بهدف تصنيع آلة زمن خيالية كالتي نشاهدها في برامج الأطفال، كنت أسحبه أنا من يده إلى أقرب مقلب قمامة ونتحصل على كل ما يحتاج وما لا يحتاج، كنت صديق السوء الذي لا يتمناه أي أب لابنه الذكي الخجول، لكن القدر لم يكتب لنا أن نكبر متجاورين، فحين صرنا في العاشرة مات والده، ثم تبع ذلك زواج أمه والهجرة إلى كندا، وربما كان ذلك أفضل له، لكنه لم يكن الأفضل لي حينها، قررت

حينها داخل نفسي بالأ يكون لي أصدقاء بتلك المنزلة أو بذلك القرب، ربما فقدت ثقتي في بقاء من أتعلق بهم في حياتي، كنت طفل شديد الحساسية بشأن التعلق والفراق، وتحول الأمر من مجرد حساسية إلى عقدة بعد موت أمي وأنا لم أبلغ بعد الثالثة عشرة.

بعد موت أمي، نقلني أبي إلى مدرسة أخرى أبعد قليلًا عن البيت لكن أفضل بكثير في الخدمات التعليمية والترفيهية، والحقيقة أنني لم أحب ذلك كثيرًا فلقد كانت تلك المرحلة مزيجًا من درجات الأزرق، حتى أنها استحقت اسم المرحلة الزرقاء سيرًا على نهج لوحات بيكاسو التي عبر فيها عن حزن وبؤس العالم، فقد كان الأزرق فيها حاضرًا بقوة بداية من لون قميص المدرسة الأزرق الكاروهات، ومرورًا بلون سماء الصباح التي أنظر إليها بعيون ناعسة في كل يوم دراسي جديد، ثم وصولًا إلى الأزرق الغامق الذي يتمثل في لون تنانير الفتيات بمدرسة البنات الإعدادية الواقعة خلف مدرستي للبنين، مشاعر مختلطة ومتضاربة كانت تصيبني لدى رؤيتي للتنانير الزرقاء التي تعلو أجسام الفتيات اللواتي يتحسسن طريقهن نحو أن يكن نساء، بين سعادة وخجل ونشوة وخوف ورهبة ورغبة.. رغبة في الاقتراب والهروب في نفس الوقت، وعلى عكس كل الفتيان في سني حينها هربت في كل فرصة سنحت لي بالاقتراب، ولا أعرف حتى

الآن هل كان السبب في ذلك خوفي من تنانيرهن الزرقاء، أم من الفتيات أنفسهن، كانت علاقتي بذلك اللون مضطربة حينها، حتى أنني أذكر رفضي الكتابة إلا بالقلم الجاف الأسود، ولم أكن لأكتب بالأزرق إلا في الامتحانات مضطرًا.

في إحدى محاولات أبي للخروج بي من حالة الحزن التي سيطرت على مرحلتي الزرقاء تلك أحضر لي كرة قدم رائعة الشكل تشبه تمامًا الكرة التي لُعب بها كأس العالم عام ٢٠١٠، لم أكن من عشاق كرة القدم يومًا، لكني وككل الفتيان في سني كنت مهتم بها، فلعبك كرة القدم بشكل جيد وإلمامك بأمورها يضمن لك مقعدًا بين أبناء جنسك الذكور، وكرة قدم جديدة جذابة المنظر كفيلة بجعل الفتيان في سنك يلتفون حولك طلبًا للعب معك بها، هكذا تعرفت على مجموعة من الأوغاد الذين شاركوني المدرسة وشاركني بعضهم المنطقة السكنية، و كنت مدركًا حينها أنهم عرفوني فقط لأجل كرتي.

كنت لاعبًا فاشلًا، أطوح الكرة شمالًا ويمينًا، فأفسد اللعبة على فريقي، لذلك ألزموني مركز حارس المرمى ولولا ملكيتي للكرة لكانوا ألقوني في أقرب مقلب قمامة، كنت أهرب كدجاجة حين أرى الكرة وهي قادمة نحوي تكاد تصطدم بوجهي فيخسر فريقي دون مجهود، وبدلًا من أن أتلقى الكرة، كنت أتلقى اللوم، إلى أن استجمعت شجاعتي

في مرة من المرات واستقبلت التسديدة القادمة نحوي بقبضة يدي كي أبعدها عن المرمى، وقد نجحت نسبيًا.. فلقد أبعدت الكرة لكن أكثر من اللازم، وكانت سرعة الكرة المتجهة بثبات نحو أحد أسياخ السور الحديدي كفيلة بصنع ثقب لا يمكن علاجه في جسد الكرة، فتحولت في لحظة إلى مجرد خرقة بالية.

أطبق الصمت علينا جميعًا للحظات قبل أن يشرعوا في إلقاء اللوم بكل أشكاله عليّ، ثم انفضوا بعدها من حولي بينما أنا راكع على أرض الملعب ساكن أراقب يدي التي اصطدمت بالكرة تتحول من الأحمر إلى الأزرق، وحين بدأت أعصابي تتلقى ألم الصدمة في يدي، انخرطت في بكاء هادئ، رحل الجميع عدا هو.. (رفيق)، فلقد عاد لي حاملًا الكرة المخروقة في يده ثم جلس على الأرض جواري وراح يربت بيده الصغيرة على كتفي بلطف، وطلب مني ألا أبكي، فكل شيء سيكون على ما يرام، فنظرت له وتذكرت أمي، وكففت عن البكاء.

في اليوم التالي أتى إلى المدرسة حاملًا الكرة في حقيبته وقد كانت منفوخة ومشدودة الجلد وكأنها جديدة، وحين أعطاها لي وحملتها بين يدي لم أصدق عيني وبحثت في جسدها عن مكان الخرق، لأجد أنه قد وضع كرة بلاستيكية

زرقاء داخل كرتي وقام بنفخها لتبدو من الخارج وكأنها سليمة، وعلى الرغم من عدم تفضيلي للأزرق وتوجسي منه حين نظرت للكرة أول مرة فإنني سعدت كثيرًا رغم أنني لم أدرِ ما وجب عليّ فعله شكرًا له حينها، ذكرني تصرفه ذلك بأمي حين قُطعت بالخطأ أحد رسوماتي فقامت بلصقها وإعادتها وكأنها لم تُمس، ثم أخبرتني بعدها أن كل شيء سيصبح على ما يرام، ولقد كان (رفيق) قادرًا دائمًا على جعل كل شيء على ما يرام بالفعل.

مُنذ ذلك اليوم ترابطت مصائرنا، حتى أنني حين ركزت انتباهي على تنمية مهارة الرسم لدي تشاركنا الشغف بالفن، ولم ألعب كرة القدم بعد ذلك اليوم.

***

على الرغم من درجة الحرارة العالية إلا أن نسمات الهواء القادمة من أعماق الوادي كانت كلمسة حنون تشجعنا على الاستمرار، كنت أحاول أن أصعد أحد تلال ذلك الوادي الذي يحيط بنا محاولًا أن أسلك أكثر الطرق الممهدة حتى لا أنكب من فوق التل فاتحول إلى كتلة عظام متدحرجة، كنت أحاول ألا أنظر إلى الاسفل حتى لا أصاب بالذعر، هناك صوت متسلق آخر خلفي يطمئني، يسألني الصوت ما إذا كنت بخير فأجيب أن كل شيء على ما يرام، وكانت تلك

كذبة.. فقدماي اللتان لن تعتادا هذا المجهود العضلي ليستا على ما يرام، لم يمر وقت طويل قبل أن ترتخي عضلات قدماي فجأة فانزلقت، أحاول التمسك لكن هيهات، وقبل أن أستسلم قام جسد آخر بدفعي إلى الأعلى قبل أن أسقط، فأتمكن بإعجوبة من التمسك بنتوء في المنحدر لكن يبدو أن الذي كان يشد عضدي لم يتمكن من التمسك طويلًا تحت حمل وزني الزائد، فلقد سمعت صوت انحداره خلفي فنظرت نحوه وقد امتقع وجهي لرؤية وجهه الصارخ بينما يسقط، لقد كان (رفيق) ملاكي الحارس هو الذي سقط كما إيكاروس حين اقترب من الشمس.

شهقت فزعًا وفتحت عينيّ بقوة لأجد أنني في الحافلة المتجهة إلى كليتي وبعض العيون الفضولية للركاب تنظر نحوي مستفهمة، أنظر نحو النافذة فأجد أن محطتي قد اقتربت، أضع الحقيبة على ظهري متجاهلًا نظراتهم، وأنزل في محطتي.

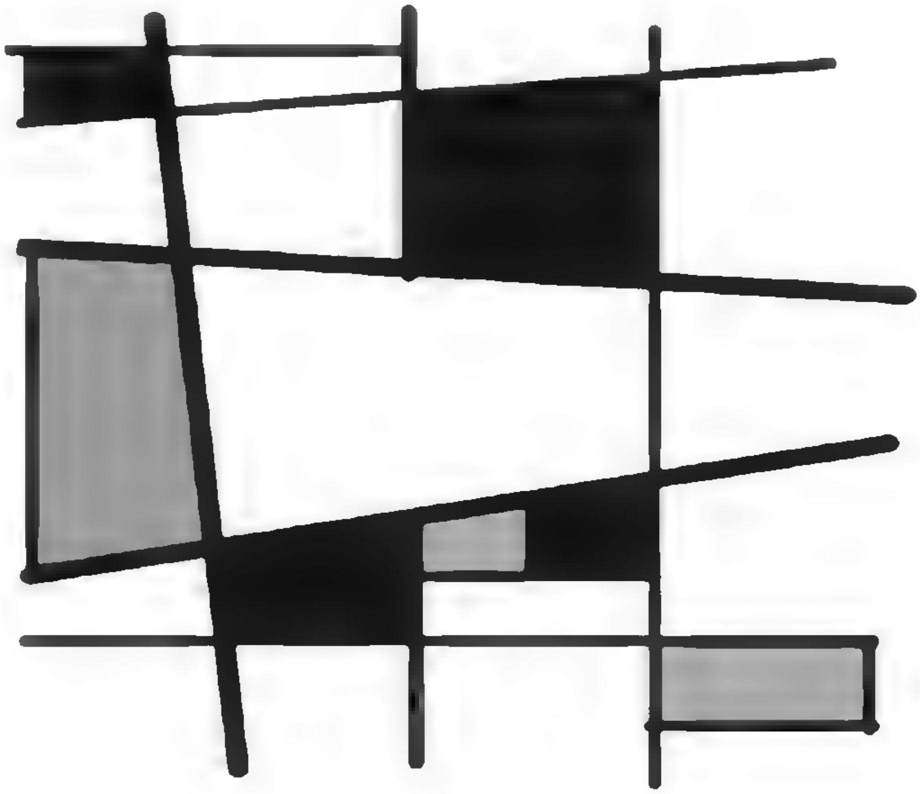

حدوتة الغراب الأبيض المنبوذ

حين كنت ابن العاشرة رأيت للمرة الأولى غرابًا يسرق، كنت متعلقًا بيد أمي الحبيبة حين لمحته على بُعد أمتار وهو متجه نحو سيدة عجوز بينما ينعق قبل أن يسرق شيئًا لامعًا ما من يدها لم أتبين ماهيته، فصدرت صرخة قصيرة مفزوعة عن المرأة لفتت انتباه الجميع بما فيهم أمي، رفعت يدي الصغيرة وأشرت نحو ذلك اللص الطائر وسألت أمي: «ماما.. انظري.. لقد سرق ذلك الغراب الشرير تلك السيدة».

استدارت نظراتي نحوها فرأيت على محياها ابتسامتها التي لا تفارق أحلامي السعيدة، ثم تبعتها قائلة:»هو ليس شريرًا.. هو طائر لا يفقه معنى السرقة وينجذب للأشياء الجميلة ويحبها».

أظن أنني رسمت حينها على وجهي ملامح وجه بريء مغفل يحاول التفكير قبل أن أسأل: «هل يسرق الأشياء اللامعة لتجلب له الحظ؟».

صدمت أمي من الفكرة حينها، لكن على كل حال كنت طفلًا غريب الأطوار مُنذ نعومة أظافري، يصعب توقع أسئلتي وأفكاري.

- «ولماذا قد يحتاج لشيء يجلب له الحظ؟!»، سألتني أمي

فأجبت:

- «لأنه منحوس».

سكتت وبدا عليها الضيق قليلًا ثم سألتني: «لماذا تقول إنه منحوس؟»، فأجبت: «هكذا قرأت في إحدى القصص الصغيرة التي اشتراها لي أبي من معرض الكتاب.. وهذا لأن لونه أسود وصوته قبيح». تأملتني أمي بعد أن أدركت أن الكبار يزرعون الكثير من أفكارهم السلبية ومعتقداتهم داخل كُتب الأطفال دون أن يشعر أحد، ثم نزلت على قدميها ليصبح وجهها في مستوى بصري وقالت: «إنه ليس منحوسًا أو قبيحًا.. فقط هو مميز، حين يتعلق الأمر بالطبيعة فليس من حق أحد أن يحدد معايير القبح والجمال، العالم بكل ما يحتويه جميل، الأمر كله يكمن هنا»، وأشارت لرأسي حينها: «الأفكار.. الذكريات.. المعتقدات.. كل تلك الأمور التي يخزنها عقلك هي ما تحدد كيف ترى العالم.. عليك أن تبحث عن الحكمة والجمال في كل شيء حولك مهما بدا لك قبيحًا أو مؤلمًا.. حاول أن تثق في العالم».

لم أدرك حينها تمامًا ما عنته كلماتها، فسألت بشكل مباشر:

- «هذا يعني أنه ليس سيئًا؟».

ابتسمت أمي ابتسامة واسعة، ثم حولت نظرها نحو غراب

يقف على سور قريب وقالت: «هذا الغراب لديه صغار مثلك تمامًا، وهو يحبهم كثيرًا، ويقوم على رعايتهم وإطعامهم حتى بعد أن يغادروا العش ويصبحون قادرين على الطيران، دعني أحكي لك قصة قصيرة سريعة».

ثم توقفت للحظات تستجمع الكلمات قبل أن تبدأ في سردها:

«القصة عن غراب صغير خرج من البيضة بريش أبيض، بينما كان كل إخوته الذين ولدوا معه يتمتعون بريش أسود، وكانت الغرابة أمهم أيضًا ريشها أسود، كان مختلفًا عن كل أفراد عائلته، فلم يحبه أخوته ونبذوه لأنه مختلف عنهم، ولم يشاركوه حتى الطعام الذي كانت تحضره لهم أمهم، لكن أمه كانت تعوضه أحيانًا فتحضر له المزيد من الطعام، في النهاية وحين شعر الفرخ الأبيض الصغير أنه غير مرغوب فيه قرر أن يرمي نفسه من العش عالمًا أنه سيموت لأنه لا يستطيع الطيران بعد، بالفعل تقدم نحو طرف العش وقفز واثقًا من أنه لا أحد سوف ينقذه».

قلت بحزن حقيقي: «هل مات؟».

قالت أمي بينما تشدني من خدي برفق: «ما كانت أمه لتتركه يموت، لقد طارت بمجرد أن شعرت بالأمر وأمسكت به لتعيده إلى العش، حينها بكى الغراب الأبيض الصغير

طويلًا وطلب من أمه أن تتركه يموت لأن لا أحد يحبه، لكن أمه قالت له أنا أحبك.. لن أتركك أبدًا يا صغيري، ثم احتضنته والتف حولهما باقي إخوته يحتضنونهما ويخبرون أخاهم أنهم آسفون ويحبونه».

قلت حين أنهت أمي القصة: «جميلة.. إن الأم الغرابة تذكرني بك يا أمي».

- «أتمنى أن أكون بالفعل أمًّا جيدة لهذه الدرجة».

قالت أمي تلك العبارة ثم ضمتني بشدة وخوف إلى حضنها واستدركت:

- «لن أدع شيئًا في العالم يؤذيك يا صغيري.. حتى لو كان أنا».

(٣)

٢٣ نوفمبر ٢٠٢١- درجة الحرارة ٣٧°

جلست على أحد الكراسي الحجرية المغطاة بتصاميم الموزايك في ساحة الكلية أرسم بعض الاسكتشات التحضيرية استعدادًا لمشروع الشهر، ولم أكن أملك فكرة محددة عن ماهية ما سأرسم، لذلك رسمت ما وقعت عليه عيناي من أشياء، وكان من بين تلك الأشياء غراب قد استقر فوق السور الحديدي المحيط بساحة الكلية، فأعجبني شكله وشرعت ألتقط خطوط جسده بسرعة على الورق قبل أن يطير باستخدام قلم الحبر، خطوط حادة ومستقيمة في زوايا وفي زوايا أخرى تكون انسيابية وناعمة، كان من أكثر الطيور المميزة التي يمكنك رسمها من وجهة نظري، ولم يسعني حينها بينما أراقب ذلك الكائن سوى تذكر فراولتي الزرقاء حين شبهتني بالغربان، فأنا على حد قولها غريب ومميز مثلها، ولدي نوع خاص من الذكاء الخبيث الذي لا أبديه إلا للخاصة من البشر مثلها، ولا أهوى التجمعات مثلها، كما أنني أرتدي الأسود.. أيضًا مثلها.

قطع تأملي في الطائر صوت ما ففزع الغراب وطار وفزعت أنا أيضًا، نظرت نحو صاحبة الصوت فإذا بها (نورا)، حيتني فبادلتها التحية وأسرعت تشاركني جلستي تتأمل ما رسمت.

- «غربان!.. جميلة»، (قالت نورا).

- «وغريب.. أليس كذلك؟».

قلت عبارتي تلك فأسرعت تقول: «إطلاقًا.. أنا أحبهم».

لم تكن تجاملني، (نورا) من نوعية الفتيات التي أصدق أنها قد تربي غرابًا في منزلها، إذا أردت أن أصفها فيمكن أن أقول إنها فتاة جميلة خمرية اللون امتزج لون بشرتها مع اللونين الأسود والبنفسجي، شعر صُبغ بالبنفسجي وملابس سوداء وعينان كحيلتان واسعتان، ورقيقة كالأشباح المسالمة التي تسكن هوجورتس، وكما يوحي وصفي السابق فهي أيضًا غريبة الأطوار بعض الشيء، أو على الأقل بالنسبة لمن لا يؤمنون مثلي بأفكارها الميتافزيقية عن العالم، وقد توضح كلماتها التي تبعت جملتها السابقة الأمر أكثر:

- «في الواقع جئت لأخبرك بشيء.. لكني لاحظت أثناء اقترابي منك بأن طاقتك ليست على ما يرام لسبب ما.. أنت ميزاني، ألست كذلك؟».

إنها تؤمن بأمور الطاقة والأبراج وما إلى ذلك، وتتعامل مع الأمر بجدية كبيرة.

- «نورا.. دعكِ من برجي، أنا على ما يرام وطاقتي في أعلى

مستوياتها، أظن أنك مخطئة»، كان ذلك ردي على سؤالها.

نظرت إليّ مطوّلًا قبل أن تقول: «أعرف أنك لا تؤمن بالطاقة لكنها لا تحتاج لإيمانك إن لكل شيء في العالم طاقته، المشاعر والأشخاص والأماكن.. قد تتخذ تلك الطاقة شعورًا تنقله إلى من حولك.. أو ربما في بعض الأحيان لون.

أثار كلامها فضولي فسألت: «ماذا تعنين بلون؟».

- أعني أن ترى الخوف يتمثل أمامك في اصفرار الوجوه، أو الغضب في الأحمر الذي قد يعميك ويحفز أعصابك، والحزن في الأزرق الذي يخيم على الأجواء».

- «هل تظنين أن الأزرق حزين؟ إنه لون الماء والسماء والحياة»، سألت.

- «أنت محق.. لكن الأمر يتوقف على كيف ترى أنت هذا اللون، لكن غالبًا لكل لون أو درجة لونية طاقة ثابتة تنتقل إليك بمجرد النظر للون، لذلك هناك ألوان ساخنة وباردة، لا يمكن أن تقول إنك تشعر بالبرد حين ترى الأحمر على سبيل المثال، لكن ربما التجارب الشخصية تلعب دورًا في رؤيتنا للألوان وتفضيلاتنا لها»، وكان هذا هو ردها.

- «إذًا كيف يمكنك أن تري طاقتي؟».

- «ستسخر مني بالطبع إذا أخبرتك أنه مجرد شعور سلبي انتقل لي حين رأيتك، فمن الصعب أن ترى هالة الشخص أو الـ AURA الخاص بالشخص، إلا إذا كنت من أصحاب القوة الخارقة أو تتمتع بشفافية عالية، عامة رؤية ذوي الشفافية للهالات اللونية تختلف حسب نوع القدرات لديهم، فهناك من يستخدمون قدرتهم تلك في معرفة ما إذا كان الشخص الذي أمامهم جيد أم سيئ، إذا كان تصرف ما أو قرار ما صحيح أم خاطئ، أظن أن هذا يفسر لماذا قد نجد أشخاصًا يتخذون دائمًا القرار الصحيح».

تأملت كلماتها قليلًا محاولًا ألا أبدي نحوها أي رفض، ثم سألتها محاولًا أن أظهر اهتمامًا بكلامها:

- «إذًا بماذا تشعرين حين تنظرين نحوي؟».

حملقت في وجهي فجأة واتسعت عيناها وأضحى البؤبؤان أصغر، وقالت: «أنت تائه يا فتى، أنت حيث لا يجب أن تكون، ما تفعله الآن ليس إلا محاولة لتعذيب نفسك ونكء جراحك مرارًا وتكرارًا».

كانت كلماتها صادمة وغير مفهومة، ونظراتها مريبة وبدا كأن الزمن توقف بنا بينما تتكلم فتجمد كل شيء لبرهة، ثم عاد كل شيء لطبيعته، فتحت فمي بصعوبة وسألتها:

- «ما.. ما الذي تعنينه؟».

خرجت فجأة من الحالة التي تلبستها بينما كانت تتكلم وكأنها استيقظت للتو وسألت متعجبة: «أعني ماذا؟».

شُلَّ تفكيري ولم أعرف ما الذي عليّ قوله، لكن وقبل أن أتكلم التقطت هي خيط الحوار: « كنت سأنسى الشيء الذي جئتك لأجله». أخرجت من حقيبتها نشرة إعلانية صغيرة وناولتني إياها ثم أردفت: «المعرض الشبابي الذي سأشارك به تحت إشراف الكلية سيكون افتتاحه يوم الأربعاء القادم، أردت أن أدعوك بنفسي لأنني أهتم برأيك كثيرًا»، ثم خفضت صوتها قليلًا وقالت بخبث أنثوي: «ولا تنسَ بالطبع أن تدعوها للحضور».

ابتسمت وهنَّأتها على المشاركة، فبادلتني الابتسام وشكرتني قبل أن تقوم وتودعني متمنية أن تراني على خير بالمعرض، فما برحت أراقبها بينما تبتعد لدقيقة مفكرًا فيما قالت مُنذ قليل، قبل أن أقنع نفسي أنها لم تقصد شيئًا، وأنه ربما كان مجرد هراء قرأته اليوم في حظك اليوم.

***

هل الأزرق بالفعل حزين؟ هل يعني الحياة أم ربما الموت؟

لقد عشت فترة طويلة من حياتي على علاقة مضطربة مع

الأزرق، علاقة بدأت من اللانطباع ثم مرت بمشاعر كراهية وبغض، ثم تجنب تبعه تخطٍ وتقبل.. ووصلت في النهاية إلى غرام.

حين أفكر في أسباب حبي للأزرق في الوقت الحاضر وسروري لرؤيته فأنا لا أجد سببًا غيرها، فلولا الأزرق ما كنا تقابلنا.. لولا الأزرق ما كان في إمكاني أن أرى شيئًا في جمالها.

قابلت (حورية) قبل أربع سنوات حين كنت طالبًا في السنة الثانية بينما كانت هي طالبة في السنة الأولى حديثة العهد بعالم الحياة الجامعية، في ذلك الوقت طُلب منا تنفيذ مشروع استنساخ لإحدى لوحات الفنانين الكبار، وبحثت كثيرًا في مدارس الفن المختلفة عن لوحة تناسبني، واستوقفتني بالطبع لوحات فان جوخ ومونيه لحبي الكبير لمدرستهما الانطباعية، إلا أنني لاحظت أن الكثير من زملائي يميلون إلى لوحات فان جوخ لكونها حل سهل ومشهور، لذلك أخذني البحث إلى المدارس التي تلت الانطباعية وكان من بينها التكعيبية التي كنت ولا زلت أواجه مشكلة حتى يومنا هذا في حبها، لكن وقبل أن أتخطاها لفتت انتباهي مجموعة مهمة من اللوحات لفنان التكعيبية (بيكاسو)، لوحات عرفت باسم المرحلة الزرقاء، جذبني تميزها وتميز

الحالة الشعورية التي تبثها فيك، وبينما أنا أقلب في تلك اللوحات استوقفتني لوحة من تلك المرحلة باسم المرأة والطفل، وكانت تمثل أمًّا حزينة جالسة على الأرض تحتضن طفلًا رضيعًا، وقد غلب على اللوحة لون أزرق غامق حزين يبرز وجوه الشخصيات الشاحبة.

قمت بنسخ تلك اللوحة محاولًا أن أخرج فيها ذلك القدر من الحزن الذي خزنه قلبي وقتها، وفي النهاية حصلت على تطابق كبير مع أسلوب الفنان جعلني رغم الحزن الذي أغرقتني فيه اللوحة أهرع لأصورها وأرفعها على حسابي على فيس بوك، وجلست طيلة الليل أستقبل تعليقات الأصدقاء المشيدة والمشجعة، وبدأت أقبل يومها عددًا من طلبات الصداقة المرسلة لي من زملاء الدراسة بالكلية وكانت هي من بينهم، ضغطت الزر الأزرق لأقبل طلب صداقتها وكأنني كنت أقبل أن أغدو إنسانًا أسعد، وما هي إلا ساعات حتى وصلتني رسالتها الأولى، وكانت رسالة من بين رسائل عديدة تهنئني على الاستنساخ وباقي أعمالي على صفحتي الشخصية، وتمنت لو استطاعت يومًا أن تتمكن من رسم شيء بهذا الإتقان، لكن ما ميز رسالتها حقًّا هي إرفاقها جملة «شكرًا على هذا القدر اللطيف من الأزرق اليوم». كانت تحب الأزرق، وكانت لطيفة جدًا، فجذبني هذا إلى تبادل حوار طويل معها عن المرحلة الزرقاء والرسم عامة، وأثناء حوارنا

أخذني الفضول نحو النظر إلى صورتها لم تكن الصورة واضحة تمامًا، لكني تبينت وسط ذاك الفلتر المعتم عينين صغيرتين لامعتين كنجمتين بعيدتين، وكان من المنطقي بالنسبة لي أن يمتلك شخص في لطفها هاتين العينين.

أخبرتها بعد أسبوع أنني سأشارك في معرض شبابي كبير وأتمنى أن تكون من الحضور، والحقيقة أنني حينها كان ينتابني فضول كبير لرؤيتها والتعرف عليها ولم أعرف كيف أخبرها بذلك دون أن أفسد الود الذي قام بيننا.

بالفعل حضرت المعرض، ورأيتها في ذلك اليوم قادمة نحوي بينما تتهادى برقة حتى تكاد تشعر أن قدميها يمكن أن تنكسرا إذا ما تحركت حركة خاطئة أو غير محسوبة تفسد ذلك الميكانزم البديع في مشيتها، ثم وقفت أمامي ومدت يدها نحوي قائلة: «أنا حورية»، بالطبع كنت أعرف.. وثُبتت في مكاني لوهلة أنظر إليها وأتساءل كيف يمكن لهاتين العينين الصغيرتين أن تحتويا جمال الكون كله، كأنهما نجمتان يبرز جمالهما هذان الجفنان الضيقان، كنت متوترًا طيلة اليوم ويزيد توتري إذا ما التقت عيني بعينها، وكانت هي تنظر نحوي وتبتسم، أهدتني الشيكولاتة ثم طلبت التقاط صورة معي ومع لوحتي قبل أن ترحل.

لا أعرف ما الذي حصل لي بعد ذلك اليوم، لقد جرت

الأمور بسرعة، وأصبحنا مقربين في أقل من شهر، وصرت إذا ما رسمت أستخدم الأزرق بكل درجاته كأنني أخطب ودها، أرسل لها أغنية أحبها لفيروز فتبادلها بأغنية لأديل Adele، واكتشفنا أيضًا أننا نتشارك حب الكتب فصرنا نتبادل الروايات أيضًا، حتى أتت مرة سألتني فيها أثناء عملي بإحدى اللوحات بالكلية عن سبب استخدامي للأزرق بتلك الكثافة فيها رغم أن هناك ألوانًا أخرى قد تكون مناسبة. فوجدتني أقول لها:

«أزرق لأنك تحبينه.. ولأنني أحبك».

كان ذلك شجاعًا أكثر مما اعتدت في أي وقت، وقد عجبت من نفسي حينها، لم تجبني حينها، فقط لمعت عيناها وتورد وجهها ليصنع مع طرحتها اللبنية ألطف شيء رأيته، ثم رحلت.. وخفت أن أكون قد أفسدت الأمر تمامًا، وبعد أربع أيام من الإلحاح عليها أرسلت لي رسالة تخبرني فيها: «وأنا أيضًا أحبك بقدر حبي للأزرق».

ثم تقاسمنا الدنيا بعدها.

قرأت ذات مرة أن الرجل يقع في حب المرأة التي تبهره، وتساءلت كيف ستكون تلك المرأة التي ستبهرني؟ فكانت هي الإجابة. لم تكن تحتاج إلى بذل جهدٍ لإبهاري، يكفي فقط أن تكون هي، فتاة عادية بتفاصيل غير عادية، وجودها كان

معجزة في حد ذاته، ملمس يدها الصغيرة المتوترة داخل يدي، أسنانها اللؤلؤية التي عانت من اعوجاج صغير في الناب السفلي بسبب حادث قديم جعل ابتسامتها مثالية، أنفها الصغير الدقيق الذي تشعر حين تنظر إليه بأنه نُحت بإزميل ثم هذب بالمبرد، وجهها الطفولي ذو الملامح البريئة التي كانت قادرة على تحويلها إلى أشد ملامح النساء فتنة، ثم شذاها.. لم تكن من هواة التعطر، لكن كان لها رائحة هادئة لطيفة كرائحة الزهور.. وأنا الذي سخرت يومًا من بطل رواية العطر لأنه أراد استخلاص روائح النساء والتعطر بها، أصبحت معها أومن أن لكل امرأة شذاها، حتى بكاؤها أحببته، أحببت إزعاجها وغضبها الذي يتسبب في احمرار وجهها كالطماطم، كانت مليئة بالحياة، كنهر أزرق يجري.. جامحة كالبحر.. عميقة الروح كالمحيط.. وصافية في نفس الوقت كسماء في يوم مشمس.

وأنا كنت أهيم بها..

***

(٤)

بعد يوم دراسي طويل، كان لدى موعد عمل اتفقت عليه مُسبقًا مع أحد مكاتب الدعاية والإعلان كمحاولة من محاولاتي في الفترة الماضية في تحسين فرص عملي في سوق التصميمات، وكانت تتطلب مني تلك المحاولات ساعات عمل تضاف إلى ساعات العمل على مشروعات الكلية، والتي أضيف إليها هذا العام العمل على مشروع تخرجي، مما يترتب عليه وقت منعدم لأي نشاطات اجتماعية وتركيز منعدم تقريبًا.

أثناء وجودي في الحافة رحت أراقب الطريق والناس بينما أسأل نفسي إذا كنت أنا المجنون الوحيد الذي يشعر أن درجة الحرارة عالية؟ نحن في شهر ديسمبر والشتاء قادم، لكن الجو حار، أشعر بذلك ولا أستطيع أن أرتدي أي ملابس ثقيلة فوق جسدي، بينما يحتضن جميع من حولي معاطفهم الجلدية وكأننا في ألاسكا!

وبينما أنا غارق في أفكاري تلك، لاحظت أن الحافلة بالفعل قد وصلت إلى المحطة التي من المفترض أن ألحق بها، وتوقفت دون حتى أن أطلب من السائق، وظلت الحافلة واقفة وكأن السائق ينتظر شيئًا ما! تلفتُّ فلاحظت أن جميع من حولي متجمدون، حتى الطريق في الخارج تحول إلى

متحف ضخم من تماثيل الشمع، كأن الزمن قد توقف! بمجرد أن قمت عن الكرسي عاد كل شيء يتحرك فجأة، درت مجددًا بعيني فوجدت أن كل شيء قد عاد طبيعًا حتى ظننت أنني فقط توهمت ما حدث.

«إنزل بسرعة يا أستاذ».

أخرجني صوت السائق من تلك الموجة العاتية من التساؤلات والتأملات، فأسرعت أهبط سلالم الحافلة وتحرك السائق بها بمجرد أن لمست قدمي الأسفلت، يبدو أنني أرهق نفسي أكثر من اللازم.

بعد أن نفضت ما حدث أو ما توهمت أنه حدث عن رأسي تابعت اليوم وذهبت إلى مقابلة العمل التي أثمرت عن اتفاقية مشروع عمل ممتد إلى ثلاثة أشهر قابلة للتجديد، فرصة تكفل لي خبرة ومبلغًا لا بأس به بالنسبة لطالب جامعي.

بعد المقابلة ألقيت نظرة على هاتفي فيتصادف ذلك مع اتصال (حورية) للمرة الثالثة بي خلال الساعتين الماضيتين، في الحقيقة لم أكن مستعدًا للرد الآن، ورأيت أنه من الأفضل لو تكلمنا حين أعود إلى البيت.

عدت إلى البيت في تمام التاسعة مساءً لأجد أبي جالسًا

على كرسي الصالون المفضل لديه يشاهد التلفاز في صمت، لم ألقِ التحية ونويت أن أدلف إلى غرفتي في صمت، لكنه انتبه لدخولي فالتفت برأسه نحوي وقال: «كنت أنتظرك لتناول العشاء.. هل أكلت بالخارج؟».

يعرف أبي جيدًا أنني وعلى الرغم من توتر علاقتي به فإنني أهيم حبًا بطبخه، لذلك دائمًا ما يترك لي حصتي من طبخه في المطبخ أو يقوم بدعوتي إلى العشاء إذا تصادف وجودي ورغب في الرفقة، لكني كنت مرهقًا وفكرت بجدية أن أرفض، إلا أن شيئًا ما بداخلي وكأنه صوت بعيد أخبرني أنه عليّ ألا أفوت تلك الدعوة، نظرت إلى غرفتي التي أتشوق لدخولة والراحة فوجدت لونًا أزرق كئيبًا غير مريح يغلب عليها، بينما الصالة حيث أبي صفراء بهيجة، وكأن المكانين ليسا في نفس الشقة أو نفس العالم حتى.

جهزت معه طاولة الطعام وجلسنا قبالة بعضنا نأكل دون أن يتحرك فاهانا سوى للأكل، كان قد طبخ اليوم طاجن لحم ممتاز مع البصل والفلفل، وبجانبه طبقين من الأرز الأبيض المضبوط، من الصعب أن يكون نيئًا قليلًا أو معجنًا قليلًا، كما أن البهارات في الأكل كله قد روعيت كمياتها، لم يكن أبي يستخدم ميزانًا للطبخ، كان يستخدم حِسه، وقد كان حسه أقوى من أي ميزان.

أضحى أبي مؤخرًا أكثر اهتمامًا بي وبوجودي وبطعامي، يذكرني هذا بالفترة التي لحقت موت أمي ولا أفهم لهذا سببًا، ركزت في وجهه أثناء تناوله الطعام فلاحظت كيف نحف وجهه وخُطت التجاعيد أسفل عينيه وزادت الشعرات البيضاء في ذقنه وما تبقى من شعر في رأسه، لاحظت شيئًا آخر أيضًا أثار توتري، فرغم أن الأجواء من حولنا تبدو ملونة وسعيدة والألوان واضحة وقوية فإن أبي فقط كان هو العنصر الباهت الوحيد في المشهد، وكأن الألوان قد سحبت منه!

أثناء تأملي تقابلت عيني مع عين أبي فتعثرت أفكاري ليبتسم ابتسامة خافتة كمصباح يوشك على الاحتراق ثم يستهل الحوار:

- «هل الدراسة بخير؟».

سؤال نمطي حاول أن يلطف به الأجواء لكني لم أستطع سوى أن أجيب باقتضاب: «الحمد لله.. درجاتي ممتازة كما أظن».

حاول أن يوسع من نطاق الابتسام فوق وجهه فغدت تجاعيد وجهه أكثر وضوحًا وسأل: «ماذا عن عملك.. الأمور بخير.. ألا تحتاج مالًا؟».

- «لدي ما يكفي». وكان ردي هذا المرة أكثر اقتضابًا.

- تمام.. ممتاز.

توقفت مُنذ فترة عن أخذ ما يتركه لي أبي من مال، محاولًا أن أستقل عنه رويدًا رويدًا، وأظن أن الأمر يضايقه بما أنها لم تكن خطوة متفقًا عليها من كلينا.

استطرد أبي بعد برهة من الزمن: « كنت أتساءل.. ما إذا كنت تود أن نخرج معًا في نزهة.. الجمعة ربما».

غريب.. وكأنني سمعت تلك الكلمات من قبل، ذلك الشعور وكأن كل ما يحصل الآن مألوف وكأنك رأيته في حلم، والأغرب هو طلب أبي.. مُنذ متى وأبي مهتم بالخروج والتنزة، ومعي أنا!

- «آسف.. أظن أن لدى موعدًا ذلك اليوم مع رفيق.. لقد وعدته أن أخرج معه»، كان هذا ردي على عرضه.

- تمام.. ربما مرة ثانية.

نفس الشعور.. وكأن تلك المحادثة قد جرت بحذافيرها قبلًا، أقرر أن أسأل أبي عما إذا كان قد طلب مني التنزه مُنذ فترة قريبة، فيبتسم بركن فمه ابتسامة باهتة ويجيب: «لا للأسف.. ربما لم أجد فرصة مواتية من قبل».

سكتنا لثوان نمضغ ما في فاهينا من لحم، ثم صدرت منه أهة وضع بعدها يده فوق معدته، فقلت بشكل تلقائي: «هل أنت بخير؟».

رد والألم جلي فوق وجهه: «لا شيء.. آلام المعدة المتكررة مؤخرًا.. ربما لم يعد ما أطبخ مناسبًا لسني.. سأكون بخير بالتأكيد». قررت أن أصدق ما قال وسكت. قمت عن كرسيّ وقلت: « لقد شبعت.. سأدخل إلى غرفتي».

حملت طبقي في يدي وتحركت نحو المطبخ، وقبل أن أغادر الصالة توقفت وشعرت بدفء يجذبني لأعود له وأقول شيئًا ما، ربما أوافق على الذهاب معه يوم الجمعة بدلًا من رفيق، تراجعت خطوة إلى الخلف، وبعد قليل من التفكير قلت:

- «لقد كان طاجن اللحم جيد جدًا.. شكرًا».

لم أكن أرى وجهه لكنني شعرت أنه ربما سعد بكلامي، وقد شعرت بذلك أكثر في نغمة صوته حين قال:

- «ربما كان البصل طريًا زيادة».

- «أبدًا.. كان مثاليًا».

قلت كلماتي تلك ثم تابعت طريقي نحو المطبخ قبل أن أمر

بالحمام وأدخل إلى غرفتي التي تشربت أجواؤها بالأزرق.

***

لم أكره أبي يومًا، بل ربما في فترة ما من حياتي أحببته كثيرًا، ولا أتذكر متى تحديدًا وكيف بالضبط وصلنا إلى تلك النقطة التي نحن بها الآن، لكني متأكد أن كل شيء حدث بعد أن غادرتنا أمي، وكأنها كانت الحبل الذي يربط البيت ببعضه، لم أكن وقتها سوى طفل في الثانية عشرة وجد نفسه فجأة بدون أمه التي أحبها كثيرًا، ولم أستطع حينها إدراك الأمر تمامًا، كان موتها مفاجئًا وبطريقة صادمة، فجأة اختفى الصوت الذي كان يخبرني دائمًا أن كل شيء سيكون على ما يرام وأن الشمس ستشرق في الغد حاملة معها ابتسامة وفرصة جديدة، لن يصلح أحد رسومي حين أغضب وأمزقها، ولن يضمد أحد جروحي الصغيرة الناتجة عن شقاوتي، وللمرة الأولى في حياتي القصيرة أشعر أنه لا شيء سيكون مجددًا على ما يرام.

لم أحضر جنازة والدتي بالطبع، فبالإضافة إلى الصدمة التي كنت فيها ومحاولة عقلي التعامل مع الفكرة فأبي رفض ذلك رفضًا تامًا، لكني في ذلك اليوم تعرفت على اللون الأسود للمرة الأولى بشكل عميق، وأدركت مفهومه وماهيته، وشعرت به يمتص ألوان العالم من حولي، وللمرة الأولى أنام

والبيت في حالة فوضى لأستيقظ في اليوم التالي وهو ما يزال على وضعه، لأدرك أن أمي بالفعل قد غادرت، لم يعد العالم مكانًا آمنًا كما كان، ولم يبقَ لي شيء أحتمي به سوى ذكرى كلماتها.

ربما حاول أبي بعدها أن يعوضني فقدان أمي، أحضر الهدايا والألعاب، نقل حياتنا بالكامل إلى منطقة جديدة ومدرسة جديدة، وألحقني بمركز لتعلم الرسم حين شعر بميلي إلى الأمر، كما زاد ميلي للقراءة مع نقص رغبتي في الكلام، أحضر لي حينها عددًا من سلسلة ما وراء الطبيعة لدكتور أحمد خالد توفيق، أنهيته في ليلتها فراح يمدني بالكتيبات والقصص فتعرفت أيضًا على كتابات د.نبيل فاروق ثم بدأت أنا في التعرف على أماكن المكتبات والتجريب والشراء، وتنوعت قراءاتي بين الأدب العربي القديم والحديث والأمريكي والأوربي واللاتيني والروسي وحتى الياباني، كانت تلك العوالم الخيالية غير المحدودة والمتنوعة هي تذكرة هروبي من ذلك العالم القميء الذي لم تعد أمي تشاركني إياه، وعلى الرغم من أن أبي ساهم في خلق تلك العلاقة بيني وبين الكتب فإنني أحببت الكتب أكثر منه.

في أثناء ذلك تعرفت على (رفيق) وتقدمت صداقتي به

إلى مستوى جعلني أعود رويدًا رويدًا إلى الحياة الطبيعية، إلا أن علاقتي بأبي لم تتقدم، بل ربما تراجعت، أضحينا غريبين يعيشان في نفس البيت تفصل بيننا حواجز لا يدري أيٌّ منا متى قامت إلا أننا تقبلنا وجودها وأصبح بيننا اتفاق ضمني على أن يقوم كل منا بدوره بصمت، سيمارس هو دور الأب فيذهب إلى العمل ويمول البيت، بينما أمارس أنا دور الابن فأذهب إلى المدرسة وأعود لأذاكر فأحقق مستقبلًا ناجحًا يكون نتيجة للأموال التي استثمرها أبي فيّ، لكن حتى هذا الاتفاق الضمنى قد بدأ يتزعزع قبل سنوات حين قررت أن أعمل وأمول ذاتي، فلم أكن مرتاحًا إلى فكرة أن آخذ مصروفي منه، كان هذا يجعلني أشعر بنوع من الالتزام المؤلم وغير المريح نحوه، التزام فوق طاقتي أردت أن أحرر نفسي منه، هكذا كانت تتفكك علاقتي به في كل يوم أكثر من الذي قبله.

***

لطالما كانت غرفتي هي الملجأ الآمن لي من شرور وتعقيدات العالم، أشعر بالراحة فقط بمجرد أن تقع عيني عليها وأتامل تفاصيلها، مكتبة على اليمين مليئة بالكتب الأدبية التي قضيت السنوات العشر الأخيرة من عمري في قراءتها وتجميعها، وتحيط بالمكتبة بعض اللوحات المطبوعة

لبعض أعمالي المرئية والقصصية المفضلة، فعلى يمينها صورة لهاري بوتر يمسك بيده حجر الفلاسفة ويحدث أباه وأمه بالمرآة، يعلوها ملصق لباتمان بينما يراقب جوثام من أعلى أحد المباني، ورفعت إسماعيل المدخن مع بومة سلسلة ما وراء الطبيعة الشهيرة على يسار المكتبة، وترافقه صورة لعملاق عاري الجذع يحيط به البريق الأصفر من مسلسل هجوم العمالقة، وكانت كل تلك الصور المطبوعة من رسمي، أما على يسار الغرفة فكان يقبع مكتبي يعلوه حاسوبي الشخصي المحمول، وفي الواجهة أسفل النافذة المطلة على السماء المرصعة بالنجوم، كان سريري العزيز الذي أشتاق له كثيرًا الآن، بمجرد أن استلقيت عليه وأمسكت بالهاتف تذكرت مكالمات حورية، فسارعت أتصل بها متجنبًا غضبتها فالأمور بينا لا تحتمل.

جاءني صوته بعد الرنة الأولى ملتاعًا غاضبًا في ذات الوقت بشكل لم أتوقعه، سألتني عن حالها فسألتني عن تأخري في الاتصال بها وتجاهل مكالماتها، فبررت تصرفي ذاك بانشغالي في العمل. فكانت حجتي كالشرارة للبنزين:

- «متى تنام؟ ومتى تستيقظ؟ هذا غير صحي.. طيلة اليوم أنت خارج البيت.. وحين تعود لا ترتاح كفاية».

رددت مباشرةً بنبرة تقريرية: «تلك ستكون طبيعة عملي

فيما بعد وطيلة العمر، لذلك عليك أن تعتادي على ذلك من الآن، أنا أسعى حاليًا لتدعيم تواجدي في السوق، ويحتاج ذلك إلى ساعات طويلة من العمل، وتذكري أنني أفعل ذلك لأجلنا».

قالت بصوت حازم حزين: «أنا لا أطلب منك شيئًا.. لا أطلب شيئًا سواك».

أعماني التعب حينها وساقني إلى رفع صوتي وزيادة حدة نبرتي: «هذا ساذج.. الحياة لا تعترف سوى بالمال والعمل.. هذا ما سيضمن لنا حياة كريمة، ويجعلنا في ظل أي تقلبات اقتصادية قادرين على المحافظة على التواجد في الطبقة الوسطى أو ربما العلو عنها».

- لماذا ترفع صوتك؟.

- أنا لا أرفعه، أنا أتحدث بشكل عادي وبطريقة عملية.

- أنا لا أريد كل هذا.. أريد فقط بيتًا دافئًا مطمئنًا نكون فيه معًا.

- وأنا لدي أولويات ومستقبل أطمح إليه، وعليك أن تعتادي الأمر، فعملي أهم شيء في العالم.. أهم من أي أحد.

حينها سكتت وطال سكوتها، وكانت قد تمكنت مني حالة لا

أفهمها وأريد أن أتابع ذلك إلى النهاية لذلك تكلمت أنا:

- حورية!

- ربما يجب علينا أن نبتعد لفترة.. تقصر أو تطول.

وكأنها كانت تستجمع أنفاسها وقوتها لتقول تلك الكلمات، فازدادت فورة انفعالي بينما شعرت بزرقة كئيبة تزحف على الموجودات من حولي:

- أتريدين أن ترحلي؟ لتعلمي أن حياتي لن تتوقف عند أحد أو بعد أحد.. قد أحزن وقد حتى ينفطر قلبي بعد رحيلك لكني سأتابع.. سأدوس على مشاعري وأكسح أي عقبات تواجهني كالإعصار لأتابع طريقي.

كنت أتكلم بحدة وصوت عالٍ، وكان جسدي يرتعش انفعالًا وخوفًا.. أجل كنت خائفًا ومذعورًا كطفل من فكرة رحيلها، لم أكن قادرًا على تقبلها أو التعامل معها، واهتز كياني كله لفكرة أن ينهار معبد حياتي كله فوق رأسي إذا ما رحلت، فتحولت كل الأفكار السلبية إلى انفعالات حادة تلقتها حورية مني دفعة واحدة، أظن أنني استمريت لدقائق أتكلم محاولًا إثبات شيء ما، لكن ليس لها.. بل للطفل المرتجف داخلي، وحين سكت لألتقت أنفاسي، كان العالم من حولي قد أضحى أزرق تمامًا، كئيبًا تمامًا، وكان لا ألوان في غرفتي سواه بشكل

أرعبني، قالت:

- هل انتهيت؟

كان صوتها مفطورًا وكانت ترتجف، وهنا انتبهت إلى ما أفعل، وران عليَّ الصمت لثوانٍ قبل أن أبدأ في محاولة تصحيح الأمور، حاولت أن أحتوي الموقف.. أن أصالحها.. أن أثنيها عن البكاء أو الرحيل، حتى أنني بكيت طالبًا منها أن تبقى إلى جانبي وأن تساعدني على تخطي ذلك، ورغم أن ما تكنه لي من حب ساعدنا على تخطي الموقف ليلتها، إلا أن الصدع في علاقتنا كان قد تحول بالفعل إلى شق كبير، لكني قد عميت عنه.. أو أعميت نفسي عنه.

***

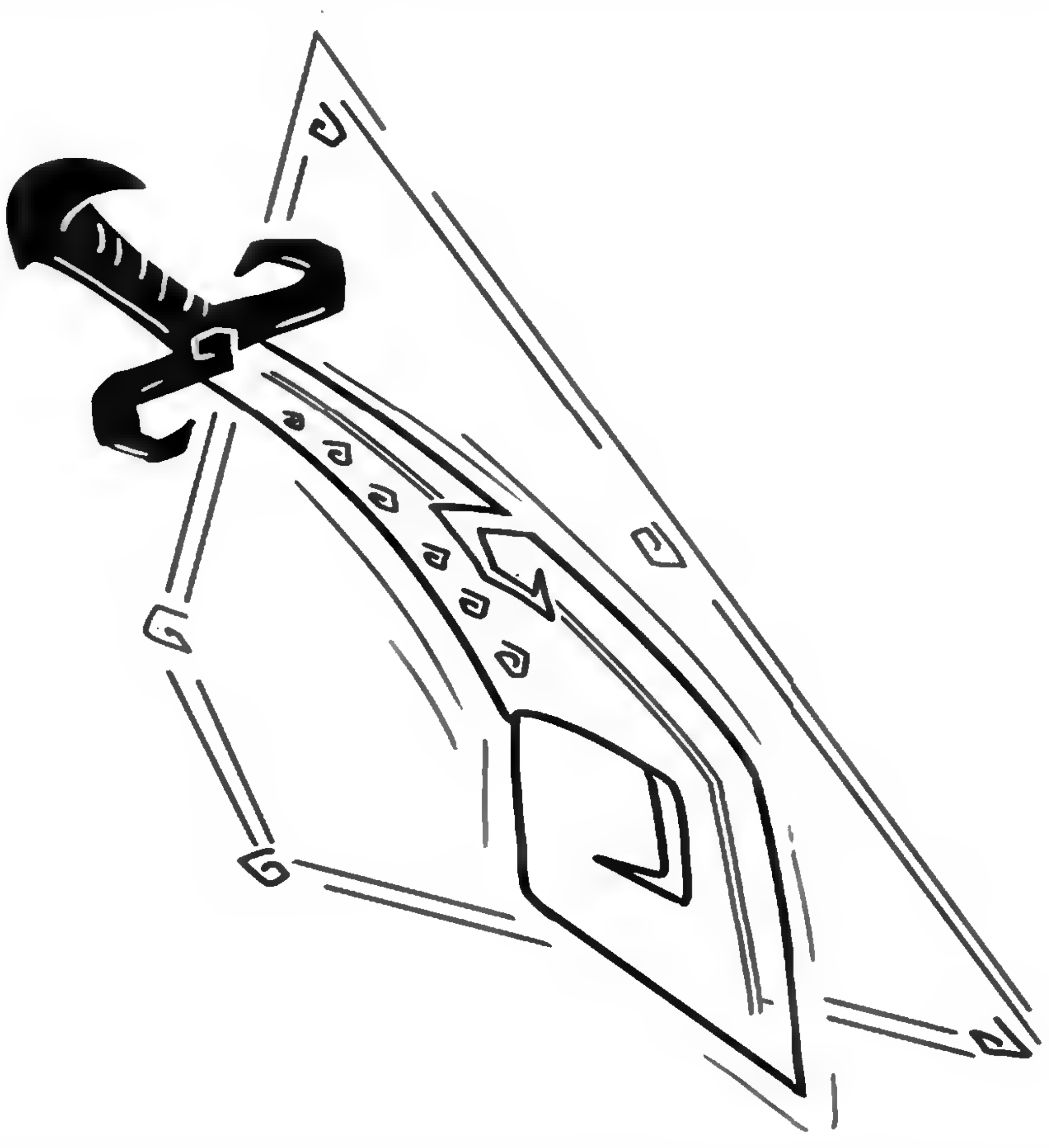

(٥)

٢٥ نوفمبر ٢٠٢- درجة الحرارة ٣٧°

تمكنت من إقناع حورية حتى ترافقني إلى إفتتاح المعرض الشبابي الذي دعتني له نور، وفكرت أن نجلس معًا بعدها لنتحدث ونأكل أملًا في أن يساعدنا ذلك في تجاوز ما حدث وإبهاجها ولو قليلًا.

كان المعرض كأغلب ما يماثله من معارض مقامًا في إحدى قاعات اللوحات بالزمالك، وقابلت العديد من زملاء الدراسة هناك وباركت لهم تلك المشاركة عسى أن تكون دافعًا لهم في رحلتهم الفنية، ومررت بعيني سريعًا على اللوحات المعروضة فإذا ببعضها لمبتدئين عرضت لوحاتهم تشجيعًا لهم، وبالبعض الآخر لمحترفين ظهر في عملهم بديع التنفيذ إلا أن الموضوعات كانت ضحلة مع تكوينات عادية وألوان جيدة بلا أداء مميز، لكن هناك بعض اللوحات التي ظهر فيها جمال الموضوع وابتكارية التكوين وتميز أساليب التلوين رغم أن فناني تلك اللوحات لم يكونوا على قدر عالٍ من الاحترافية، وكانت تلك هي لوحاتي المفضلة في المعرض، لكن وبين كل تلك الأعمال، لم أجد قط أجمل منها، تلك المنحوتة التي زادتها عيوبها جمالًا، وروحها ضياءً، رحت أراقبها بينما تتجول بين اللوحات تتأمل الواحدة تلو

الأخرى بتلك الطريقة التي لطالما خلبت لبي، وكأنها ترى اللوحة بروحها وتحاول تفتيح كل حواسها لاستقبال الحالة الكاملة للعمل، حتى أحس أحيانًا أنها تكاد تحتضن اللوحة، لكنها فقط تكتفي بتقريب يدها من اللوحة دون أن تبلغها ثم تمررها فوقها وكأنها تستشعر الملمس، فينطق لساني دون وعي مني أثناء مراقبتها: «بديعة».

تنظر إليّ حورية وتبتسم وتسأل: «الـ.. لوحة؟!».

تنحشر الكلمات في حلقي حين أجد نورا وقد خرجت من اللامكان ووقفت بجوارنا قائلة بابتسامة ماكرة:

- هل أحببتم لوحتي إلى ذلك الحد؟

- «اللوحة! بالطبع آه.. نعم..»، أستعيد انتباهي وأبحث بسرعة عن اللوحة التي كانت أمامي بالفعل ثم أستطرد: «اسمحي لي أن أتأملها قليلًا».

بدأت أتأمل اللوحة متظاهرًا بالتركيز والتدقيق حتى يمر ذلك الموقف المحرج، حتى أنني كدت أدفن وجهي فيها حتى لا يظهر وجهي المحمر خجلًا، وللمفاجأة كانت اللوحة تستحق انتباهي بالفعل.

كانت اللوحة تمثل رجلًا ساقطًا فيما يشبه البحرنحو الظلام بوضع منظوري وتشريحي صعب، حيث يظهر نصفه السفلي

من الخلف أثناء السقوط بينما التف جذعه لنرى صدره وجانبه الأيسر كاملًا مع التدقيق على إبراز تفاصيل عضلات ذلك الجزء، وكانت يده اليسرى مثنية متشنجة وبها نصف تفاحة، بينما اليمنى ممدودة لأعلى تحاول التمسك باليد الصغيرة الرقيقة الخارجة من الضوء العدني القادم من أعلى اللوحة، وكان نصف التفاحة الآخر في تلك اليد، يمكن أيضًا أن تلاحظ النظرة الهلعة المستنجدة التي كانت على وجه الرجل أثناء نظره نحو تلك اليد، ووصلني انفعال أشعرني أن ذلك الرجل ليس خائفًا من السقوط في الظلام بقدر خوفه من السقوط وحيدًا.

أما طريقة التنفيذ فكانت هي مفتاح جمال اللوحة، فعلى غير عادة ذلك النوع من الموضوعات المعتمدة على إبراز التشريح والمنظور استخدمت نورا أسلوبًا انطباعيًا لنقل التداخلات والاضطرابات في اللوحة، ضربات فرشة قوية وواثقة وإشعاع قوي للضوء العدني على الجسد ومحيط اللوحة، وأشعرتني ضربات الفرشة بالهواء وهو يتحرك حول الرجل وبارتجافات جسده وحالة هلعه، كانت ساطعة وغنية بالألوان لكن الأزرق كان الغالب فيها، فلا عجب أن تجذب انتباه حورية.

رفعت بصري عن اللوحة وسألت: «هل هذا الرجل..!!!».

قاطعتني بحماس بالغ: «النبي آدم.. حين نزل آدم إلى الأرض ترك له الإله قطعة من الجنة التي طُرد منها متمثلة في حواء أو إيف، لم ترد حواء سوى الأمان لتورد جنتها، لكن آدم الذي خذلها عبر الزمن والعصور لم يفهم ذلك، لذلك استحق في كل مرة خذلها فيها الطرد من جنتها، ليسقط كسقوط لوسيفر خائفًا مذعورًا مدركًا أنه الآن مضطر إلى مواجهة العالم القاسي وحده بدونها».

وسط كل تلك الحماسة في كلماتها وابتسامة حورية بجواري لم أملك سوى قول: «يبدو ذلك.. ممم.. كيف أصيغها.. نسويًا قليلًا.. لكن وما المانع بالطبع.. لقد أعجبتني كثيرًا»، وبالكاد نجوت.

- «سعيدة أنها أعجبتك.. والأهم أن تكون قد أعجبتها». قالت ذلك مبتسمة لحورية، فشجع ذلك حورية على السؤال.

- وهل لها اسم؟

- إنه مكتوب بخط صغير أسفل اللوحة.. سقوط آدم.. ألا ترونه مناسبًا؟

***

٢٧ نوفمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

في الموعد المتفق عليه قابلت رفيق ولحقنا بركب رحلة يوم الجمعة إلى أحد الوديان الجبلية المشهورة لنحظى ببعض المرح وفرصة للانفصال عن واقع الدراسة، لدينا أصدقاء الدراسة وحطب لإشعال النار ودجاج متبل جاهز للشيّ وبعض الألعاب الترفيهية واليوم كله.

قطعنا ما يقرب الثلاث كيلو مترات سيرًا على الأقدام داخل الوادي وسط حر الوادي الذي بدا أنني الوحيد الذي يشعر به، إلى أن وصلنا إلى مكان ممهد أسفل أحد التلال يسمح لنا بإنزال متاعنا وبسط مفارشنا، ثم بدأنا فورًا في إشعال النار فالطريق الذي قطعناه حاملين حقائبنا فوق ظهورنا جعلنا جياعًا كقطيع من الزومبي في مدينة خالية من البشر، وقفت أتامل هدوء الوادي ووجوه زملاء الرحلة وضحكات الشباب وابتسامة بلهاء على وجهي، وفكرت في كلام حورية، أنا بالفعل أفتقد راحة البال ومتعة فعل شيء للمتعة بلا أهداف أسعى خلفها. لكزني أحدهم بقبضة يده في ظهري فعرفت على الفور أنه رفيق، استدرت نحوه فقال:

- هل أزعج سيادتك إذا ما طلبت منك أن تساعدني في فرش الملاءة التي سنجلس عليها، أم أنك ستقف عندك طويلًا تحدق في الفتيات؟

ضيقت عينيّ الضيقتين أساسًا لتتحولا إلى خطين خلف

زجاج نظاراتي، وغمغمت: «وغدا!»، ثم استطرد: «أنا لا أحدق بالفتـ..»، ثم انتبهت إلى أن صوتي عالٍ «هات الملاءة واسكت».

جلست بعدها على الأرض لأرتاح ثم أغمضت عيني وتركت نسمات الوادي تتخللني، تخيلت لوهلة أن ذلك الوادي ممتدد الصفرة من حولي قد أضحى تلالًا خضراء كتلال الأندلس التي قرأت وصفها في الكتب، والتحم لونها الأخضر بلون السماء الزرقاء فشعرت أنني في النعيم، رغم أنه نعيم لحظي صنعه عقلي، فتساءلت عن المدى الذي يمكن أن تصل إليه عقولنا في تخيل مشاهد لم تحصل، انسحب خيالي فجأة وانتبهت حواسي للمجموعة الجالسة بالجوار فإذا بي أرى نورا تتوسطهم، وكأنها كالقدر تلاحقني، كيف لم أنتبه لوجودها مُنذ بداية اليوم! تمكن سمعي من التقاط بعض الكلمات المتطايرة داخل ضجيج تلك المجموعة، كانت إحدى الفتيات تسأل نورا عن مستقبلها، بينما يقول فتى بصوت مرح، إن المستقبل بيد الله وأتبع كلمته تلك بقوله: «احنا هنكفر»، فأتاني صوت نورا وردها واضحًا: «لا أحد يستطيع معرفة المستقبل بالطبع، إن ما أفعله هو مجرد توقع مبني على الماضي والحاضر».

وجدت نفسي أرفع يدي بصوت عال من مكاني وأقول:

«أريد أن أشارك».

التفتت الرؤوس نحوي ورأيت علامة تعجب كبيرة تأخذ مكانها فوق رأس نور، فتحركت من مكاني ودلفت بين الجمع واتخذت لي مكانًا، ثم طلبت من نورا أن تقدم لي قراءة عن مستقبلي بأوراق اللعب.

تأملتني هنيهة وكأنما تقرر مدى جديتي ثم قالت:

- أنت لا تصدق بقراءات الأوراق وعلوم الطاقة.

فردت كفيّ في الهواء وقلت: «وما المانع من التسلية؟ وخصوصًا أنها مجانًا».

- سيكون للمرة القادمة سعرها إذًا.

تدخلت إحدى الفتيات في المجموعة: «اعذروني ولكنه كان دوري». ردت نور: «اعذريني أنا.. فلدي فضول لأفتح أوراقه».

بدأت تقلب الأوراق وتفنطها بيديها ببراعة واحترافية، لو كانت تحضِّر خدعة ما فلا أظن أنني قد ألاحظها، رصّت تسع ورقات على الأرض، ثلاثة صفوف، يحمل كل صف ثلاث ورقات. وشرعت تشرح القواعد:

- كل ثلاث ورقات في صف تمثل فترة زمنية في امتداد حياتك، الماضي والحاضر ثم المستقبل...

قلت بلهجة بدت أقرب للسخرية دون قصد: «في غاية السهولة».

لم تعلق وتابعت: «لو اتبعنا الترتيب التقليدي فسنبدأ بالماضي..»، ثم كشفت الورقة الأولى في الصف «الورقة الأولى.. شايب، ربما يكون الأمر متعلقًا بالأب.. أو شخص ما في نفس المقام.. عم أو خال أو معلم».

- «بديهيات»، قلتها مسخِّفًا من الأمر.

ظلت محافظة على ثباتها وتابعت قلب الأوراق: «الورقة الثانية في ماضيك.. ستة كوبة (قلب أحمر).. قد يمثل ذلك ندمًا وربما فراقًا، أما الورقة التي تليها واحد كوبة أيضًا.. وحيد ونادم افترقت عمن تحب».

لا أدري لماذا توترت، لكني قلت مخفيًا توتري: «لا يبدو لي أن ذلك حصل بأي شكل».

ردت: «ربما.. الأمر نسبي.. بالنسبة لحاضرك».

قلبت الورقة الأولي في الصف الثاني وكانت ورقة الولد والثانية كانت الرقم ثلاثة ديناري، والثالثة كانت الكومي.

قالت نورا موضحة: « قد يعني الولد أنت أو شخصًا مقربًا منك، أما عن الثلاثة الديناري فقد تعني هربًا أو ربما سفرًا، أما

ورقة الكومي فتفسيرها مطاطي جدًا، قد تعني فوزًا وربما ترمز لشيء ما يحصل معك في حياتك».

أبديت رأيي أنا أيضًا: «بما أن الأمر تفسيره مطاط فلدي وجهة نظر.. الحاضر يعني أنني أنا الولد هارب معكم في تلك الرحلة من التفكير في مشروع التخرج، وأنني سأعود إلى البيت في تمام السابعة».

ردت وهي تبتسم: «ربما الأمر بتلك البساطة فعلًا».

سعدت أن تعليقي الساخر لم يضايقها فأنا لست من محبي دور الشرير على كل حال، وحاولت أن أبدو مهتمًا بما هو آت. استطردت:

- دعني أحدثك عن مستقبلك.

قلبت الورقة الأولى فكانت فتاة، فقالت بنبرة خبيثة: «أظن أنني أعرف من تخص تلك الورقة». قلبت الورقة الثانية. «الرقم تسعة.. خوف أو ربما اضطرابات.. حسنًا هذا ليس جيدًا». لا أنكر أنني توترت في تلك اللحظة، قَلبت نورا الورقة الأخيرة وكانت الجوكر. قالت وهي تنظر لي بجدية:

- هذا ليس جيدًا، هذا يبدو لي وكأن أحدهم يتلاعب بمستقبلك.. أو ربما أنت نفسك في خضم لعبة ما تراهن بها على مستقبلك كله.

شيء ما بداخلي توتر حين سمع تلك الكلمات، ولم أستطيع أن أستمع لأي تفسيرات أخرى، فانتصبت واقفًا وقلت:

- هذه التفسيرات كلها مطاطية للغاية، لو افترضنا جدلًا أن تلك القراءات ذات قيمة، ورقة الفتاة في الثقافة الغربية تعني الملكة، ربما هذا يعني أنني سأقابل ملكة ما في المستقبل.. وربما الرقم تسعة يعني أن ذلك سيحصل بعد تسع سنوات.

شعرت برفيق وهو يقترب من خلفي ليتدخل في الحديث بينما هو يشير إلى ورقة الجوكر: «أتفق معك يا صاحبي.. فهذه الورقة تعني أنك ستكون مهرج الملكة في المستقبل».

ابتسمت وابتسم الجميع، كنت على وشك أن أصنع توترًا لا بأس به داخل تلك الرحلة، لكن رفيق كالعادة قادر على إنقاذ الوضع.

- هيا يا مهرج الملكة.. لدينا تل لنتسلقه.

كلمني فقلت له واضعًا يدي فوق كرشي الصغير: «لكني جائع»، فقال: «إن تحضيرات الشواء ستستغرق بعض الوقت، وسيكون من الجيد لو تسلقنا التل قبل أن يثقلنا الطعام، أعرفك جيدًا لن تتحرك بعدها وأنا إذا تسلقته وحدي قد أقع من التوتر».

استغرقنا الأمر حوالي عشر دقائق للوصول إلى نصف المسافة الفاصلة بين مكان جلوس المجموعة وقمة التل، لم تكن التلال هنا شاهقة الطول ولا شديدة الانحدار، لكن ذلك لا يعني أن السقوط منها ليس خطيرًا، فهناك أجزاء عديدة مدببة وثمة صخور بارزة في المنحدرات، كنت كُلما صعدنا أكثر شعرت بعدم الراحة وبلون التلال الأصفر من حولنا يشحب ولم يكن حال رفيق يختلف كثيرًا، على ارتفاع ثلاثين مترًا وصلنا إلى جزء مستوٍ من المنحدر يسمح بالجلوس لالتقاط الأنفاس، فجلسنا عليه ورحت أراقب الجمع في الأسفل بينما أضغطهم بين إصبعي السبابة والإبهام كالنمل، لقد أصبح المشهد في الأسفل باهتًا تمامًا ومتشربًا بزرقة كئيبة، ما الذي يحدث؟ بدأ رفيق يشعر بالتوتر من الارتفاع الذي وصلنا له فسألني النزول إلى الأسفل معه، لكني لم أرد أن أتحرك من مكاني، شعرت بالشلل في أطرافي ووجدتني أقول بينما عيناي معلقتان بالجمع في الأسفل: «أنا آسف».

اقترب منا في تلك اللحظة غراب أسود صغير، طأطأ جناحيه جوارنا واستقر فوق صخرة ناتئة، وأحسست بعينيه الصغيرتين السوداوين معلقتين بي.

- «لم الأسف؟»، سألني رفيق بصوت مهتز بعد صمت قصير

كان قد حل.

- «لا أعرف»، ولم أكن حقًا أعرف.

ترددت في أذنيّ أصوات عديدة فجأة، خفقات جناحي غراب، صوت أصداء صرخات، وأحجار تتدحرج فوق التل، استطرد بشكل مفاجئ: «أريد أن أرجع».

الأزرق يغرق كل شيء، أشعر بالخوف والبرد، قال رفيق محاولًا تهدئتي وقد وترته تصرفاتي بشدة: «حسنًا لكن فلنهدأ.. أترى هؤلاء الفتيات بالأسفل، لم يكن من الجيد لسمعتي الجامعية كأعزب أن يرينني متوترًا وغارقًا في عرقي هكذا».

قلت بحدة: «أرجوك يا رفيق ابتعد، انزل حالًا».

لم أعطه أو أعطِ نفسي فرصة للتفاهم، لقد استبد بي خوف مفاجئ وغير مبرر جعلني على وشك أن أنهار باكيًا، أردت أن أبتعد أنا عن رفيق وأحاول النزول لكن وفي وسط عجلتي طاشت قدمي اليمني أثناء استعدادي للنزول وأفلت النتوء أسفل قدمي، لكني نجحت في التمسك بحافة المكان المستوى الذي كنا عليه، وسارع رفيق يحاول أن يشدني قبل أن تخور قواي فأتدحرج إلى الأسفل بينما هو متشبث بيده الأخرى وقدميه بالمنحدر، الفزع يملأ عينيه، قدماي

تعافران والذعر يغزوني، يشدني بقوة فأتمكن أخيرًا من إسناد صدري إلى الجزء المستوى من المنحدر، لكن ذلك حدث في نفس الوقت الذي تحطم فيه الجزء أسفل قدم رفيق من شدة الضغط، ولم يتمكن لانشغاله بي من تدارك الأمر، فأفلتت قدمه الأخرى ثم تبعتها يده التي كان متشبثًا بها، ثم لم يستغرق الأمر كله لحظات، صوت تدحرج جسده وتكسر عظامه، خفقات جناحي الغراب المختلطة بصرخات ألمه، نزولي مسرعًا من فوق المنحدر غير آبهٍ بما لحق بي من خدوش وكدمات، وحين وقع بصري على جسد رفيق بين الجمع الفزع لم أرَ سوى جسد مغطى بالأحمر وبالكدمات الزرقاء.

***

كسر في القدم اليمنى.. فتح غائر في الرأس.. شريحة في عظام الكتف.. وضرر في الفقرات السفلية قد يتسبب في فقدان القدرة على المشي، كانت تلك هي كلمات الطبيب وأول شيء أدركه مُنذ ساعات من الصدمة، بينما بجواري تقف والدة رفيق تبكي بحرقة، بينما أبوه وأخوه يغالبان الدمع في عيونهما.

لم أستطع الوقوف بينهم أكثر، تركتهم وذهبت لألقي نظرة على رفيق في غرفته، لم يسمحوا لي بالدخول لكني تمكنت

من إلقاء نظرة واضحة عليه من خلف زجاج شباك صغير في الباب، كانت قدمه مجبورة ومعلقة، بينما جذعه ورأسه وكتفه يغطيها الشاش والقطن والأحزمة الطبية واللاصقات، حاولت أن أهمس داخل عقلي بأن كل شيء على ما يرام لكني عرفت أنني فقط أكذب على نفسي، وبينما أراه على تلك الحالة لم أستطع سوى أن أخبر نفسي بأنني السبب، فلولاي ما كانت قدمه قد زلت، وغَزَت المرارة حلقي لتذكري هذا.

استدرت لأغادر المكان فإذا بها تهل عليّ باسمة الثغر وسط ملامح وجه حزين، اغرورقت عيناي بالدموع حينها، فأقبلت عليّ بشكل مفاجئ فاتحة ذراعيها: ضمّتني! ارتعشت كل خلجة في جسدي وسكت من المفاجأة، لم تحتضني حورية سوى مرة واحدة مُنذ عرفتها وتلك هي الثانية، وكانت المرة الأولى حين مرت بظروف نفسية صعبة رافقت مرض أمها وشعرت بخوف دفعها لذلك.

رفعت يديّ الجامدتين جواري لأضمها أنا أيضًا، فسمعت صوتها يقول: «سيكون كل شيء على ما يرام». لكني وللمرة الأولى لم أصدقها، شعرت بشيء ما يتحرك بيننا في سويداء قلبينا، لم تكن تحاول طمأنتي، كانت خائفة أكثر مني، اضطربت ألوان هذا العالم في عينيّ لحظتها فلم أدرِ بما

أشعر الآن تحديدًا، تداخلت المشاعر والألوان فتمازجت ألوان العالم كما تتمازج الألوان الزيتية فوق البالت، فلم يعد هناك من شيء واضح في تلك اللوحة سواها وسواي.

***

٤ ديسمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

مرّ أسبوع على الحادث، لا أعرف ما حالة رفيق الآن وما إذا كان هناك مستجدات بشأنه، ولم أحاول أن أعرف حتى، الأمر صعب على نفسي، وأخاف أن أتصل بأسرته فأستشعر في أصواتهم اللوم على ما حصل له، وأعرف أنني سأستشعر ذلك اللوم حتى لو لم يقصدوه، أخاف أيضًا أن أراه فيتجسد لي شعوري بالذنب على هيئته ليطاردني في كوابيسي إلى يوم مماتي، لكني اليوم عقدت العزم على الاتصال بأحد رفاق الدراسة ومعرفة أخبار رفيق منه.

في البداية قابل رفيقنا ذاك سؤالي بالكثير من التعجب مع بعض الاستنكار، فكيف أكون أنا آخر من يعلم عن أحواله، لكن بعد ذلك استرسل في توضيح وضعه الصحي الحالي وأخبرني أنه سيمكث في المستشفى لأسبوع قبل أن يتم نقله إلى البيت حيث سيبدأ بعد أن تلتئم جراحه في الخضوع للعلاج الطبيعي، وأن هناك أملًا كبيرًا في أن يعود مع الوقت للمشي بشكل أقرب للطبيعي.

أنهيت المكالمة مع زميلنا هذا وقد سكن الخوف في قلبي قليلًا، لكني وعلى الرغم من ذلك لم أقوَ على التواصل معه.

حاولت أن أعيش بشكل طبيعي خادعًا نفسي بأنني سأتصل به، ربما غدًا أو بعد غد، لكنني لم أتصل به، بل هو من اتصل بي في النهاية، كان هاتفي صامتًا كعادتي لذلك لم أسمع رنينه لكني رأيت الإشعار بالمكالمة، اتصل ثلاث مرات متتالية، لكني بالطبع لم أفكر في معاودة الاتصال به، كان الأمر كثقل الجبال على قلبي، حتى أن أنفاسي تسارعت حين رأيت الإشعار، ولوهلة كرهت كل هذا الخوف بداخلي، لكني فقط كرهته، ولم أفكر في مواجهته والتخلص منه.

حتى حين أخبرتني حورية أن رفيق يسأل عني ويحاول الوصول إليّ اكتفيت بأن أتظاهر بالسعادة لمعرفتي أنه بخير ويستطيع التواصل مع الناس، ووعدت حورية أن أزوره بالتأكيد في أول فرصة سانحة، فمكالمة تليفونية غير كافية، ثم رحت بعدها أبحث عن أي عمل أشغل به وقتي حتى أهرب من ذلك الوعد، دفنت نفسي في العمل، طيلة النهار في الدراسة ومساءً أعمل من البيت لمدة ست ساعات يوميًا، وتجاهلت ذلك الأزرق الكئيب الذي تتشرب به الألوان من حولي.

***

٧ ديسمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

في البيت كنت أقضي أغلب اليوم منكبًا على جهاز اللاب توب بينما أبي يقضي وقته بعد العودة من العمل بين الطبخ والترتيب والصلاة في المسجد القابع عند ناصية شارعنا، لذلك كنت أقتنص وقت صلاة العشاء لعلمي بنزوله إلى المسجد لأدخل إلى المطبخ باحثًا عن عشاء اليوم، متوقعًا أن أبي قد طبخ وترك لي حصتي كما يقتضي الاتفاق غير المعلن بيننا، لكن في تلك الليلة حين دخلت إلى المطبخ باحثًا عن طبيخ اليوم وجدت شيئًا آخر، ظرف كبير من الورق المقوى طبع عليه اسم مستشفى معروف موضوع أعلى غسالة الملابس كُتب عليه بقلم جاف أزرق اسم والدي.

أخذني فضولي لإلقاء نظرة على محتويات الظرف، وتوقعت أن تكون تحاليل متعلقة بألم المعدة المتكرر مؤخرًا، قلبت في محتويات المظروف محاولًا استخدام لغتي الإنجليزية البسيطة لفهم ما تشير إليه تلك الأوراق، وبعد دقيقة من المرور بعين فوقها كنت قد وصلت إلى الكلمة المفتاحية لتلك الأوراق.. سرطان المعدة.

***

مات مدرس الرسم الذي تعلمت على يده قبل خمس

سنوات بسرطان المعدة، ولا زلت أدين له بالفضل في كل خطوات حياتي، بعد موت أمي أرسلني أبي إلى أحد مراكز تعلم فنون الرسم والموسيقى بأحد الأحياء الراقية لأصقل مواهبي، وهناك تعرفت على أستاذي ذاك، كان رجلًا طويلًا قليلًا أبيض البشرة، أسود الشعر، يرتدي نظارة دائرية وله سن مفقودة يسهل رؤيته حين يضحك، كما كان يتمتع بأنامل دقيقة كأنها أنامل عازف.

تعلمت على يده أساسيات الرسم من كتلة وظل ونور.. دائرة اللون ثم المنظور، ومعه رأيت العالم بشكل مختلف، وفهمت معنى أن تكون فنانًا، ومنه سمعت للمرة الأولى عن كلية الفنون الجميلة، ولم أكن أدري حينها عن وجود كلية على تلك الشاكلة، فالمجتمع من حولي لطالما أشعرني أن ما أفعله لا يصلح سوى كهواية لتزجية الوقت، لكن بعد أن كلمني عن كلية الفنون أدركت أن ما نفعله هنا أكثر من مجرد هواية، بل علم وحياة، شيء يمكن أن أفني عمري فيه، أذكر يومها كيف كان شغوفًا وهو يكلمني عنها، وكيف لمعت عينها حين سرح ببصره للسقف وقال: «تمنيت أن أدخلها لكن لم يوافقني أحد.. لكني في النهاية عدت إلى الطريق الذي أحب».

حينها قلت له مباشرةً بصوت ملؤه الحماس: «أنا سأدخلها».

فعاد ينظر نحوي وتبسم.

أصيب بسرطان المعدة من المرحلة الثالثة حين كنت في الثانوية العامة، ومات قبل أن يعرف أنني قد نجحت في دخول كلية أحلامي.. أحلامنا.

***

لم أصارح أبي بما عرفت وحاولت التصرف بشكل عادي، لكني أضحيت أتعمد المرور به كثيرًا وإطالة النظر له أحيانًا، وكأنني أنتظر منه شيئًا ما، ويبدو أنه أيضًا كان ينتظر مني شيئًا ما.

شعرت تلك الفترة أن الدنيا قد ألقت بأثقالها عليّ وتطالبني بأن أحمل وأتحمل، أن أتعامل مع مرض أبي الذي تدهور حاله على ما يبدو وحادثة صديقي وعجزه واضطرابات علاقتي مع فراولتي الزرقاء، بالتوازي مع عملي بالطبع، حتى أنني بدأت أنسى أو أتناسى مشروع تخرجي والعمل على فكرته، كانت الدنيا تتحرك وتقوم ولا تقعد من حولي.

وسط هذا كله وصلتني رسالة كانت هي المخرج من تلك الهالة الكئيبة التي بدأت أراها حولي تخنقني، واحدة من كبرى دور النشر تطلب مني تحديد يوم للقدوم إلى مقرهم والاتفاق على تصميم ورسم أغلفة بعض أعمالها الصادرة في

معرض الكتاب القادم، وطلبوا أن يكون هذا في أسرع وقت فمعرض الكتاب يتبقى عليه عدة أسابيع فقط، لم يكن من المنطقي وسط ذاك الزحام أن أقبل، ربما يقول هذا شخص غيري، أما أنا فلا أجد ملاذًا في وقت كهذا أفضل من العمل، فعلى عكس الجميع، حين تكون الأمور هادئة ومستقرة، لا أفضل العمل بل الاسترخاء.. لذلك اتفقت معهم أن يكون ميعاد المقابلة بعد يومين.

***

١٠ ديسمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

في اليوم المتفق عليه مع دار النشر تمت المقابلة، واستمرت لساعتين تم فيهما تحديد المطلوب وطريقة تنفيذه والمبلغ المرضي لكلينا، وشعرت بسعادة غامرة لإتمام الاتفاق على ذاك العمل. وأثناء عودتي إلى البيت فتحت هاتفي الجوال ووجدت فيه ثلاث مكالمات واردة من حوريتي، كما وجدت أيضًا رسالة صوتية على تطبيق (واتساب) منها كان مضمونها كالتالي: «أنا لست بخير.. نزلت اليوم إلى الدقي للتقديم في أحد مراكز تعليم الرسم كمعلمة لكني شعرت بأن جسدي ينهار من الألم والتعب فجأة.. ربما هو البرد الموسمي.. أشعر فقط أنني أريد أن أراك بشدة».

كان صوتها في الرسالة واهنًا جدًا، مما أقلقني وجعلني

أسارع في الاتصال بها.

- «أين أنتِ؟».

استهللت مكالمتي بذاك السؤال فأجابتني: «لا زلت في الدقي.. على وشك العودة إلى البيت.. لكني أتحرك بصعوبة».

كان مكانها بعيدًا عن مكاني الحالي، أحتاج ما لا يقل عن ساعة لأصل لها، وجسدي منهك بالفعل فلقد صار أقل مجهود يرهقني مؤخرًا، لكني على الرغم من ذلك أسرعت أخطو إلى خارج الحافلة التي كنت قد ركبتها بالفعل حتى أغير مساري، فإذا بمسمار ناتئ لعين في تلك الحافلة الصدئة يشتبك بنعل حذائي الرخيص فيتسبب في قطعه وتعثري. سمعت هي صوت تعثري فسألتني عما حدث فأجبتها: «تفسخ الحذاء بينما كنت نازلًا من الحافلة.. لكن لا عليك من هذا».

- «أتبعد كثيرًا عن هنا؟»، سألت.

- «ربما ساعة.. لكني سآتي بسرعة». أجبت.

قالت بصوتها الواهن المشروخ: « لا عليك.. سأطلب (أوبر) أو ربما أستقل أول تاكسي يعيدني إلي البيت.. سأكون بخير».

على الرغم من شعوري بعجزي عن المساعدة وقتها فإن

شيئًا ما بداخلي كان يشكر لها كلامها هذا، كنت مجهدًا مع حذاء مُتفسخ، وأحتاج إلى العودة إلى البيت لأبدأ في العمل الجديد، لذلك أنهيت مكالمتي معها واعدًا إياها أن نلتقي خلال الأيام القادمة متوقعًا أن يمر مرضها مرورًا سريعًا، فالأنفلونزا ضيف دائم لأصحاب المناعة الضعيفة كحورية، لكنني لم أرها سوى بعد فترة طويلة، وحين التقينا لم يكن اللقاء الذي تمنيته يومًا.

***

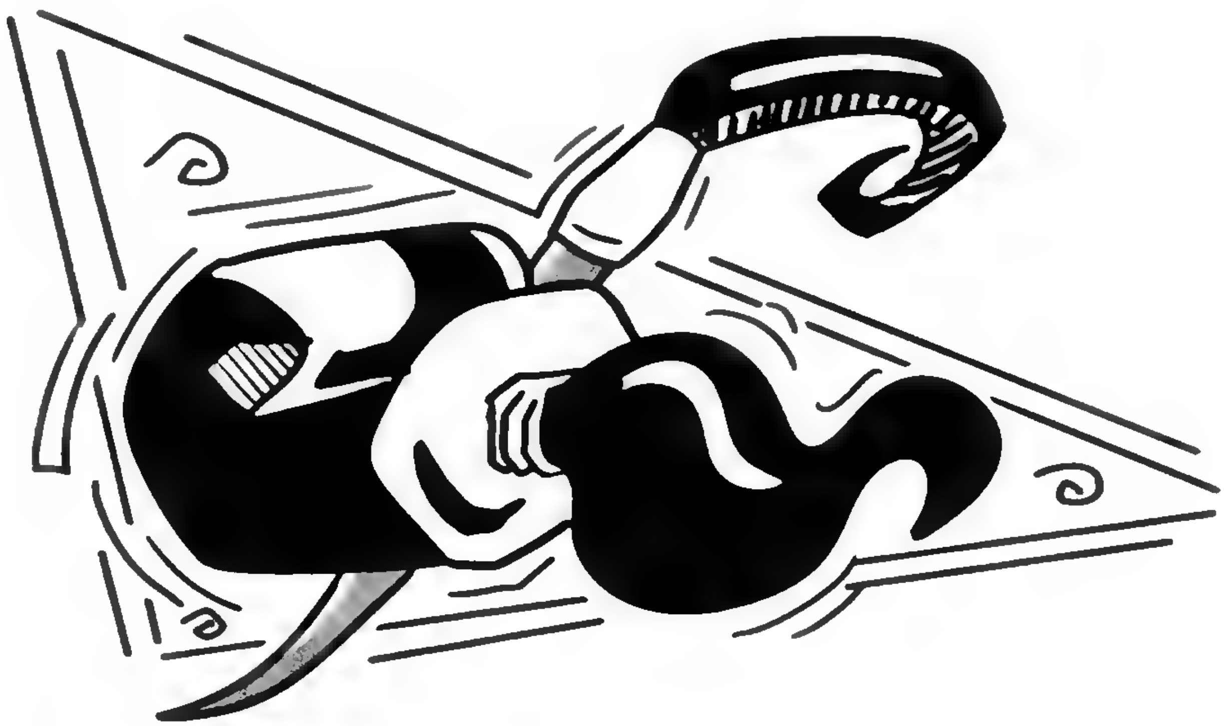

(٦)

٢٤ ديسمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

مرّ الأسبوعان السابقان بصعوبة..

كان مصاب حوريتي هو فيروس كورونا، وهذا عنى آلامًا لا يقوى جسدها الرقيق كجناحي فراشة على تحمله، كلما حاولت أن أتصل بها فأتاني صوتها المشروخ وأناتها وآهاتها أحيانًا فيلتوي قلبي حزنًا وكمدًا، لم أستطع أن أفكر حينها سوى في كوني شخصًا عاجزًا عن المساعدة، أسبب لها فقط المزيد من الألم كلما كلمتها، لذلك قللت مرات اتصالي بها ربما هاربًا من إحساس العجز الذي يخزني حين أسمع صوتها، وركزت في تلك الفترة فقط على العمل ومشروع التخرج، وأثناء عملي في إحدى الليالي ظهر أمامي شيء كنت قد نجحت في الهروب منه طيلة الفترة الماضية، وكان هذا الشيء رسالة صوتية من رفيق.

نظرت نحو الرسالة الصوتية مترددًا لوقت ربما جاوز الخمس دقائق مترددًا في أخذ قرار بشأنها، أأفتحها أم أتجاهلها؟ ثم حسمت أمري وفتحتها فأتاني صوت رفيق الواهن.

«كيف حالك يا صاحبي؟ عرفت أنك كنت بجواري يوم

الحادث، لكنك لسبب لا أفهمه اختفيت بعدها ولم ترد على مكالماتي، وأنا عاجز عن القدوم إليك، هل بك شيء؟ حورية أخبرتني أنك بخير.. وأنك فقط مشغول حتى عنها.. اعتنِ بنفسك ولا تتعبها، وحاول أن تبقى على وفاق مع حورية، أعرف أنك تستخدم خاصية عدم ظهور مؤشر الرسائل المقروءة، فلن أعرف أنك فتحت رسالتي تلك، لكن أتمنى منك أن تتصل بي حين تسمعها.. فأنا خائف.. ولست على مايرام».

سمعت الرسالة عدة مرات، وفكرت في شيء أكتبه لأرد، لكن في النهاية أرجأت الرد إلى وقت آخر، ودفنت نفسي في مكتبتي وعملي.

***

٢٥ ديسمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

كنت قد حسمت أمري في أن يكون مشروع تخرجي مبنيًّا على رواية من رواياتي المفضلة، لذلك طفقت أقلب في أعمال الدكتور أحمد خالد توفيق، وتوفيق الحكيم، وضياء الدين خليفة، وهاروكي موراكامي وميلان كونديرا وغيرهم من كتابي المفضلين باحثًا عن الإلهام برؤية فنية مناسبة.

أثناء بحثي وقعت في يدي رواية (أنا حرة) لإحسان عبد

القدوس، كانت تلك الرواية هي هدية حورية الأولى لي في عيد ميلادي الواحد والعشرين، وأظن أنها لم تكن رسالة مبشرة لي حينها، حين أقرأ تلك الرواية أشعر أن حورية تكلمني، وهي نفسها البطلة التي وجدت حريتها حين وجدت الهدف والحب، الحب الذي لا يحرمها من العيش الحر الطامح، أذكر أنني بعدها أهديتها الجزء الأول من سلسلة هاري بوتر حجر الفلاسفة، يمكنك أن تنظر لاختلاف العناوين لتدرك اختلاف عوالم أحلامنا الخاصة عن بعضنا البعض، فكان أجمل ما حصل لعوالمي هو أن توحدت بعوالمها.

أثناء بحثي وتقليبي دلف أبي إلى غرفتي وكان من النادر أن يدخل إلى غرفتي، نظرت له متسائلًا بعينيّ دون كلام، فلاحظت زيادة نحوله وبروز تجاعيد وجهه ووهن يده المستندة على الباب.

طلب مني بشكل مباشر أن آتي معه فعجبت لطلبه وسألت عما إذا كان هناك شيء مهم، فرد:

- «ربما أهم شي عليّ فعله».

أثار تصرفه رعشة في صدري لسبب ما أجهله، فتركت كتبي وقمت أتبعه بينما أقدم قدمًا وأؤخر الأخرى، كنت خائفًا من أن يواجهني بحقيقة إصابته بالسرطان، لم أكن أريده أن يحملني هذا الحمل معه، ولم أكن أريد أن أقف موقف العاجز

عن تقديم المساعدة للمرة المليون، لكن ما حدث كان أن دلفنا إلى غرفته، وكنت لم أدخل إليها مُنذ سنين، ربما دخلت لها مرات معدودة على أصابع اليد الواحدة مُنذ رحلت أمي عنا، ثم أخرج مفتاحًا خاصًا قديم الطراز، وفتح به دولابًا صغيرًا أعرف جيدًا أنه دولابه الخاص مُنذ كنت طفلًا، ثم أزاح ضلفته ليكشف عن محتوياته، وتكلم:

- «هذا الدولاب يحتوي على العديد من المتعلقات المهمة التي تخصني وتخص أمك و.. تخصك».

ثم ناولني أول ما ناولني كرة قدم قديمة، ومن النظرة الأولى على القطع في جلدها الخارجي والكرة البلاستيكية الزرقاء المنفوخة داخل غلاف الكرة عرفتها، لطالما تساءلت عن مكانها وما آلت إليه؟ أخرج أيضًا صورة وضعت في إطار تجمعني في صغري بأبي وأمي يبتسمان فيها بينما أنا عابس متزمر، وكانت أمي تحتضن في تلك الصورة، قطة سوداء.. (ليل)، أمسكت الصورة أتاملها قليلًا، ثم سألت:

- «تلك القطة السوداء.. ليل.. كانت لأمي.. أين اختفت بعد موت أمي؟!».

- «ليل! لقد امتنعت عن الأكل والشرب بعد موت أمك وساءت صحتها وماتت.. ألا تتذكر ذلك؟!».

لم أكن أتذكر، لا أتذكر الكثير عن تلك الفترة أصلًا، لقد حبست نفسي في غرفتي وقررت أن أنسى كل ما حدث حتى اتخطى ألم الفقد، جذبني من أفكاري رزمة غير متناسقة من ورق قديم قام أبي بإخراجها من الدولاب، كانت عبارة عن مجموعة من الرسومات الطفولية التي رسمتها في المرحلة الابتدائية، وكان من بينها رسم قد تمزق وأعيد تجميعه باللاصق بواسطة أمي، كان الرسم لشخصية كارتونية يابانية اسمها (سابق) يمسك بسيارة سباق صغيرة، وكانت الشخصية تتميز بلون الشعر والعينين الأزرق، لكن يبدو أنني تناسيت تلك الشخصية بعد موت أمي.

- «أمك كانت تحرص على تجميعهم».

ثم أخرج من الدولاب عددًا من المجلات القديمة، كان على قمتها قصة أطفال بعنوان (سيف شبورة)، التقطت تلك القصة تحديدًا ورحت أقلب فيها، وجدت أيضًا مجلات ميكي ومجلات كوميكس باتمان وسوبرمان وغيرهم من الأبطال الذين أحببت تقليد رسومهم في صغري.

ناولني بعدها أيضًا بعضًا من أعداد سلسلة ما وراء الطبيعة وسلسلة ملف المستقبل، أول عوالم أدخلني إياها أبي بعد موت أمي، ثم استأنى قليلًا وراح يراقبني بينما أقلب في القصص والكُتيبات وهو يبتسم، ثم ناولني سيفًا بلاستيكيًا

جميل الشكل، بمجرد أن رأيت السيف في يده تركت ما بيدي وأمسكته، فقال أبي:

- «سيف شبورة.. السيف الذي طلبت مني أن أشتريه لك حين كنت طفلًا بعد أن حكت لك أمك قصة سيف شبورة.. أعرف أنه لم يكن يشبه السيف الذي في القصة تمامًا.. لكنه أعجبك.. قلت لي حين اشتريته لك أنه سيكون..» وأكملت العبارة التالية معه وكأنها قفزت من الذاكرة إلى لساني: «... سيكون كافيًا لقتل الساحر الشرير».

وضحك ضحكة قصيرة بعدها، لكنها ضحكة رافقتها دمعة عند طرفي عينيه، ابتسمت بصدق هذه المرة وشعرت برعشة شجن في جسدي.

أخيرًا ناولني أبي خاتم فضي يحتوي على حجر زمردي أزرق صغير سداسي الشكل، وقال: «كان هذا يخص أمك».

أذكره بالطبع، خاتم صغير قيم وغير مألوف، به زخرفة بارزة لأشكال حلزونية حادة وصمم على شكل مخالب طائر تحمل الحجر الأزرق الذي يزين الخاتم، وكأنه قطعة أثرية لا تنتمي لهذا الزمن، أخبرتني أمي أنه كان يخص جدي، وورثته هي بعد وفاته، فكانت ترتديه رغم طابعه الغريب في كل الأوقات.. حتى أنها ماتت ترتديه.

وبينما أنا أتأمل الخاتم الصغير والسيف فإذا به يناولني شيئًا أخير قائلًا: «وهذا أيضًا». دفتر صغير مصفر الأوراق، أشعرني بحنين لزمن آخر حتى أن الرؤية اصفرت أمام عيني بعض الشيء، فشعرت لوهلة أنني كاميرا تصوير سينمائية في الخمسينات، استطرد أبي: «كان الدفتر يخص أمك، دفتر ملحوظات بسيط ساعدها في التذكر وكتابة الملحوظات في أيامها الأخيرة.. أظنها كانت ستود أن تحصل عليه وعلى كل تلك الأغراض».

رفعت عيني عن تلك الأشياء ورميت بصري بسرعة نحو الدولاب لأتأكد من عدم وجود شيء آخر فارتد إليّ حاملًا رؤية واضحة لملف التقرير الطبي لوالدي الذي فتحته قبل أيام، فغضضت بصري عن الدولاب متظاهرًا بعدم رؤية شيء، وربما خوفًا من أن يكون الملف هو القطعة القادمة التي يقدمها لي، وحين نظرت إليه لاحظت بل شعرت بتردده وبؤبؤ عينه الذي رماه عدة مرات نحو الملف بسرعة، إنه بالفعل يفكر في عرضه عليّ، لكنه سرعان ما أغلق الدولاب ثم نظر إلى عيناي مباشرةً وقال: «ليرحم الله والدتك».

- «ليرحمها الله.. شكـ..».

لم أتم كلمتي، فقد احتضنني أبي فجأة وضمني بين جناحيه بقوة، فبُهت وثبت في مكاني، أحسست بنبضات

قلبه الواهنة، وسمعت صوت نشيجه في أذني بوضوح وبللت دموعه كتفي، أيبكي؟ يبكي الرجل الذي لم أره يبكي يومًا حتى يوم موت أمي؟!

لحظتها اضطربت ألوان العالم من حولي كما حدث حين احتضنتني حورية، راح صوت في أقاصي عقلي يصرخ به ألا يفعل.. أن يبتعد.. ألا يحملني ذلك الألم.. ووددت لو أدفعه بعيدًا لكني عجزت عن إبداء أي رد فعل، فقط تسمرت في مكاني، ذراعاي ملقيان بجواري كالخرقة، وعيناي تترقرقان من احتباس الدمع فيهما.

***

٣١ ديسمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

يأتيني دائمًا ذلك الشعور الموتر حين أسمع صوت رنة هاتفي وكأنه صرخة تعلن عن وقوع كارثة، لذلك أفضل دائمًا جعله صامتًا، لكن حتى وهو على هذا الوضع لا زالت رناته قادرة على حمل الكوارث إليّ.

كان المتصل حورية، وصادف ذلك أن يكون الهاتف في يدي، شعرت بالغرفة تبهت من حولي حين أتاني الاتصال، وترددت كثيرًا في الرد لكني في النهاية وجدتني أرد، ولم يكن صوتها حين كلمتني يبشر بخير: «كيف حالك؟.. هل أنت

بخير؟».

كانت تحاول أن تكون لطيفة كبداية، لكن صوتها المتوتر المرتجف فضحها.

- «ما لك؟»، سألتها.

- «رفيق..»، أجابت ولم تكمل.

- «ما له؟!».

سمعت صوت تنفسها بصعوبة قبل أن تقول:

- «لقد حاول الانتحار، وهو الآن في المستشفى».

أضحى صوتها فجأة بعيدًا، وحل الظلام على الموجودات من حولي، لم أسمع باقي المكالمة بل هرعت نحو المستشفى هرعًا دون حتى أسألها عن مكانه، كنت أعرف المستشفى التي سأجده فيها بطريقة لا أفهمها، وكأن ذلك حصل قبلًا، كان العالم كورقة سوداء أمام عيني والخطوط والأشكال والبشر والمباني كلها رسوم بخطوط حمراء دموية فوق تلك الورقة، وأنا أجري وسط تلك الرسوم كشخصية في فيلم رسوم متحركة، وبمجرد أن وصلت إلى باب الغرفة التي عرفت أنني سأجده فيها عادت الموجودات لشكلها ولألوانها الطبيعية، روحت أعبئ الهواء في صدري وشعرت

برئتيّ تكادان تنفجران من شدة الضغط والتنفس السريع، وبمجرد أن هدأت رفعت نظري ونظرت داخل الغرفة، كان بالغرفة العديد من الأسرَّة، فجُلت بعيني حتى عثرت على كرسي متحرك يجاور سريرًا تعلو وسادته رأس صلعاء، تقريبًا أعرفها جيدًا، لكني كدت لا أتعرف على ملامح صاحب الرأس، فهاتان العينان المنطفئتان الميتتان ليستا عينيه، ولا الوجه الحليق وجهه، ولا البشرة الشاحبة بشرته، شعرت برغبة ملحة في الهرب وتراجعت خطوة للخلف، لكن صوتًا ما جذبني من صدمتي:

- «كيف حالك يا ولدي، لا، لم نرك منذ فترة».

نظرت لصاحبة الصوت فكانت والدة رفيق، لقد التقطت وجودي ولم يعد هناك من مفر، تقدمت لداخل الغرفة عدة خطوات، واقترب بينما عيني على الضمادة حول معصم رفيق، ثم انتقلت من المعصم إلى القدمين العاجزتين اللتين لن تزاح عنهما الضمادات بالكامل.

ورغم محاولتي الفرار من عيني رفيق، فإن لقاء عينينا كان حتميًا في النهاية، كانت نظراته باردة وميتة.. مخذولة وخائبة، لم يكن رفيق الذي أعرفه موجودًا.. بل كان الموجود رفيق الذي لم أحاول أن أعرفه.

تحركت شفتاه بصعوبة ليقول لي:

- «لم تكن الأمور على ما يرام، لقد كنت في حاجة إليك».

شعرت وكأن وتدًا جليديًّا قد غرز في صدري، واكتسب الهواء من حولي فجأة برودة لم أشعر بها في أكثر ليالي الشتاء برودة مع لون أزرق قوي، وشعرت بحاجة إلى ملابس ثقيلة تقيني قرصة البرد التي تكاد تقضم قلبي.

سألتني والدته عن أحوالي وعن سبب اختفائي في الفترة الأخيرة وقالت: «لقد كان رفيق قلقًا عليك وأقلقنا معه».

حاولت ابتلاع المرارة في حلقي حتى أتمكن من الرد وصنعت ابتسامة ودودة بركن فمي الأيمن لا تليق بالحزن الذي يبرزه باقي وجهي، وابتلعت المرارة في حلقي لأرد:

- «اعذريني.. لم أكن بخير.. حمد لله على سلامة رفيق».

ثم نظرت نحوه وقلت: «أنا آسف». وبينما أتبادل معه النظرات استأنيت للحظة قبل أن أردف: «عليَّ الذهاب.. فأبي مريض ويحتاجني».

كانت حجة جيدة تسمح لي بالهرب من هذا كله، ودعتني والدته فخرجت من الغرفة بخطوات حاولت ألا تبدو مسرعة، وبروح مثقلة بالذنب والألم.

***

٢٣ يناير ٢٠٢١- درجة الحرارة ٣٨°

جلسنا صامتين لوقت طويل، بعد أن وصلنا مقهى القهوة الأمريكي والدونتس الذي اعتادنا الجلوس به، لا يقطع صمتنا سوى ضجيج الناس من حولنا وصوت أديل العذب في الخلفية يفرض لونًا أزرق حزينًا على كل شيء حولنا.

- «ألا ترى أن هذا يكفي؟».

كانت تلك هي جملتها الأولى التي قطعت بها صمتنا وصوت أديل، لا أستطيع أن أدعي أن ما قالته كان مفاجأة بالنسبة لي، لقد قرأت قرارها ذلك في كلماتها ومشاعرها وتعبيراتها وكل شيء صدر عنها في الآونة الأخيرة، حتى في المرة التي احتضنتني فيها فجأة في المستشفى، لقد كانت خائفة، وما فتئت تعاني مؤخرًا وهي تحاول أن تصل إلى القرار المناسب.

Take your eyes off of me so I can leave

I'm far too ashamed to do it with you watching me

اهتزت خلجات وجهي بينما أسألها مستوضحًا معنى سؤالها، رغم أنني كنت أعرف المعنى جيدًا.

فقالت بملامح جامدة لا تظهر أي مشاعر: «أنت تدرك ما أعنيه جيدًا.. أنا غير مطمئنة.. وأنت تدرك ذلك وتقف مكتوف الأيدي».

أتذكر أننا خضنا ذاك الحوار عدة مرات خلال الفترة الأخيرة، لكن للمرة الأولى أرى في عينيها الصغيرتين هذا الإصرار، إنها جادة أكثر من أي مرة سبقت، حدقت إلى عينيها مطولًا أحاول أن أقرأ ما يجيش في داخلها، لأجد دمعة قد انحدرت فوق وجنتي اليمنى دون أن أشعر، فأخذت نفسًا عميقًا وقلت بينما يرتجف صوتي: «لقد فعلت كل ما يمكنني لأجلك.. أحببتك بصدق.. قدمت لك الوقت والمشاعر والأحلام.. ألا شيء من هذا كافٍ؟!».

قالت: «الأمور لا تقاس هكذا.. لا تقاس فقط بالحب والعطايا.. طيلة العام الماضي كان شعور الطمأنينة ينسحب مني، لم أعد أشعر أنني أولوية في حياتك.. حتى لو كنت من الأولويات فأنا آخرها».

أسرعت أدفع عن نفسي تلك التهمة: «ليس صحيحًا.. لقد كان العالم دائمًا يتمحور حولك». لم أكن أكذب.. لقد كان العالم يتمحور حولها بالنسبة لي، لكن أديل كانت تقول..

This is never ending, we have been here before

- «لكنك لم تتكبد عناء محاولة إثبات ذلك أو قوله لي، أين كنت حين كنت أتألم وحيدة أثناء مرضي؟».

ردت بسرعة: «كان يؤلمني شعور أن أراكِ تتألمين وأنا عاجز عن المساعدة.. لم أرد أن أجهدك».

قالت بحدة: «أرجوك دعني أتابع.. نحن لسنا في محكمة وأنا لا ألقي عليك بتهم تحاول دفعها عن نفسك.. لقد خسرت أنا الأمان وخسرتني أنت.. خسرتني حين أضحيت ترى أنني سأبقى دائمًا مهما حصل ومهما همشتني أحيانًا أو ضغطتني أو قررت أن تقدم عليّ أشياء أخرى.. حين أصبحت ترى في وجودي مصدر أمانك بينما توقفت عن محاولة أن تكون أنت أيضًا مصدر أمان لي.. لم أطلب شيئًا.. لم ألزمك بما هو أكبر من إمكاناتك.. أردت فقط أن أشعر أنك تحاول في سبيلي.. تحملت كل تقلباتك المزاجية ومشاكلك منتظرة أن تُصحح الأمور.. لكني اكتشفت أنني في المقابل أخسر نفسي ولم أعد قادرة.. لقد ضمنت وجودي وأصبحت ترى أنه لم يعد من الضروري أن تكافح من أجلي، العالم كله يستحق أن تسعى وراءه والفرص يجب أن تغتنم.. بينما أنا حقيقة موجودة مسلم بها سأبقى مهما حصل هكذا فكرت أنت».

وجدت نفسي أسارع في الدفاع عن نفسي باستماتة للمرة الثانية:

- «غير صحيح.. كنت أفعل كل هذا لأجلنا.. ولم أطلب منك سوى أن تتحملي.. كما أنني لم أرَ أبدًا مشكلة حقيقة لنتكلم عنها.. حقيقية لا أفهم ما سبب وصولنا لتلك النقطة وأنا فعلت ما استطعته لإسعادك».

كنت أتكلم بينما جسدي يرتجف كطفل مذعور خائف من أن تتركه أمه وحيدًا، وكانت كلماتي محاولة بائسة لقلب الطاولة، وجذب الأمور إلى صالحي، فرأيت الأسف جليًا على وجهها وهي ترد:

- «ربما فعلت ما استطعت لإسعادي من وجهت نظرك.. لكنك لم تحاول أن تفهم بالفعل ما يسعدني حقًا.. أن تفهم ما أمر به من ضغوط في بيتي ودراستي وفي تحديد مسار عملي.. لدي نفس التوترات والهموم التي لديك..»، سكتت لوهلة لتلتقط أنفاسها بينما وجهها قد احمر ودموعها الصغيرة تسقط كشهاب مضيء فوق سماء وجهها. ثم أردفت: «ربما أنا أخطأت أيضًا.. المشكلة لم تكن عندك وحدك.. أنا أتحمل جزءًا من المشكلة.. لقد سكت وتجاهلت مشاعري وقررت أن أعطي بكل ما لدي من حب دون أن أنتبه للظلمة في قلبي».

سكتت وتكلمت أديل:

But I can't stay this time ‹cause I don't love you anymore

تبادلنا نظرات حكت وقالت الكثير، وكان وجهها قد احمر من قوة المشاعر التي تكبحها داخلها، هل هذا موقف مناسب لقول كم كانت فاتنة لحظتها؟

قلت وأنا أتماسك حتى لا أنهار باكيًا: «أنا آسف..».

قالت: «وأنا آسفة أننا وصلنا إلى هنا.. لكني لن أنتظر اليوم الذي ستخبرني فيه كم أن وجودي في حياتك قد عطلك عن الكثير من الأمور التي كنت تطمح لها.. كما أخبرتني أنني أضغطك.. لقد اتخذت القرار بالفعل مُنذ ليلة رأس السنة بعد صراع طويل لكن ما حدث من أمور عطل جلستنا تلك، لقد حل الظلام على علاقتنا وعلى قلبي.. وأنا لم أعد قادرة على حبك في الظلام.. لم أعد قادرة أن أعطيك شيئًا.. فلأجلي وأجلك.. ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذكريات جيدة.. يجب أن ننهي قصتنا».

Please, stay where you are

Don't come any closer

Don't try to change my mind

I'm being cruel to be kind

كان يكفيني حينها النظر إلى عينيها الصغيرتين في تلك اللحظة لأدرك أن الأوان قد فات، لقد انتهت القصة.. ولا أعرف من أين لي بتلك الجدية والبرود حين قلت لها:

- « حسنًا.. إذا كان ذلك سيجعلك سعيدة».

لم أشعر وقتها سوى ببرودة قد حلت على قلبي، لم أشعر بألم وقسوة تلك اللحظة سوى فيما بعد، ألم متواصل ومتضاعف مختلفة أشكاله.

I can't love you in the dark

It feels like we're oceans apart

There is so much space between us

Baby, we're already defeated

Everything changed me

خرجنا هذا اليوم من المقهى الأمريكي متشابكي الأيدي للمرة الأخيرة، ثم وقفنا عند قارعة الطريق لا ينظر أحدنا للآخر، قبل أن تنهار هي باكية، ليهتز قلبي لصوت بكائها وددت لو أمكنني احتضانها لكن لم يعد هذا ممكنًا، ضغطت على يدها الدافئة بقوة، وكأنني أحتضنها لمرة أخيرة، ووقفنا

هكذا للحظات قبل أن أرخي قبضة يدي عن يدها الصغيرة سامحًا لها بالرحيل، فارتعشت يدها الصغيرة الغضة الرقيقة للحظات قبل أن تفلت هي الأخرى يدي، ثم قالت:

- «اعتني بنفسك جيدًا.. لأجل نفسك».

- «وأنتِ أيضًا.. اعتنِ بنفسك».

ردَّت عليها فالتفت ورحلت، فوقفت أراقبها بينما تبتعد، لم أحرك ساكنًا، وتذكرت أمي يوم وفاتها حين رأيتها تقوم من السرير وتخرج من الغرفة، بينما أراقبها أنا دون أن أتحرك من سريري، أرجوك يا أمي لا تتركيني مجددًا.

اختفت عن ناظري، وحجبت الغيوم ضوء الشمس فبات العالم أزرق تمامًا، فبدأت قطرات المطر تتساقط فوق رأسي، واشتدت رويدًا رويدًا، رفعت رأسي إلى أعلى قليلًا وأغمضت عيني مرخيًا فكي، فدلفت قطرات المطر إلى حلقي.. لم يكن طعم المطر نقيًا وعذبًا كما اعتدته، كان المطر مالحًا كالدموع.. وكأن السماء تبكي.. ومعه صوت أديل الذي لا يزال يتنامى إلى أذني من داخل المقهى.

It is the world to me that you are in my life

But I want to live and not just survive

***

(٧)

١٩ فبراير ٢٠٢١- درجة الحرارة ٣٨°

مهما وضعت من سكر في قهوتي الصباحية تبقى مرة، كل الطعام أصبح مرًا، آكل مجبرًا حتى أستمر في العيش وأفكر أحيانًا في جدوى هذا، لم أكن أتوقع يومًا أن أصل إلى تلك النقطة ولا حتى كمجرد فكرة في عقلي.

أستيقظ كل يوم متمنيًا أن يكون الشهران الماضيان حلمًا، أجلس أمام حاسوبي الشخصي محاولًا الهروب من ألمي بالانغماس في العمل، بينما هناك أغاني هادئة في خلفية عملي.. أختار لليوم الألبوم الأخير لفيروز (ببالي)..

(ذكريات.. ملونة وضبابية.. قاعدة في زوايا بالي.. عمر تاني عشناه).

أرسم خطًا فوق صفحة فارغة في البرنامج، ثم أرسم خطّا آخر فيظهر معوجًا غير مضبوط، أضغط على زر (ctl+Z) في لوحة المفاتيح فيمسح الخط الأخير، فقط بتلك السهولة وكأنه لم يكن، أتابع الرسم الخط فالآخر إلا أن خطًا آخر يطيش عن موضوع الصحيح.. (ctl+Z) ويمحى آخر خط رسمته... نظرت إلى شاشة الحاسوب وشرد عقلي في فكرة...

تخيلت لو أن في حياتي ذلك الزر السحري الذي بضغطة منه

أمحو يومًا مضى، أو شهرًا، أو سنة... ضغطة زر تمحو الألم والندم.

(لحظات حلوين.. ضحكات اتبدلناها.. وبقيت قاعدة ببالي.. من عمر تاني عشناه).

أثناء عملي وصلتني رسالة من دار نشر أعمل معها على أعمال ستنشر في أحد المعارض الدولية، وكان محتوى الرسالة هو «الرسم ليس على المستوى المطلوب، والتصاميم تقليدية.. إذا لم تقدم خلال الأيام القادمة شيئًا مميزًا ربما نعيد النظر في ذلك التعاون». أغلقت الرسالة فلم أهتم، لم أعد أملك أي شغف حقيقي نحو العمل. أغلقت صفحة برنامج الرسم والحاسوب وقررت أن أعود إلى الرسم اليدوي بواسطة الورقة والقلم، جعلت أرسم وأرسم مستشعرًا احتكاك السن الكربوني للقلم الرصاص بالورقة، لم أكن أرسم شيئًا معين أو لهدف معين، فقط كنت أحاول أن ألين يدي، فكانت النتيجة خطوط سريعة تجتمع لتشكل وجهي البائس، نظرت إلى الرسم لدقيقة ربما قبل أن أمزق الورقة إلى نصفين، ثم جلست أراقب وجهي الممزق وكأنني أنتظر شخصًا ما، كنت كلما مرت دقيقة أروح بعيني في اتجاه باب غرفتي فلا أجد شيئًا فأعود للنظر إلى الرسم، وكأنني انتظر أن تدخل أمي أو حورية من الباب لإصلاح الرسم الممزق،

لكن هذا بالتأكيد لم يحصل ولن يحصل.. لم يعد هناك شيء على ما يرام.

(ذكريات.. صور مصفرة وممحية.. قاعدة بزوايا بالي.. من عمر عشناه).

تحسست الخاتم الخاص بوالدتي الذي أصبح لا يفارقني مؤخرًا حتى أستمد من روح أمي القوة، ثم قمت وأزحت الورقة الممزقة من أمامي، وقمت أتحضر للنزول والذهاب إلى أي مكان علّ الهواء الطلق ينعش روحي، ركبت مترو الأنفاق ونزلت حيث شعرت أنني أود النزول، ثم استقر بي الحال فوق أحد الكراسي الحجرية بممشى النيل، تحديدًا في مكان جمعني مع حورية في بداية تعارفنا.

(معقولة وقته كان كل شيء عالقد بسيط.. ولا الوقت محي اللي لازم ننساه).

من مكان ما لا زال صوت فيروز يتردد في أذني، فتنبهت بينما أنظر للنهر وحدثت نفسي:

- «لا زال النهر يتحرك ولا زال حيًا.. تمامًا كالزمن لا فرصة لأعود إلى الخلف».

فخاطبني صوت آخر: «النهر يحرك الأجسام التي بداخله للأمام، لكن هذا لا يعني أن المنبع ماضٍ والمصب حاضر، إنها

أشياء توجد معًا في نفس الوقت».

قلت متفكرًا في كلام الصوت: «إذًا لو أمكن للشخص أن يملك المركب المناسب لمقاومة التيار يمكن أن يعود إلى الخلف.. يمكن أن يشبه الأمر زر (ctl+Z)».

سألني الصوت: «لكن هذا سيجعلك تعيش الألم مرة أخرى.. العودة إلى الخلف لن تغير مكان مصب النهر.. دائمًا سيوجهك النهر إلى نفس النقطة».

- «أغلب الأنهار تملك طرق جانبية وعدة مصبات، العودة إلى الخلف قد تسمح للمرء بسلوك طريق مختلف لمصب مختلف.. كما أنه سيكون في إمكاني أن أعيش اللحظات السعيدة مرات ومرات.. وسأمحو كل أخطائي فتتوقف عن مطاردتي».

(لو فينا نرجع نعيد كل شيء من جديد، كنا عدناه).

سألني الصوت مجددًا:

- «إذًا تدرك أنك أخطأت وساهمت فيما يحدث لك؟».

ترددت قليلًا قبل أن أجيب: «ربما.. ليس دائمًا.. لقد عاندني القدر في الكثير من الأمور، لكن فقط لو امتلكت الفرصة.. سأهزمه».

- «لكنك امتلكت الفرصة بالفعل، وكررت الأخطاء ذاتها..».

استرعت كلماته انتباهي، وأدركت تلك اللحظة أنني لا أكلم نفسي، ولا أقف مع أحد أعرفه.. فاستدرت أنظر نحو مصدر الصوت فلم أجد أحدًا! لم أجد سوى غراب صغير ينظر نحوي دون أن يحرك ساكنًا، والحق أن هذا قد أثار في جسدي رجفة، وفكرت لوهلة في أن يكون صاحب ذلك الصوت هو الغراب!

سرعان ما نفضت تلك الفكرة المخيفة من عقلي، وشعرت أنني يجب علي العودة إلى المنزل، نظرت إلى هاتفي المحمول لأعرف الساعة، فوجدت اتصالًا من أبي، عاودت الاتصال به، واستمر الرنين لوقت طويل قبل أن يرد أبي، فيأتيني صوته الواهن من بين أنفاسه المتلاحقة يقول: «أحاول الاتصال بك.. أنا موجوع.. أنا خائف يا بني».

ثم سكت الصوت رغم استمرار مؤقِّت المكالمة في العد، فهرعت دون تفكير ويقين غريب داخلي بأن أبي في خطر، وصلت إلى البيت بأسرع ما أمكنني، ووقفت أمام باب شقتنا فهيِّئ لي أن عيني قد اخترقت الباب لأرى المشهد الذي ينتظرني بالداخل، فأولجت المفتاح في الباب وفتحت والخوف والتوتر متملكان مني، وبمجرد أن فتحت الباب كان المشهد كما تخيلته ورأيته، أبي منكب على وجهه فوق

الأرض فاقدًا الوعي.

***

وقفت أمام باب العناية المركزة أنتظر أن أعرف أي أخبار عن حالة أبي، كنت متوترًا وعلى وشك أن أنهار في أي وقت، أقلب في هاتفي باحثًا عن رقم حورية ثم أوشك أن أتصل بها، لكني أتردد، ويتجمد اصبعي قبل الضغط، ويؤلمني هذا.. يؤلمني ذاك الحاجز الذي خلق بيني وبينها.. يؤلمني ألا أستطيع مشاركة خوفي وقلقي وحزني معها. أفكر في رفيق فتعود إليّ ذكرى كل ما مضى فأدرك أنني تخليت عنه وخسرت دعمه، أشعر برغبة عارمة في البكاء، أشعر بالدمع يحتبس في حلقي ويكاد يخنقني، أنتبه لوجود شيء غريب في رواق المستشفى، غراب يقف على النافذة يخطف كل انتباهي، أركز معه لوقت غير معلوم بالنسبة لي، قبل أن يعود انتباهي إليّ حين أرى الطبيب واقفًا أمامي وينظر إلي أسفًا، فأشعر بزرقة وبرودة تحيط بالأجواء، فأضم يديّ إلى صدري متدثرًا بها وأسمع كلمات الطبيب:

- «الحالة متأخرة.. يبدو أنه أهمل العلاج وتداعى جسده بسرعة، أنت ابنه؟».

- «أجل». خرج صوتي منخفضًا.

- «كان عليك أن تنتبه لعلاجه.. لقد..»، انتبه الطبيب إلى أن الوضع لا يتحمل العتاب حاليًا فتنهد ثم قال: «لا أدري كم تبقى من الوقت.. لذلك سأسمح لك بالدخول له.. حاول ألا تدخل معه في حديث طويل.. الوضع لا يحتمل».

دخلت إلى الغرفة مرتجفًا، وأنا أنظر إلى كل تلك الأجهزة المرصوصة والأسلاك والخراطيم المحيطة بجسد أبي، بينما جسده الهزيل المتداعي مغطى بلباس المستشفى الأزرق الفاتح.. وبدا لي ذاك اللون حينها كئيبًا كالموت.

حاولت أن أنطق بشيء، لكن المرارة قد سدت حلقي.

- «لقد وضعت التقرير أمامك لأنني لم أملك الجرأة لأخبرك.. ولأنني أعرف أنك لم تكن لتحب أن تعرف».

قال أبي تلك الكلمات قبل أن يسعل عدة مرات بقوة، فطلبت منه ألا يتكلم، فرفع يده الواهنة وقال بعد أن كف عن السعال: «دع الدقائق الأخيرة تكن ذات قيمة».

كان يتنفس بصعوبة، لكنه لا زال قادرًا على الكلام.

- «رغم كل الحواجز بيننا أعرف أنك خفت من تلك اللحظة منذ موت أمك.. لذلك فضلت ألا تتعلق بي حتى لا تتألم لموتى كما تألمت لموت أمك».

هنا لم أعد قادرًا على حبس الدموع، وبدأت أكرر بمرارة: «آسف.. آسف.. آسف.. أنا..».

قطع كلامي محاولته إخراج كلماته القادمة بصعوبة فأنصتُّ جيدًا لقوله: «أنا أيضًا آسف.. لقد عشت يتيم الأب مُنذ كنت رضيعًا ولم أفهم يومًا ما يفعله الآباء.. آسف لأنني أحببتك طيلة عمرك لكنني عجزت عن طمأنتك يومًا».

حل بعد كلامه ذلك السكون لدقيقة لم يقطعه سوى صوت أزيز جهاز ضربات القلب معلنًا توقف هذا القلب عن الخفقان.

عدت إلى الخلف والذعر على وجهي جليًا ثم فتحت الباب، وناديت الطبيب وسرعان ما حضر مع مجموعة أخرى من الأطباء وراحوا يحاولون إنعاش قلبه وبالطبع بلا فائدة، انقلب العالم من حولي رأسًا على عقب وأنا أشاهد دون أن أحرك ساكنًا، كل شيء أزرق، صوت في رأسي يطالبني بالهرب.. اهرب.. اهرب.. هذا مجرد كابوس، لم أشعر بذاتي إلا وأنا أجري في الشارع بلا واجهة، جريت حتى أنهكني التعب، لأتوقف أخيرًا في شارع خالٍ أرخى الظلام عباءته عليه، يخلو من أي ضوء سوى من عمود إنارة ضعيف، وقفت أسفل ضوئه وقبالتي الغراب الصغير إياه، أشعرتني رؤيته بالغضب فصببت عليه كل ألمي المتمثل في حجر ألقيته نحوه، لم يهرب الغراب، بل وقف يتلقى الحجر وأصيب إثر ضربتي

بجرح غائر في جناحه، ورأيته ينزف، فسقطت على ركبتيّ وشرعت أبكي بحرقة وصوتٍ عالٍ، ربما لو استمررت في البكاء طويلًا لغرق الشارع، ثم فجأة جاءني الصوت فورًا:

- «لقد صار الألم مضاعفًا.. ربما كان من الخطأ العبث مع الوقت».

كففت عن النشيج ورفعت رأسي نحو صاحب الكلمات، فلم أجد سوى الغراب، فسألت مستغربًا: «هل تكلمت؟!».

حل الصمت قليلًا وكأنما قد تردد الغراب قبل أن يحرك منقاره ويجيبني: «لقد محى عقلك الألم حتى يرحمك فأعدت أنت فتح الجراح، حاول أن تُخرج نفسك من تلك الدائرة».

رحت أردد: «هذا وهم.. أجل كابوس.. أنت الدليل أن كل هذا كابوس، سأستيقظ في أي لحظة.. أتمنى أن أخرج من هنا».

قال الغراب: «احذر مما تتمنى».

رحت أردد بصوت عالٍ وأنا أبكي: «أتمنى لو كان هذا كابوسًا.. أتمنى لو أمكنني تغيير الماضي وإصلاحه».

ثم فجأة أضاء ضوء أزرق براق كل شيء من حولي..

فغرقت في الأزرق.

(لو فينا نرجع نعيد كل شي من جديد، كنا عدناه).

***

فتحت عينيّ بصعوبة بعد أن غشاهما الضوء لوقت غير معلوم، فلم أرَ سوى الأبيض، أغلقتهما ثم أعدت فتحهما مرات ومرات فبدأت معالم المكان من حولي تتضح، كانت غرفة واسعة لا تزيد مساحتها عن خمسين مترًا مربعًا، قسمت إلى قسمين، غطت جدرانها بعوازل وامتلأت أركانها بالعديد من الأزرار ويتوسط تلك الغرفة شاشة كمبيوتر ضخمة اتصلت أسلاكها بكل متر مربع بالغرفة، وكان أحد تلك الأسلاك متصل بعقلي، ليس بشكل مباشر بل بخوذة تشبه جهاز كي الشعر بالبخار في صالونات التجميل الخاصة بالسيدات، لكن ليس بالضبط.. كانت أقرب في شكلها لتخيلي الشخصي لجهاز مولد الأحلام الذي كتب عنه دكتور أحمد خالد توفيق في كتيبات فانتازيا.

في وسط تلك المعمعة كان هناك رجل يقف منتصبًا، أمامي لم أتبين ملامحه وتفاصيل جسده في البداية، بسبب ضوء الشاشة الضخمة خلفه، فظهر لي كسلويت مبهم المعالم، لكنه سرعان ما اقترب مني بينما يعدل نظارته التي تعلو أنفه، فأصبح بإمكاني الشعور بأنني أعرفه، لكنه قال قبل أن تتاح

لي فرصة التأمل فيه أكثر:

- «مرحبًا بالفتى الذي قفز عبر الزمن».

***

-٢-

قد يفقد المرء نفسه

أثناء سعيه لإيجاد الآخرين.

حدوتة بيت الأطفال الضائعين

كان سامر صديق طفولتي عبقري صغير واسع الخيال وكنت أؤمن به وأصدق فيه كما كان يفعل معي، أحب رسوماتي الطفولية البسيطة وانبهرت أنا بالسيارة الصغيرة التي صنعها بورق الكرتون وصنع لها محركًا يعمل بالبطاريات، تشاركنا كل شيء بما في ذلك المسلسلات الكرتونية التي كانت تعرض وقتها على القنوات المحلية، وكان من بينها مسلسل عن مجموعة من المغامرين الصغار الذين يستخدمون آلة للسفر عبر الزمن، كانت تلك هي المرة الأولى التي نتعرف فيها على مفهوم آلة الزمن فانبهرنا به، حتى أن سامر جاءني ذات يوم وقال لي: «حين أكبر، سأخترع آلة زمن». وصدقت أنه قادر على فعل ذلك وآمنت به، حتى أنني شرعت حينها في رسم عدة تصورات خيالية لشكل آلة الزمن تلك، بل حتى أنني دفعته إلى بدء تجميع قطع آلة الزمن، لقد كنت صديق السوء الذي لا تتمناه أي أم لابنها، حيث كنت أجذب سامر معي لاستكشاف مناطق بعيدة عن محيط سكننا لتجميع قطع آلة الزمن، جمعنا أثناء مغامراتنا الاستكشافية تلك العديد من القطع التي أعجبنا شكلها من القمامة وورش تصليح السيارات وغيرها من الأماكن التي قد نجد فيها أي نفايات قد تبدو صالحة لآلة

الزمن دون أن نعرف وظيفة تلك القطع الأصلية، وكانت القطع الأساسية المتواجدة بكثرة في غنائمنا هي شرائح السيليكون التي كان يسهل الحصول عليها من بقايا أي جهاز إلكتروني محطم.

للأسف أخبر سامر أمه بكل شيء، فعرفت أمي بالتبعية أنني أعرض نفسي والفتى للضياع أو الخطف في مغامراتي تلك، وكنا حينها في السابعة ربما، مُنع سامر من اللعب معي لفترة طويلة بينما استخدمت أمي طريقتها التربوية الأنجح لثنيّ عن تكرار الأمر، آتت إلى غرفتي في الليلة التي عرفت فيها بأمر مغامراتي الاستكشافية مع سامر، وقالت بنبرة جامدة لا توحي بشيء: «أتعرف ما الذي سيحصل لك إذا ما ضعت أنت أو سامر؟».

قلت دون أن أنظر إليها مباشرةً: «لن أراكِ أنتِ وأبي مجددًا».

قالت أمي وهي تغير نبرة صوتها لتجعلها غامضة وموحية: «بل ما هو أكثر، سيتم أخذك إلى بيت الأطفال الضائعين، حيث يذهب كل الأشقياء الضائعين.. ألا تعرف حكايته».

هززت رأسي أن لا، فابتسمت بخبث، وجلست إلى جواري في الفراش لتبدأ في الحكي.

«كان يا مكان ويا زمان كان هناك بيت من بيوت للأطفال الضائعين ، تميز عن غيره من البيوت بمشرفته الحسناء الجميلة التي كانت تجمع الأطفال الضائعين الذين فقدوا أهلهم تحت سقف بيت واحد لتمنحهم الغذاء والحنان والدفء واعدة إياهم أنها سوف تبحث عن أهاليهم، وبالفعل، كل أسبوعين أو شهر كان يغادر أحد الأطفال الضائعين البيت بعد أن تنجح مربيتهم الحسناء الملقبة بماما في إيجاد أبوي الطفل أو من يتبناه.

كان الأطفال في البيت سعداء وكانت ماما لا تبخل عليهم بشيء، ولا يعرف الحزن طريقًا إلى قلوبهم الصغيرة سوى في الأيام التي يغادر فيها أحد الأطفال، لكنه كان حزنًا مغلفًا بالسعادة لرفيقهم الذي عثر على البيت أخيرًا.

أما أسعد الأيام كانت تلك الأيام التي ينضم إليهم فيها طفل جديد، جاءت ماما في أحد تلك الأيام السعيدة بطفل في العاشرة يدعى آدم تاه عن أمه في مدينة غريبة وبعيدة، كان آدم ذكيًا ونظيفًا ونشيطًا كما كان يمتلك جرحًا صغيرًا فوق جبهته تمامًا كالذي فوق جبهتك (وأشارت أمي إلى جرح جبهتي الصغير فابتسمت ثم عادت تستأنف الحكي) وكان لديه مسدس بلاستيكي يطلق الخرز تمامًا كالذي اعتاد والدك أن يشتريه لك في الأعياد هو كل ما يملك، رحب أولاد

بيت الضائعين به وكذلك البنات، وكان من بينهن فتاة صغيرة اسمها عزيزة، فتاة جميلة ذات عينين زرقاوين واسعتين لامعتين كالدمى، وبحوزتها دمية دب لا تفارقها أينما ذهبت، نشأت بين آدم وعزيزة صداقة قوية، كانا يلعبان معًا طوال اليوم ويتبادلان ألعابهما في بعض الأحيان، إلا أنه وبعد أقل من شهر من قدوم آدم جاء دور عزيزة لتودعهم، فلقد قدم أحدهم لتبنيها، ودعها الأطفال وعلى رأسهم آدم بحزن حقيقي عميق، وأصبح آدم منذ ذلك اليوم يشعر بالوحدة رغم كل من حوله من الأطفال الضائعين، وبسبب وحدته تلك بدأ يتجول كثيرًا في أرجاء البيت، حتى أنه اعتاد الجلوس وحيدًا في الفناء الخلفي للبيت والذي حذرتهم ماما من اللعب فيه، وهناك وبينما كان يعبث في التربة إذ به يعثر على دمية صديقته عزيزة! حفر آدم أكثر فوجد بعض العظام الصغيرة مدفونة عميقًا في الأرض! تعجب آدم كثيرًا ودارت العديد من الأسئلة في عقله، إلا أنه قرر اختصار الأمر على نفسه فأخذ الدمية وذهب بها مباشرةً إلى مكتب ماما حيث اعتادت الجلوس في أوقات راحتها، طرق الباب دون أن يحاول الدخول لعلمه بأن ماما منعتهم من دخولها، فلم ترد ماما رغم أنه طرق عدة مرات فدفعه فضوله الطفولي وخوفه مما وجد لأن يدخل إلى الغرفة وكان بابها مفتوحًا، بالداخل وجد مكتبًا خشبيًا أنيقًا ومكتبة كبيرة مليئة بالكتب

وعددًا من الصور المعلقة داخل إطارات، وكان تلك الصور لماما تبتسم بسعادة في أماكن مختلفة وسط مجموعات مختلفة من الأطفال، وأثار انتباه آدم أن بعض تلك الصور بالأبيض والأسود وبعضها بالألوان، كما أن جودة الصور الملونة مختلفة عن بعضها البعض وكأنها التقطت في فترات مختلفة، إلا أن ماما تبدو فيها جميعًا بنفس السن والهيئة، لم تكبر أو تصغر يومًا واحدًا، لاحظ آدم أيضًا أن للغرفة رائحة غريبة هي أقرب لأن تكون كريهة ومنفرة، حين حاول أن يعرف مصدر تلك الرائحة، لاحظ أنها تأتي تحديدًا من خلف المكتبة، اقترب آدم من المكتبة واستند عليها يستطلع الرائحة فإذا بالمكتبة تتحرك من مكانها قليلًا فاكتشف أنها باب، شعر آدم أنه تعمق أكثر من اللازم ففكر في الخروج إلا أنه سمع صوت خطوات ماما في الخارج وهي تقترب من المكتب، ولخوفه من أن غضبها، أزاح المكتبة التي انزاحت بسهولة وعبر إلى الغرفة خلفها ثم أعاد المكتبة إلى مكانها خلفه من جديد، كان ذلك على أمل ألا تلاحظ ماما ذلك أو تدخل خلفه، وبالداخل، وجد غرفة أخرى بها قدر طبخ كبير، أوقدت النار عليه، وتخرج منه الرائحة الغريبة التي كان يتبعها، وهناك العديد من السكاكين وأدوات الطبخ، وبينما يتأمل آدم المكان فُتح الباب فاختبأ آدم خلف القدر، ودخلت ماما إلى الغرفة وهي تبتسم ابتسامة واسعة من الأذن للأذن،

وقالت: «أعرف أنك هنا يا آدم، يمكنني شم رائحتك».

خرج آدم من خلف القدر وهو يرتجف فسألته: «لماذا دخلت هنا، ألم أمنعكم من ذلك؟».

رفع آدم دمية عزيزة في وجه ماما وقال أنه جاء يسأل عن سبب دفنها في الفناء الخلفي، فوجهت له ماما سؤالًا آخر بينما تقترب منه: «ألم أمنعكم أيضًا من اللعب في الفناء الخلفي؟».

رد آدم على سؤالها بسؤال: «لماذا هذا القدر كبير هكذا؟».

ردت ماما وهي تقترب: «ليكون كافيًا لطعامك أنت وأخواتك».

سأل الفتى وهو يتراجع: «ولماذا لون عينيك قد تغير للأحمر؟».

قالت: «هذا لأنني غاضبة منك».

سأل وقد تمكن الخوف منه: «ولماذا قد تغير لون جسدك أيضًا؟».

قالت بصوت مخيف: «هذا لأنني سأعاقبك بشدة».

تراجع الفتى أكثر وهو يرى ماما تتحول أمامه إلى وحشٍ بعيون واسعة وفم كبير وشعر كثيف يغطي جسدها، فسألها

سؤاله الأخير بذعر: «مَن أنتِ؟»، فردَّت: «أنا أمكم الغولة، وسآكلك قبل معادك لأُحافظ على شبابي للأبد».

ثم حاولت أن تقبض عليه بمخالبها لكنه أفلت بجسده الصغير، ثم أخرج مسدس الخرز من جيبه وصوب نحو عينها الواسعة، أصابها فصرخت بصوت مفزع متألم، بينما خرج آدم الصغير من الغرفة هاربًا، هرب من المكتب.. من البيت.. ثم قفز من السور.. بينما صرخات أمنا الغولة تطارده.

عاد آدم بعدها إلى البيت وبرفقته بعض الكبار، بعد أن أخبرهم بما حصل معه، لكنه وجد البيت خاليًا، وحين سأل أهالي المنطقة اكتشف أنه مهجور مُنذ سنوات، لم يكن هناك يومًا بيت للأطفال الضائعين في هذا الحي».

توقفت أمي في القصة عند هذه النقطة فسألتها وأنا أرتجف تحت غطائي كورقة في مهب ريح: «هل كان آدم يحلم؟».

تمنيت لو تخبرني أنه كان مجرد حلم، لكنها أجابت: «يُقال إن بيت الأطفال الضائعين قد ظهر مجددًا لكن في أماكن أخرى، وجمع أطفالًا آخرين، ورغم أن القصة قد مرّ عليها سنوات إلا أن من رأوا أمنا الغولة وتمكنوا من الهرب قالوا إنها ما زالت شابة لم تشِخ، أما عن آدم، فلا أحد يعرف ماذا حصل له بعدها، لكن ربما عثر أحد الأطفال الضائعين أثناء

عبثه في التراب على مسدسه البلاستيكي.

بعد أن انتهت أمي من الحكي، ابتسمت وهي تنظر إلى الذعر المبالغ فيه على وجهي فاحتضنتني ووعدتني أنها ما دامت هنا فإن كل الأمور ستكون على ما يرام، لن تمسني أي أمنا غولة مهما حصل.

هكذا تم إحباط مشروع آلة الزمن بشكل مؤقت، وبعدها بثلاث سنوات غادر سامر منطقتنا والبلد كلها بلا عودة مخلفًا أول صدمة فراق في حياتي، ثم لحقته أمي، لتتركني طفلًا ضائعًا وفريسة لأمنا الغولة الحقيقة.. الحياة.

***

(١)

عودة للماضي.. ما حدث قبل ما يحدث.

بعد موت أبي وافتراقي عن حورية ورفيق أضحت أيامي صمتًا رغم ما أحاط بي من تفاصيل تتعلق بموت أبي.. الجنازة.. الدفن.. وما إلى ذلك.

أجلس في البيت لأيام طوال أو ربما قصار لا أدري عن العالم والزمن من حولي شيء، مسطح طوال اليوم فوق السرير أراقب السقف دون أن أحرك ساكنًا سوى جفني، أتمنى لو أبكي لكني لا أجد في نفسي الطاقة لذلك، ساعات لا أدري عددها قضيتها أتذكر كل كلمة سمعتها وقلتها في حياتي، وكل مشهد مرّ بي في السنين وتحديدًا الشهور الأخيرة، لم يتوقف عقلي عن الركض عبر الذكريات التي لم ترحمني، أتذكر أحيانًا صوت حورية وكلماتها وابتسامتها وصوت ضحكتها وذكرياتي معها فأبتسم رغمًا عني، أشعر بالدفء للحظة قبل أن يغرق قلبي في ظلمات الفراق من جديد، كنت كمن سره النظر للجنة من بعيد قبل أن يعود لإدراك أن قدميه ثابتتان في قاع جهنم، تمنيت أن أنسى، لكني لم أرد حقًا أن أنسى، وكأنني أحببت أن يعذبني الألم ويكويني، وشعرت أنني أستحق، أستحق الألم، أستحق ما جرى وما يجري، وقررت أنني يجب أن أصلب بالألم وأن

تنزف روحي حتى أكفر عن جميع أخطائي، عن خوفي وخذلاني وضعفي.

حاليًا آكل لأعيش، غير مهتمٍ بنوع الأكل وكميته وتأثيره عليّ، كما أصبح من الصعب تجاهل النظر إلى نسبة الدهون التي أضحت تشكل ٣٠٪ من وزن جسدي وكتلته، والعيون الغائرة التي تنم عن سوء تغذية واضح رغم وزني، ربما استغرقت شهرًا أو أكثر قبل أن أبدأ في الخروج من المنزل، ولم يكن خروجي مختلفًا عن بقائي في المنزل، فأنا أتحرك كسلحفاة فاقدة للشغف.

في تلك المرحلة لم يكن لي أي رفقة، حتى القراءة لم ترغب في مرافقتي، وربما الرسم كذلك، لم يرافقني سوى خاتم أمي الأزرق ودفتر مذكراتها، الذي قررت أثناء ليالي وحدتي أنا أقرأه بعد تردد، فهذا الدفتر يحمل آخر ما تبقى من أمي في عالم الأحياء، وحين قررت أخيرًا أن أفتحه، اكتشفت أنه ليس دفتر مذكرات بالمعني التقليدي، بل أشبه بمساحة آمنة تدون فيها ما يخطر لها من أفكار، كانت ملحوظات متفرقة بشكل غير مفهوم، بعضها يخص الطبخ والبعض الآخر مصاريف البيت، ونادرًا ما تجد فقرة كاملة أو صفحة، تحكي شيء ما، وكان من بين تلك الملاحظات ملاحظة مسجلة بتاريخ عيد مولدي الثاني عشر، عيد الميلاد الأخير برفقة

أمي، وبعد تلك الملاحظة وجدت شيئًا خارج النمط المعروف، مجموعة من الأوراق تسرد أمي فيها شيئًا ما أو عدة أشياء، وكانت قد دُونت بتواريخ، أدرك جيدًا أن تلك التواريخ قد سبقت رحيل أمي بأيام قليلة، أردت أن أقرأها بشدة، ليس بدافع الفضول، لا دوافع عندي هنا.. فقط حنينًا إلى أمي وريحها الطيب شرعت أقرأ.

«١ سبتمبر ٢٠٠٩

لقد مر على موت أبي أكثر من شهر، ولكني لم أستطع بعد تخطي ذلك، أصبحت أكثر عصبية وضيقًا ونفورًا من الحياة، هناك مرارة لا تغادر حلقي مهما مر الوقت ومهما أكلت أو شربت، غادرني الرجل الذي كان أبًا بكل ما عنته الكلمة من معنى، ولا يجعلني أتحمل فراقه سوى النظر في عين ولدي الوحيد، فما كان ينقصني أن يضرب تهديد آخر أسرتي، فها هو زوجي يصلنا العلم بإصابته بالسرطان من الدرجة الأولى...».

توقفت عن القراءة متفاجئًا من تلك المعلومة، هل أصيب أبي بسرطان المعدة من قبل!

قلبت الأوراق ووجدت الآتي، ملحوظة بتاريخ ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٩.

«لقد ساءت الأمور..

لم أعد أشعر أنني بخير، للمرة الأولى اليوم أصرخ في وجه ولدي الصغير، بل وأضربه، كانت الصدمة واضحة على ملامح وجهه البريء، وشعرت للحظات أنني لم أعد أنا، شيء ما فيّ تغيير، أنا أنهار رويدًا رويدًا، كل شيء أصبح منقوصًا، الضحك وحتى الحزن، أصبحت كلغم من المشاعر المتفجرة، ينتظر ضغطة لينفجر، لكن أبي الحبيب قد زارني اليوم، وأخبرني بأن هناك خلاصًا من هذا الكابوس الذي أعيش فيه، هناك حل لأستيقظ».

كانت تلك الملحوظة أغرب بكثير من التي قبلها، لا أذكر يومًا أن أمي قد ضربتني، مهما بحثت في عقلي لا أتذكر شيئًا كهذا، ثم إن الملحوظة بتاريخ يلحق موت جدي بحوالي شهرين، كيف زار أمي!

أسرعت أقلب الورق لأجد الملاحظة الأخيرة بتاريخ ٣ أكتوبر أي قبل تاريخ ميلادي بيوم، وتاريخ موت أمي بيومين!

«لقد حدثني اليوم، أخبرني بأن هذا العالم هو رؤية كاذبة، كابوس كبير يمكنني الهروب منه نحو الحقيقة، ربما تلك هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ تلك العائلة، أن أخرج من واقعهم نحو الحقيقة، على أحد أن يضحي.. لا أدري بعد كيف.. لكنه

سيخبرني قريبًا.. سيأتي ليأخذني معه نحو الحقيقة...».

بينما أقرأ تلك الحروف ضربت ذكرى موت أمي عقلي فسقط الدفتر من يدي، حوض الاستحمام، اليد الزرقاء المتدلية من طرفه، سقطت على ركبتيّ ثم اغرورقت عيناي بالدموع.

***

بعد قراءة الدفتر، شعرت أنني تحاملت على عقلي أكثر من اللازم، همت على وجهي في الشوراع وقادتني قدماي إلى أقرب محطة مترو، ركبته ونزلت في أقرب محطة من النيل، وبجوار النهر مشيت بلا وجه حتى تعبت فجلست قربه أتنفس عبقه وأراقبه، إن الزمن يجري مثل هذا النهر، يأبى تغيير اتجاهه، ماذا لو أمكنني أن أمسك بزمام الزمن، لو أمكنني تغيير مسار النهر، ربما لن أغرق أبدًا، ربما أروض الأزرق، وللحظة أدركت أن عدوي وعدو الإنسان الأول هو الزمن.

أيقظت رائحة النهر بعض الشجن والحنين في قلبي، فإذا بي أقفز إلى ذكريات صَعلَكتي أنا ورفيق جوار النهر وموعدي الأول مع حورية هنا أيضًا، فأجد في نفسي رغبة عارمة في البكاء مرة أخرى، لكن من أين لي بالدموع، وكأن عينيّ قد جفّتا وكُفّتا.

لمحت غرابًا يقترب مني، اقترب أكثر من أي مرة اقترب مني فيها غراب، رفع رأسه ونظر إلى عينيّ ثم نعق بصوت خفيض، ماذا تريد أن تقول؟ نعق ثانيًا.. ابتعد، شبهوني بك حتى صرت أتقاسم معك نفس المصير، مشئوم ووحيد. نعق بصوت أعلى هذه المرة، وتحرك تجاهي، فتحركت بشكل تلقائي والغضب يعميني وركلته بقدمي فاصطدم جسده الصغير بالسور الحديدي وتطايرت منه عدة ريشات صغيرة، أظن أن تلك الضربة كفيلة بجعله عاجزًا عن التحليق من جديد، نظرت إليه وأنا أنفس غضبي فكان لا يزال ينعق لكن نعيق متألم هذه المرة، وهنا أخيرًا بكيت.. لكن بغير دمع.

ليتني أملك تغيير مسار النهر، ليت في إمكاني عمل (كنترول زد) ومحو ما حدث، لم أكن لأدع كل هذا يحدث، لم أكن لأسمح لأيٍّ منهم بالرحيل.

كانت تلك اللحظة التي التقيته فيها، وقف جوار السور الحديدي وانحنى كي يحمل الغراب فوق كفيه، ثم قال بصوت هادئ واثق: «لدي العلاج.. علاجك وعلاجه».

لم أفهمه في البداية، لكنه استدرك بما جذب انتباهي:

«لدي طريقة لتصحيح أخطاء الماضي بل ومحوها».

- «من أنت؟».

سألته فابتسم ابتسامة ودودة وقال مادًّا يده لي:

- «صديق قديم».

نعم كان وجهه مألوفًا، وصوته جاذبًا، ووجدتني أمسك بيده دون الكثير من التردد.

***

(٢)

الحاضر.. ما يحدث بعد كل ما حدث.

- «مرحبًا بالفتى الذي قفز عبر الزمن».

استغرق مني الأمر دقيقة أو اثنتين من النظر إليه فاغر الفم بينما يحاول عقلي معالجة المعطيات وجمع القطع وحل لغز ما يحصل هنا، لكن فهمي للمعطيات والأحداث لم يكن واضحًا، أحس أن كل شيء حصل قد حصل مرتين لكن ربما مع بعض الاختلافات، أذكر أنني كنت الآن غارقًا في بكائي فوق الطريق، لكني أيضًا أذكر أنني قد قابلت ذلك الشاب الواقف أمامي بنظارته مستديرة الإطار والبالطو الأبيض، هل حدث الحدثان معًا، أم أني أتوهم حدوث أحدهما!

- «من أنت؟ وأين أنا؟ وما الذي يحصل هنا؟».

تمكنت أخيرًا من البوح بما في رأسي..

عدَّل من وضع نظارته فوق أنفه وقال زامًّا شفته السفلية: «كما توقعت، لم تكن التجربة الأولى موفقة».

في تلك الأثناء كانت بعض البقع العمياء في ذاكرتي قد بدأت تتكشف لي، لكن الصورة ما زالت ناقصة.

- «أنا سامر يا صاحبي.. هل تذكر ذاك الجزء!».

سامر! سامر صديق طفولتي!

- «سامر! كيف ومتي؟ أنت كبير ومختلف جدًا».

قال:

- «بالطبع.. هذا منطقي.. لقد خضنا تلك المحادثة من قبل.. لكن يبدو أنك لا تذكرها.. لا تذكر أي شيء.. توقعت ألا ننجح من المرة الأولى».

قلت:

- «ما الذي تحدثني عنه هنا؟ أي تجربة؟».

- تجربة القفز بالزمن، لا تذكر أنني التقيتك حين عدت من الخارج وعرفت ما حدث معك وعرضت عليك تجربة جهاز مكثف الوعي الذي اخترعته للعودة إلى الماضي؟ لا تذكر أي شيء من هذا؟

هناك ذكريات تشبه ذلك.. لكنها غير واضحة وبعيدة، كان يتكلم معي بينما يداه في جيب البالطو الأبيض على طريقة العلماء المجانين، وذكرتني هيئته بالعالم في فيلم العودة للمستقبل، وشعرت أنني بصدد سماع قصة فيلم مبتذل عن السفر بالزمن، حاولت أن أقوم من مكاني فخلعت الخوذة الشبيه بصانع الأحلام في قصص فانتازيا وابتسمت لسخافة

الفكرة وقلت: «لا يهمني إذا كنت سامر أو العفريت الأزرق، أنا لا أفهم ما تقول.. أخرجني من هنا».

تلك هي اللحظة التي يكذب فيها البطل المعلم حين يخبره بأنه المختار لإنقاذ العالم.

- ألا تدرك؟ لقد عدت لتوك من قفزة عبر الزمن.

نعم وتلك هي اللحظة التي سيحاول فيها ثنيّ وإقناعي بأنني المختار.

- لا يوجد ما يسمى سفر بالزمن.

قال بحدة وكأنني أهنته: «قفز وليس سفر، أنت لا تسافر بشكل مادي إلى الماضي، بل يقوم مكثف الوعي بتكثيف وعيك ونقله عبر نسيج الزمكان إلى الماضي، وعيك فقط الذي يقفز بالزمن، كفيلم تأثير الفراشة لكن بشكل علمي».

عادت لي حينها بعض الذكريات عن لقائي الأول به، عن عرضه وموافقتي عليه، وعن تحذيره لي حين وافقت في غمرة حالة اليأس التي كنت فيها.

«إن الأمر له توابع على عقلك وذكرياتك، فهو لا زال تحت التجريب».

شعرت بصداع واستندت بيدي إلى أحد الأجهزة في

المعمل فتابع سامر يقول:

- «هذا الصداع طبيعي، لم تكن التجربة موفقة، لقد حصلت عملية مسح عشوائي لذكرياتك أثناء محاولة القفز، لقد عدت بوعيك إلى الماضي لكنك لم تكن تذكر أي شيء مما حدث معك، بقيت المشاعر المرتبطة بتلك الذكريات هي فقط الموجودة، ربما يكون هذا كافيًا أحيانًا لتوجيهك لكنك للأسف كررت نفس الأخطاء والأحداث بنسبة ٩٠٪ .. لذلك لم يتغير شيء، لقد فشلت التجربة الأولى».

الذكريات تتدفق إليّ متتالية فيزداد الصداع في رأسي، كل شيء يبدو وكأنه حدث مرتين، مات أبي مرتين، سقط رفيق مرتين، تركتني حورية مرتين، لكني لا زلت غير قادر على تصديق ما يقول، حين هدأ الصداع قليلًا خطر في عقلي سؤال مهم: «إن التقنية التي تتحدث عنها قد تمكنك من التحكم في العالم، شخص من الحاضر بذكريات من المستقبل قادر على تغيير مسار الكوكب كله، لماذا لا تستخدم تلك التقنية على نفسك، لماذا لا توقف الحروب وتحذر العالم من الكوارث والأوبئة؟».

ابتسم ناظرًا للأرض، معدلًا من وضع نظاراته المستديرة وقال:

- «ما أدراك أنني لا استخدم تلك التقنية على نفسي الآن..

وأنني سامر الشاب بوعي سامر من المستقبل؟ أليس احتمالًا واردًا؟».

الفكرة كانت صادمة بالفعل ومرعبة إلى الحد الذي جعلني أسكت نهائيًا وأتابع كلماته:

- «لكن اللعب مع الزمن له قواعد، لقد حذر الكثيرون عبر التاريخ من مصائب قبل أن تحدث ولم يصدقهم أحد، بل اعتبرهم الناس مجرد مجانين، هل كانوا مجانين حقًا أم عالمين بما سيحدث بالفعل؟ لا يمكن لبرعم صغير أن يغير مسار التفرعات الخارجة من الجذع الكبير للشجرة، كما أن تلك التقنية تقتصر على التنقل عبر وعيك أنت فقط، أي أنك لا تستطيع أن تقفز إلى أبعد من يوم ولادك».

الصورة تكتمل في عقلي، أشعر الآن أن ما يقوله حقيقي جدًا وأني أصدقه.

- سألعب معك الآن دور مورفيوس بينما أنت ستلعب دور نيو بطل سلسلة المصفوفة the matrix وعليك أن تختار بين الحبة الخضراء والحبة الحمراء، هل تعود إلى تصحيح الماضي، أم تخرج من باب المعمل إلى واقعك الحالي الذي قدمت معي هربًا منه؟».

لقد خضنا تلك المحادثة من قبل أيضًا، الآن أذكر بوضوح.

كان هو يتابع الكلام بينما أنا غارق في أفكاري.

- لقد خضنا تلك المحادثة قبلًا لكن دعني أنعش ذاكرتك، قواعد اللعبة كالآتي.. أنت تختار التاريخ وأنا أنقل وعيك إليه، وحين تطلب العودة إلى الحاضر ينقل لي الجهاز قراءات عقلك فأعرف وأعيدك إلى الحاضر كما فعلت مُنذ قليل حين أعدتك للحاضر.. لكن للعبة حدودًا اتفقنا عليها قبلًا.

نعم أتذكرها، قلت: «لا يمكنني القفز للماضي أكثر من سبع مرات».

قال مؤكدًا: «بالضبط.. نحن لسنا في فيلم خيال علمي هزلي، هناك مقابل تدفعه من وعيك مع كل قفزه، ذكريات وقدرات تمسح بشكل عشوائي أو تفقدها أثناء قفز وعيك عبر النسيج الكوني كما حدث حين مسحت ذكرياتك عن الشهور الأخيرة في القفزة السابقة، لذلك فوعيك لن يتحمل أكثر من سبع قفزات، لك الآن حرية الانسحاب من التجربة وأيضًا حرية المتابعة وتجديد العقد معي».

سألت مستغربًا: «أي عقد!».

قال معطيًا ظهره لي: «العقد الشفهي بيني وبينك، أنت لست مجبرًا على شيء، فميثاق العمل بيني وبينك يتجدد مع

كل مرة توافق فيها على القفز عبر الزمن، لذا سأسألك للمرة الثانية، هل تود المتابعة؟».

ربما يبدو الأمر غير عقلاني، ربما لا زال الشك يتسلل داخلي نحو حقيقة الأمر، لكن حين أتذكر حاضري وواقعي أجد أنه ما من شيء إضافي أخسره، بل هناك احتمالية أن أتمكن من ضم يدي فراولتي الزرقاء مرة أخرى، وفرصة ليمشي رفيق على قدميه من جديد، وفرصة لأخبر أبي أنني أحبه.

توجهت إلى كرسي الجهاز، ووضعت الخوذة السخيفة لمكثف الوعي ذاك فوق رأسي، وقلت بهدوء: «يوم ٢٢-١١-٢٠٢١.. لتقم بالقفزة».

ودون أن يستدير نحوي، ضغط بعض الأزرار فرأيت الأزرق يغمر المكان.

***

(٣)

٢٢ نوفمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٧°

وكأني أنساب مثل لون زيتي جميل خرج من أنبوب من نوع ريمبرانت بعد أن ضغط عليه الفنان بأصابعه الدقيقة الحساسة لأسقط فوق البالت الخشبي، قبل أن تتخللني شعيرات الفرشة لأمتزج مع الألوان في تناغم وسلاسة، هذه الحالة هي الوحيدة التي تصف ما شعرت به أثناء انتقال وعيّ عبر أثير الكون إلى الماضي، لكن سرعان ما تحول ذلك الشعور الانسيابي إلى كابوس حين أحسست بأن ذرات اللون الذي يمثلني فوق اللوحة تتفكك وتتبخر من فوق التوال، ثم تبع ذلك خطوط اللوحة الأساسية التي بدأت تتماهى لتعود اللوحة بيضاء نظيفة تمامًا، فتتبقى مني نقطة سوداء فوق اللوحة بلا معنى أو هدف، أحاول أن أهرب لكن أين يمكنني الهرب داخل عالم ثنائي الأبعاد، حيث لا لون ولا منظور، فقط أنا مجرد نقطة سوداء داكنة، ثم ابتلعني الفراغ.

فتحت عينيّ وشهقت كغريق وصل توًا للسطح، لم أكن على دراية بما يحصل معي في بداية الأمر، لكن سرعان ما اتضحت الخطوط وازدادت حدة الظلال وأخذت الألوان مواضعها فوق العناصر، أنا في غرفتي فوق سريري أنظر الآن إلى السقف.

اعتدلت ومسحت المكان بعيني سريعًا، بينما البيانات تتدفق إلى عقلي، حلم أم حقيقة؟ هل أنا الآن أستخدم وعيّ من زمن وجسد من زمن آخر؟ أمسكت هاتفي الجوال فرأيت التاريخ واضحًا فوق شاشته، الثاني والعشرون من نوفمبر ٢٠٢١.. هل هذا يثبت شيئًا؟ ربما الشهور التي أظن أنني عشتها ما هي إلا أحلام أتوهم أنني عشتها، هل من سبيل للتأكد من أي شيء؟ لأتصرف بشكل طبيعي، وأخوض يومي كالمعتاد دون أن أتوتر وستتبين الأمور مع الوقت.

***

- «ما لك؟ لماذا تتصرف بشكل غير طبيعي؟ ولماذا أنت متوتر؟».

كان هذا هو التعليق الأول الذي بدر من حورية حين رأتني بحرم الكلية، جميلة كالعادة، رقيقة كجناح فراشة كالعادة، وزرقاء متألقة كالعادة، وكنت أنا مُدهولًا كالعادة، متوترًا يرتعش جسدي وأكاد أفيض بالدمع.

قلت: «أنا تمام، بخير.. أنتِ جميلة كالمعجزة اليوم».

- تتصل بي بمجرد أن تستيقظ لتخبرني أنك في الطريق إلى الكلية، أصل لأجدك في انتظاري بتلك الحالة ولا تستطيع تجميع جملة مفيدة، هل أنت مريض؟ أم أن هناك مشكلة؟

مرآها أمام عيني جعلني أود أن أبكي، وفاض مني الدمع بالفعل بينما أرسم فوق وجهي ابتسامة لا تتناسب أبدًا مع السد الذي انهار في عينيّ.

رأيت النظرة الحنون التي كانت من أسباب غرامي بها تحل على وجهها، بينما يدها الدافئة تربت على كتفي، سألت:

- «يا فتى، الكلية كلها ستلاحظ بكاءك».

أجبت من بين دموعي وابتسامتي: «الكلية كلها تعرف أننا بكاءان كبيران».

ضحكت ضحكة قصيرة فاستطرد: «أنا فقط اشتقت إليك إلى الحد الذي يجعلني أتمنى لو توقف بي الزمن هنا».

ابتسمت إلى الحد الذي برز معه نابها المعوج فازدادت جمالًا فوق جمالها وقالت: «احذر مما تتمنى».

سكت العالم لبرهة، وترددت الكلمة من جديد داخل رأسي بصوت ذلك الغراب الذي قابلته قبلًا، العالم يتباطأ، ألوانه تتغير وتتلاعب كإشارات المرور، وكانت كل تلك الرؤى خلفية لابتسامتها، وشعرت أن الزمن على وشك أن يتوقف بالفعل، لكن صوتًا من بعيد ناداني، ليعود الزمن للتحرك بشكل طبيعي، ناداني الصوت من جديد، فكان هذه المرة أكثر

وضوحًا.

- «أنت أيها المسطول، ألا أناديك؟».

نظرت نحو صاحب الصوت فإذا به رفيق، رفيق بشحمة ولحمه وابتسامته الودود وقدمين سليمتين تحملانه، استطرد رفيق:

- «آسف لمقاطعة تلك اللحظة الرومانسية، لكنك هنا في الثامنة والنصف صباحًا قبل موعد محاضرتك بنصف ساعة! هل أنت مريض؟».

دون كلمة قمت واحتضنته بشدة، وأمكنني استشعار نظرة الاندهاش والحيرة التي كانت فوق وجهه، وتبادل النظرات المستغربة مع حورية من خلفي، سألني: «هل كل شيء.. على ما يرام؟».

أجيب دون أن أفلته: «نعم.. للمرة الأولى مُنذ وقت طويل».

***

حدوتة الفتى الذي أكلت الحدأة لسانه

لماذا دائمًا علينا أن نأخذ حذرنا مما نتمنى؟!

كان خوف أمي عليّ حين كنت صغيرًا مبالغًا فيه بعض الشيء، لا أخرج إلى أي مكان سوى برفقتها، كنا إذا عبرنا الطريق معًا تقلب عينيها ذات اليمين وذات الشمال ألف مرة، فإذا لمحت سيارة ولو على بعد ميل تتجمد، تتردد.. تنتظر إلا أن تتأكد أن الطريق آمن لي ولها، ولقد اكتسبت تلك العادة منها، فكلما عبرت طريق وقفت أقلب بصري يمينًا وشمالًا، وأتردد طويلًا ثم أتسأل كثيرًا، أأعبر أم أتراجع؟ وليت الأمر اقتصر على عبور الطريق، لقد انعكست تلك العادة على كل شيء آخر، أرتدى هذا أم ذاك، أشتري أو لا أشترى، أفعل أم لا أفعل؟ في أحد المرات وبينما نحن عائدان -أنا وأمي- من المدرسة وقفنا على جانب الطريق ننتظر أن تغلق إحدى الإشارات لتسمح للمشاة بعبور الطريق، فإذا بي ألمح طائرًا صغيرًا يقف فوق إشارة المرور بينما يعكس ريشه الضوء الأحمر للإشارة، فقلت لأمي التي كانت تمسك يدي بينما عيناي لم تغادرا الطائر: «أتمنى لو كنت طائرًا، كنت لأستطيع عبور كل الشوارع دون أن ألتفت يمينًا ويسارًا».

فقالت أمي: «احذر مما تتمنى».

لم أفهم مقصدها فنظرت لها أسالها عن معنى ما قالت فقالت: «هناك حكاية عن فتى أكلت الحدأة لسانه، إنها حكاية قصيرة عن فتى تمنى الطيران مثلك..».

كان الفتى يخرج في كل يوم من المدينة ليجلس بجوار جدول ماء ليغني بصوته العذب ويتمتع برائحة الأزهار وألوان الطبيعة الغنية ويراقب الطيور في السماء متمنيًا لو يستطيع الطيران مثلها ليحلق بعيدًا حول العالم.

وفي إحدى مرات تأمله قاطعه صوت استغاثة غريب ليس لإنسان، حين نظر إلى مصدره وجده لطائر حدأة يستغيث بكلمات ككلمات البشر من جرف جدول الماء له، ورغم عجبه من أمر الحدأة إلا أنه لم يتأخر عن إنقاذها، مد يده بسرعة في الجدول ليلتقط جسد الحدأة الصغير وأخرجها، فشكرته الحدأة بينما هي تنفض الماء عن ريشها ثم قالت: «أنا لست كما أبدو، فأنا في حقيقة الأمر ساحرة كبيرة متنكرة في هيئة حدأة، إلا أنني أصبت في جناحي فصرت عاجزة عن الطيران وعاجزة أيضًا عن إبطال السحر، لكني أشعر أنني استعدت بعضًا من قوتي الآن وسأحقق لك ثلاث أمنيات كشكر لك على إنقاذي، لكن عليك أن تحذر مما تتمنى».

سعد الفتى كثيرًا وشرع في طلب أمنيته الأولى دون تفكير: «أتمنى أن أطير كما تطير الطيور في السماء». حركت

الحدأة جناحها السليم ثلاث مرات فوجد الفتى نفسه يرفرف ويطير، للوهلة الأولى سعد وفرح بالأمر، لكنه بعد ذلك انتبه لكونه يمتلك جناحين يشبهان تمامًا أجنحة الطيور، فنزل إلى الأرض وانحنى ينظر إلى انعكاس وجهه على سطح جدول الماء، فإذا به قد تحول إلى نسر أصلع ضخم، صرخ الفتى وقال للساحرة الحدأة أنه لم يكن يريد أن يصبح طائرًا، أراد فقط أن يكون قادرًا على الطيران، فأخبرته الساحرة أنها حققت ما طلبه تمامًا وهو طلب أن يطير كالطيور فجعلته كالطيور تمامًا ثم أخبرته بالأمر الآخر: «نسيت أن لكل أمنية يتم تحقيقها مقابلًا، لذلك فمقابل تلك الأمنية ستفقد قدرتك على الشم».

فوجد الفتى نفسه عاجزًا عن شم الأزهار كما كان يفعل ويحب.

قالت له الساحرة أن بإمكانه تصحيح الأمر بالأمنية الثانية وختمت كلامها بجملة: «احذر مما تتمنى».

هذا المرة قال الفتى: «أتمنى أن أكون قادرًا على الطيران بينما أنا في جسد إنسان».

حركت الحدأة جناحها السليم ثلاث مرات أخرى فعاد الفتى إلى جسده البشري من جديد لكن بجناحين ومغطى بالريش، ولديه منقار في رأسه.

حين نظر الفتى لنفسه في سطح الماء هذه المرة صرخ صرخة أعلى من الصرخة الأولى، وقال بغضب: «ليس هذا ما طلبته!».

قالت الحدأة: «لقد طلبت جسدًا بشريًا، لكنك لم تطلب رأسًا بشري، أو أن تكون بلا ريش أو أن تطير بلا أجنحة، ولا تنسى أن لهذه الأمنية ثمنًا، لذلك سآخذ قدرتك على رؤية الألوان».

فأصبح الفتى عاجزًا عن التمتع بألوان العالم من حوله أيضًا.

انفعل الفتى وقال إنه سيصحح كل شيء في أمنيته الأخيرة، فحذرته الحدأة قائلة كالعادة: «احذر مما تتمنى».

فتمنى الفتى: «أتمنى أن أكون قادرًا على الطيران مع حاسة شم قوية ونظر ملون ودون أن يتغير شكلي».

أشارت الحدأة بجناحها ثلاث مرات وحققت أمنية الفتى، نظر الفتى حوله فإذا بالألوان قد عادت، سحب الهواء عبر منخاره فوجد أنه قادر على الشم أقوى من قبل، لكن الريش كان ما يزال يغطي جسده، صرخ الفتى فيها متسائلًا فقالت الحدأة له: «لقد طلبت ألا يتغير شكلك وأنا بالفعل لم أغير شكلك، كان عليك أن تكون أكثر وضوحًا وتطلب العودة إلى جسدك البشري القديم، لكن تلك كانت أمنيتك الأخيرة، وفي

مقابلها سآخذ صوتك الجميل الذي تتغنى به».

حاول الفتى أن يتكلم فلم يجد صوته، صار يقرقر كطائر الحدأة، فضحكت الحدأة وسخرت منه مستخدمة صوته الذي سرقته منه، ثم اختفت، وحين حاول الفتى أن يدخل إلى المدينة التي يعيش بها، ظنه الناس وحشًا بهيئته التي تشبه طائرًا بشريًا ضخمًا، فطردوه وطاردوه، ولم يكن يستطيع الكلام ليحكي لهم ما حصل أو ليعرفهم بنفسه، ومنذ ذلك اليوم والفتى يطير في السماء باحثًا عن الساحرة الحدأة المخادعة لينتقم منها ويستعيد صوته، فإذا رأته الطيور هربت، وإذا لمحه البشر فزعوا.

أنهت أمي حكايتها المخيفة تلك فلم أعلق ولم تعلق، نظرت إلى جسدي فلم أجد ريشًا، واستنشقت رائحة عوادم السيارات فاطمأن قلبي، وعاودتني الطمأنينة حين رفعت عيني إلى إشارة المرور فوجدتها ملونة كما هي، من الجيد أن أمنيات المرء لا تتحقق دومًا.

تغير لون الإشارة إلى الأخضر، فتوقفت السيارات وحلق الطائر بعيدًا عن الإشارة وكأنما كان ينتظرها أن تُفتح ليتحرك، ثم نظرت أمي إلى اتجاهي الطريق عدة مرات لتتأكد من عدم وجود سيارة شاردة، قبل أن تشدني لنعبر.

***

لم أحضر محاضرة اليوم، جلست برفقة حورية ما يقرب الساعتين، أهدتني رواية فاوست التي كنت قد قرأتها بالفعل قبل عودتي للماضي، فأخذتها منها شاكرًا قبل أن نتطرق إلى مشاكلنا مؤخرًا، جلست استمع لها باهتمام بالغ مستمتعًا بتلك النبرة التي تدل على أن الأمر يعنيها، يعنيها أن تحل مشاكلنا وأن نبقى معًا، لا زالت متمسكة بي وتحاول، لا زال لديها الطاقة لتقاوم فكرة الانفصال، وأدركت حينها كم أن تلك نعمة، نعمة أن توجد امرأة تهتم لوجودك، وتحاول لأجلك، حتى أنها قد تصرخ أحيانًا في وجهك أو تغضب منك ولا تكلمك، أو ربما حتى تصفعك فقط لأنها تحبك، لأنها تهتم، لأن تصرفاتك الغبية لا تؤلمها بقدر ما يؤلمها أنها تصدر منك، لذلك تركتها تمضي في الحديث ولم أحاول أن أقاطعها أبدًا، على عكس عادتي، ويبدو أنها لاحظت ذلك وعجبت له، فتوقفت لبرهة ومالت برأسها جهة اليمين بينما عيناها تتساءلان قبل لسانها: «يبدو أنك لست بخير اليوم».

- «دعينا نتزوج.. في أقرب وقت ممكن».

قلت ذلك فسكتت وانفرجت شفتاها الجميلتان قليلًا قبل أن تقول:

- «نحن لم نُخطب بعد حتى.. وأنت غير مستعد كما قلت..».

أسرعت أرد: «تبًا للمال والعمل والاستعدادات.. حتى إذا رفضتني أمك ليكن.. سأحاول مجددًا..».

تغير وجهها، وازدادت وجنتاها حمرة، وتغير العالم من حولي ليصبح زهريًا كمحيَّاها، وقالت وعيناها الصغيرتان تلمعان كالندى فوق الورود: «حسنًا.. يحتاج الأمر إلى الكثير من التفكير.. المشكلة ليست مشكلة ارتباط رسمي، لدينا العديد من المشاكل التي لم تحل».

- «سنحلها.. سنتكلم ونبحث عن الحلول المناسبة.. معًا».

سكتت قليلًا ثم قالت وهي تبتسم ابتسامة تُبرز نابها السفلي المعوج اللطيف:

- «ربما أوافق.. دعنا نرى».

قابلت رفيق بعدها كما كان متفقًا عليه، وقد كنت في أوج اشتياقي إلى تبادل الأحاديث معه، عن المواد العملية ومدى سوء القهوة في المقهى الذي اعتدنا الجلوس عليه، وعن المشاكل التي تتخلل علاقتي بحورية، قال حين تطرقنا إلى ذلك:

- «ليكن في علمك.. لدي من الخبرة في العلاقات الفاشلة ما يجعلني أُؤكد لك أنها تفكر في الانفصال كحل أخير.. إنها تحبك.. وإن كل الرجال يا صاحبي أوغاد بما فيهم أنا وأنت..

فإذا كان من الضروري أن تتزوج وغدًا فليكن أنت».

رفعت حاجبي متعجبًا وقلت: «أحمد خالد توفيق! لم أدرِ أنك تقرأ له.. هذه خيانة».

- مُنذ متى وأنا أقرأ؟ لقد قرأت المقولة على فيس بوك.

- حسنًا.. منطقي.

- إذًا.. سنذهب معًا لرحلة الجمعة؟

باغتني تطرقه إلى ذلك الأمر رغم معرفتي بأنه سيتطرق إليه مسبقًا، وارتعد جسدي لمجرد الذكرى وقلت: «لا»، ويبدو أن صوتي كان عاليًا وحادًّا، وتعجب رفيق من رد فعلي وسأل: «لا تكن غبيًا عاهرًا.. ألم ترد أنت ذلك؟!».

- «لا، لا أرغب»، (وتذكرت حينها رغبة أبي في مرافقتي للتنزة يوم الجمعة)، «سأخرج مع أبي».

تعجب رفيق وأظهر ذلك برفعه حاجبه الأيسر والسؤال: «مُنذ متى وأنت تخرج مع أبيك؟».

فأجبت: «مُنذ أصيب بالسرطان».

توقف الحوار حين أتيت على ذكر ذلك وأنهينا الجلسة سريعًا، يبدو أن رفيق أراد أن يكون رفيقًا بي ولم يحاول التغلغل في الأمر إذا لم أكن أنا أريد ذلك.

من المفترض أنني أجهل بعد أمر إصابة أبي، سأعرف حين يترك لي الأوراق في المطبخ، أردت أن أعود للبيت وأتأكد من أمر تلك الأوراق، إذا كان أبي بالفعل مصابًا بالسرطان فقد يكون ذلك دليلًا على سفري بالزمن فعلًا، وربما مجرد خدعة أخرى من عقلي، من يدري؟ لم أصدق الأمر بسهولة على كل حال.

حرصت على أن أتواجد في البيت في نفس وقت وجود أبي في المسجد، بحثت في معاطف أبي القديمة المعلقة في دولابه فوجد مفتاح دولابه الخاص كما توقعت، لديه عادة مُنذ كنت صغيرًا في الاحتفاظ بكل الأشياء المهمة في معاطفه الشتوية، فتحت الدولاب ووجدت به كل المحتويات التي أعرف بوجودها مسبقًا، سيف شبورة وكرتي القديمة ودفتر أمي وخاتمها والصورة وكتيباتي، والأهم طبعًا مظروف أبي، فتحت المظروف ونظرت إلى الأوراق ووجدت الكلمة، سرطان المعدة في مكانها كما أذكره، هذا الدولاب بكل محتوياته يجعلان أمر القفز بالزمن يبدو حقيقي جدًا.

صوت الباب في الخارج يعلن عن دلوف أبي للشقة، أعدت الأوراق والمفتاح كل إلى مكانه، ثم أسرعت في الخروج من الغرفة فاصطدمت به، وكان من الطبيعي أن يتعجب من وجودي في غرفته فسألني: «هل تبحث عن شيء؟!».

خفت للحظة وتوترت للحظة أخرى ثم شعرت بعد ذلك برغبة في البكاء، لم تكن المرة الأولى التي أراه فيها فقد رأيته صباحًا نائمًا قبل ذهابي للكلية، لكن ها هو أبي أمامي واقفٌ حي يرزق يكلمني:

- «نعم.. ووجدته».

قال: «لا تبدو بخير».

قلت وأنا أحاول أن أتفادى البكاء والانهيار: «دعك مني، المهم أن تكون أنت بخير».

أظن أنه لم يعرف بما يرد، بدا الموقف بالنسبة له غريبًا وغير واقعي بالتأكيد، استدركت: «سآتي باكرًا في الغد، وأريد أن نتناول العشاء معًا.. أظن أنني أشتاق لطبخك».

أخذته المفاجأة لثوان، ثم رد بعد تردد:

- «أجل.. طبعًا».

***

٢٣ نوفمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٧°

ما الذي يجري معي؟ وكأن مهارة الرسم عندي قد شُلّت.

أجلس في ساحة الكلية مُنذ ساعة أحاول أن أخط بعض

الاسكتشات التحضيرية لكن بلا فائدة، تخرج خطوطي وكأنها خطوط طفل صغير لا يدري عن الرسم شيئًا، وكأن سنوات التعليم تبخرت من عقلي.

- لن يكون ثمن عبثك هينًا.

أتى هذا الصوت من جانبي، صوت متحشرج قليلًا، التفتُّ أنظر ناحية المصدر فكان الغراب إياه، نظرت إلى عينيه السوداوين الصغيرتين وعلامات الاستفهام والتعجب تتدفق إلى عقلي، ولم يقطع تدفقها سوى صوت متحمس يسأل: «ماذا تفعل؟»، ففزع الغراب وطار، وفزعت أنا فكدت أسقط عن المقعد الحجري.

- أنا آسفة.. هل أفزعتك؟

كانت نور، لقد تقابلنا هنا في نفس اليوم والوقت قبلًا، فلا عجب من تواجدها.

- لا عليك... كنت فقط أركز في الرسم لكن الأمور لا تجري على خير.

- يمكنني أن ألاحظ بالفعل أن طاقتك ليست على ما يرام.

«بالفعل أنت محقة هذه المرة، هناك شيء فيّ بالفعل ليس على ما يرام»، قلتها في نفسي ثم قلت لها:

- أشعر أنني نسيت الرسم، لا أجد تعبيرًا أوقع، لا أستطيع أن أخط خطًا في مكانه الصحيح.

- امممم.. Art block ... هذا يحدث معنا جميعًا.. التفكير في مشروع التخرج هو السبب، عليك أن ترتاح من الرسم قليلًا، حتى إذا عنى ذلك تخليك عن درجات هذا الشهر، درجاتك ممتازة وستغفر لك.

قلت مفكرًا: «رغم أنني لا أخبز ذلك لكن سأفكر فيه..»، ثم خطر في عقلي سؤال غريب: «نور.. أريد أن أسألك عن شيء ولا تظني أن بي جنونًا أو غرابة.. هل يمكن للإنسان أن يتكلم مع الحيوانات أو يفهم لغتها؟».

زمّت شفتيها ورفعت عينيها الكحيلتين إلى السماء وكأنها تفكر، ثم قال: «عمليًا هذا مستحيل.. إلا لو كنت ترتدين خاتم سليمان». (سكتت قليلًا ثم استدركت): لكن نظريًا هناك أساطير كثيرة وحكايا عن أشخاص يتمتعون بدرجة عالية من الشفافية تجعلهم قادرين على فهم الحيوانات عن طريق طاقاتهم وإشاراتهم، أو في حالة أن توجد روح لشخص تعرفه تتلبس ذلك الحيوان وتحاول التواصل معك، والاحتمال الثالث هو خطأ في المصفوفة.. خطأ مؤقت في برمجة الكون تسبب في قدرة إنسان ما على التواصل مع نوع ما من الحيوانات».

حاولت أن أستوعب كلماتها تلك وأن أخزنها، ولم أرد أن أطيل الحوار فقد بدأ يصبح غريبًا ولم أفضله، فقلت بعد سكوت قصير:

- «رائع.. معلومات جيدة.. ألن تدعوني إلى المعرض؟».

بدت عليها المفاجأة وهي تقول: «لقد كنت هنا بالفعل لأدعوك إلى المعرض.. كنت أظنك لا تعرف بأمره.. هل ستأتي؟».

قلت : «نعم سآتي.. أعرف أنه بعد غد.. وأخبرك من الآن أنني أعرف كم أن لوحتك رائعة».

***

على عكس مع حصل سابقًا، لم تسِر مقابلة العمل على خير، لم أتمكن من الرد على أغلب الأسئلة التي وجهت لي بخصوص الرسم والتصميمات التي عملت عليها، أعتقد أن الذي أجرى معي المقابلة قد شك -وله الحق- في أن أكون أن صاحب التصميمات المرفقة بسيرتي الذاتية.

بعد المقابلة وجدت اتصالًا من حورية، كلمتها ولم أخبرها بشأن ما أتعرض له من مصائب مُنذ الصباح، لا أريد أن أحملها أي أعباء وأفسد الأمر من جديد، اتصلت برفيق وحكيت له كل ما جرى معي مُنذ الصباح، فأتاني صوته من الجهة

الأخرى مشوبًا ببعض التشويش، يقول:

- «لدي حكمة في حياتي أظن أنها قد تفيدك.. إذا شعرت أنك لا تعرف ما الذي يجري معك.. اجرِ معه». (وكان يتكلم بجدية استفزتني).

- اقفل الخط أيها العاهر العـ** وإلا سأقفله أنا.

- حسنًا.. لم يكن عليّ أن أفيدك بخبراتي.. ألقاك في الكلية.. سلاااام.

بعد أن أقفل الخط أسندت رأسي على زجاج الحافلة التي توصلني إلى البيت وركزت في الطريق، أشعر أن كلما أعرفه أو ليس كما من المفترض أن يكون، فمحل الكشري المشهور ذلك لا يمتلك فرعين في نفس الشارع، والشوارع لم تكن أبدًا على هذا القدر من التشابه، وهناك ذلك الرجل الأسمر أصلع الرأس ذو الشارب والقميص الأبيض، مر بجوار الحافلة حتى الآن ثلاث مرات في محطات مختلفة، هل اتفق كل الصلع سمر البشرة على ارتداء القمصان البيضاء اليوم؟! كما أن الألوان في كل شيء حولي باهتة، متشربة بالأزرق، هل هناك مشكلة في بصري؟ وتذكرت لحظتها كلمات رفيق الهزلية وشعرت لبرهة بمدى عمقها وحكمتها «إذا شعرت أنك لا تعرف ما الذي يجري معك.. اجرِ معه».

***

وصلت إلى البيت في تمام الثامنة مبكرًا بقليل عن الموعد الذي أذكر أنني عدت فيه مسبقًا، وكان أبي قد جهز العشاء كما هو متفق.

ساعدته في وضع الطعام على الطاولة بكل سعادة، ولم أشأ أن أتعبه أكثر، تقبل تصرفاتي الغريبة تلك دون تعليق، ثم جلسنا متقابلين لنأكل فاستهللت الحوار:

- كيف هي صحتك اليوم؟

أجاب بعد تردد ودون أن ننظر لبعضنا:

- أظن أنني بخير.. جدًا بخير.

عاد الصمت بيننا وانبريت أنا أتذوق كل طبق أمامي مستمتعًا بطبخه، ، كانت مشكلة الشحوب قد اختفت وأصبحت الألوان من حولي زاهية ودافئة فساعدني ذلك على تذوق جمال الأصناف أمامي وألوانها، كان أبي دائمًا وأبدًا فنانًا من نوع خاص فيما يتعلق بالطبخ، تبدو أطباقه في شكلها كلوحات لـ(مونيه) ولا مبالغة، وأظن أن طبق المسقعة ذلك تحديدًا لا يقل تأثيرًا وقوة عن أي لوحة من لوحات المدرسة الوحشية، كما تبدو صينية البطاطس الغارقة في الصلصة كلوحة الغرفة الحمراء لـ(ماتيس) أما عن

كنت متشوقًا لحضور المعرض الذي دعتني إليه نور، ليس لأرى اللوحات أو لضرورة حضوري حتى لا أعبث بمجريات الزمن كما الأفلام، لكن فقط لمراقبة حورية بينما تشاهد اللوحات وتتكلم عنها، بمجرد أن دخلنا المعرض بدأت هي تتأمل اللوحات وبدأت أنا أفرك عينيّ بشدة، كانت اللوحات المعلقة مشوشة وكأنها صور طبعت بجودة رديئة، مسحت نظاراتي جيدًا ثم أعدتها إلى وجهي فلم يتغير شيء، كانت اللوحات (مبكسلة) كما يقال بالتعبير الشائع بين المصوريين والمصممين.

دخلت نورا حيز رؤيتي وابتسمت مرحبة بي مبدية سعادتها بحضوري، لكن لم أستطيع مبادلتها الابتسام، فانكمشت ابتسامتها وسألتني عما إذا كانت الأمور على ما يرام؟

انتبهت حورية لي فالتفتت نحوي واتسعت عيناها وفرجت بين شفتيها قليلًا ليتضح قلقها فحاولت أن أتدارك الأمر بسرعة: «إنني بخير.. لا شيء يدعو للقلق.. أريد أن أرى لوحتك».

عادت ابتسامتها لوجهها من جديد ثم قادتنا إلى لوحتها، نظرت للوحتها ثم لنا بزهو واضح، لا أرى شيئًا، لا تفاصيل بتاتًا.. ولا أذكر حتى اللوحة! أظن أنها كانت عن.. عن..

- هلّا أخبرتني باسمها يا نور.

تحركت شفتا نور.. ولم أسمع منها شيئًا. يا ويلتى!

شعرت بصداع يقبض على رأسي فتراجعت خطوة للخلف في تلك الأثناء لمحت ألوان اللوحة تتماهى وتتحول للأبيض، وكأن أحدهم غسل التوال بالنفط، درت بعيني في قاعة المعرض فكانت اللوحات كلها بيضاء، أبيض مرعب صعق حواسي.. زاد الألم والصداع وبدأت تفاصيل العالم تغيب، سارعت نحوي حورية، فكانت آخر شيء رأته عيناي.

***

في عمر الرابعة عشرة كان يوم الخميس هو المفضل عندي، أرتدي أفضل ما عندي وكأنني أتجهز لمقابلة عمل أو موعد غرامي، ثم أحمل حقيبتي الصغيرة بمحتوياتها من ورق وأقلام منطلقًا نحو مركز تعلم الفنون لا يبعد عني سوى محطتين، كانت مجموعتي تتكون من فتاتين تصغرانني سنًا وأنا، ذلك قبل أن ينضم رفيق إليّ فيما لحق.

أذكر أن مشكلتي الوحيدة حينها كانت رغبتي في تعلم الرسم الملون، بينما كان الأستاذ مصرًا على أن يعلمنا الرسم بالأبيض والأسود أولًا، والذي تطلب طبعًا أن نفهم معنى الكتلة وأهمية الظل والنور، وهنا يحضرني يوم تعلمنا الأول

عن الظل والنور: «إذا أردتم أن تظللوا شكل ما، عليكم بتحديد اتجاه الضوء أولًا فيكون الظل في الاتجاه المعاكس له». قال الأستاذ تلك الكلمات قبل أن يضع أمامنا كرة بيضاء: «كتلك الكرة، الضوء يصدمها من السقف فيسقط ظلها على الطاولة».

سألت إحدى الفتاتين: «لكن يا أستاذ، ألا تكون أجمل إذا ما تركت ناصعة البياض؟».

نظرت لوجهها منتظرًا إجابته، فرأيته يبتسم ابتسامة لطيفة، حين أتذكر الأمر الآن أظن أنه كان يبتسم حينها لفرط سذاجتنا، ثم رد: «حينئذٍ لن تكون حقيقية، مهمتنا كرسامين هي خلق بُعد ثالث داخل تلك الورقة البيضاء ثنائية الأبعاد، حتى تبدو حقيقية، أو على الأقل منطقية».

قلت حينها: «لكني لا أحب التظليل».

قال متسامحًا مع سذاجتي وغبائي: «هناك فنانون كثيرون كانوا مثلك، هناك اتجاهات فنية كاملة قامت على إلغاء الظل والنور، لكن الفنانين الذين فعلوا ذلك، فهموا القاعدة أولًا ثم كسروها، لذلك إذا أردت أن تصل للون، وأن تنجح في تجسيد خيالك على الورق، عليك أن تفهم ذلك التضاد بين الظل والنور، فعالمنا كما نعرفه قائم عليه».

***

استيقظت من إغمائي البسيط بعد دقائق قليلة لأجد أنني خارج القاعة على السلم برفقة حورية ونور وشاب آخر أظنني رأيته قبلًا.

- «ها هو يفيق»، (قالت نور).

- «الحمد لله»، (كانت تلك حورية وهي تتنهد بارتياح).

بعد ثلاثين ثانية تقريبًا، كنت قد وقفت على قدميّ وشكرت نورا والفتى الذي لا أعرفه، وأمسكت يد حورية لأفر بها هاربًا من ذلك المعرض وسط النظرات المستغربة.

حين وصلنا للشارع العام توقفت حورية لتسحب يدها من يدي وقالت: «أخبرتك من قبل أنني لا أحب أن أُجرَّ من يدي هكذا!».

نظرت إلى مباشرةٍ بعدها فرأت الرعب والهزال قد رسما خطوطهما على وجهي فاختفت حدتها وهي تسألني: «ما لك؟ ألم تعدني أن تراعي صحتك؟».

لم أدرِ حينها ماذا عليّ أن أقول، أأخبرها أنني رأيت اللوحات حولنا قد تحولت للأبيض! وجدتني أقول:

- لقد فشلت الخطة.

- «أي خطة؟!»، (عقدت حاجبيها).

قلت بنبرة شديدة الجدية: «قال لي رفيق إذا شعرت أنني لا أعرف ما الذي يجري معي.. فعليّ أن جري معه.. لكن يبدو أن الخطة فسدت.. الأمور الآن سارت تجري فوق وجهي».

ضحكت بصوت عالٍ حتى ارتج قلبي طربًا، كدت أنسى كم أعشق تلك الضحكة، ضحكة فاتنة وجامحة كأنثى فوضوية وتلقائية كطفلة.

جمعت كفيها الاثنين بين كفي يدي وربتُّ عليهما قائلًا: «أظن أنني أصبحت بخير الآن».

- «حقًّا؟»، (كانت قلقة ولا تفهم).

- «حقًّا.. ما دمتِ هنا.. فكل شيء يمكن تجاوزه.. دعينا الآن نعيدك للبيت»، (وختمت كلامي بابتسامة مطمئنة).

***

٢٧ نوفمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

بدا الأمر كالحلم بالنسبة لي، أبي الذي نادرًا ما تجمعني معه طاولة طعام، أجلس الآن برفقته في أحد مطاعم وسط البلد، بدا مرتبكًا في البداية وتائهًا، فهو رجل بيتوتي ليس من هواة التنزهات والمطاعم، وكانت تلك من الأمور التي سمعت أمي

تشكو منها.

حين حضرت قائمة الطعام تمعن أبي في قراءتها قبل أن يبدأ في الإشارة إلى بعض الأصناف سائلًا إياي عن مدى جودتها، فبدأت أقترح عليه بعض الأصناف التي جربتها هنا وأعجبتني، لكن سرعان ما أطلق أبي العنان لنفسه وأسئلته، فبدأ يسأل عن طريقة تقطيعهم للبصل، ثم طريقة طهيه، هل يكون معتدلًا في طهيه أم أن أنهم يحرقونه أو يتركونه حتى يتحول إلى عجين؟ هل يقومون بشي اللحم بحيث يبقى طريًا من الداخل أم يحرقونه فيصبح (مقلفحًا) حسب تعبيره؟ هل تتشرب مقلياتهم الزيت أم تكون مقرمشة وخفيفة؟ هل هم ماهرون في التوابل؟

كان يتكلم بنهم وشغف، ولم أستطع مجاراته، فاكتفيت برسم ابتسامة على وجهي في حين أستمع له، ابتسامة نابعة من سعادتي برؤيته في هذه الحالة من الشغف، وبرؤيته على قيد الحياة.

حين اخترنا طعامنا وقُدِّم لنا وتذوقنا، بدأت مرحلة النقد، هذا جيد جدًا، هذا ينقصه الملح، كان هذا ليصبح أفضل مع قرن فلفل، يا سلام لو كان هناك عصرة ليمون في ذاك الطبق.

لم يكن أبي رجلًا نهمًا ولا يميل جسده للسمنة أبدًا، لكنه يقدر الطعام ويتعامل معه بحساسية شديدة، حتى أنه لا

يحتاج سوى أنفه ليعرف مدى جودة الطعام، ولقد كانت حساسيته المفرطة تلك سببًا في جعله مصمم حلي مميزًا.

حين كنا نتبادل التعليقات واللقيمات اكتشفت أنني أجهل الكثير عن ذلك الرجل الجالس أمامي.

بعد تلك الوجبة الدسمة مشينا جوار النيل وبحوزتنا علبتان من الصودا، هنا لم يتمكن الليل الذي حل من منع النهر أن يضيء بكل تلك المراكب التي ازدان بها والإضاءات المبهرجة التي تتنوع بين الأحمر والأخضر والأصفر، لتنشر البهجة والحياة على صفحته السوداء. جلست أنا وأبي متجاورين ينظر هو إلى غير مكان محدد وكأنما يتأمل الوجود، بينما أحاول أنا تجاهل كيف بدت اللوحات الإعلانية المنتشرة فوق جزيرة الزمالك على الضفة الأخرى من النهر مشوشة التفاصيل كما اللوحات في المعرض، لكنني تمالكت نفسي وركزت على اللحظة الراهنة.

- «بابا!»، (قلت دون أن ألتفت لأنظر له).

- نعم.

- آسف.. لأنني لم أفهم.

لفّ رأسه نحوي وسأل: «ايه؟ لم تفهم ماذا؟».

- لم أفهم كم أحببتني.. كم حاولت.

فغر فمه قليلًا، يبدو أنه تفاجأ ولم يعرف ماذا يقول: «أنا.. فقط».

لم أمهله فرصة ليتكلم وتابعت: «أنا فقط لم أرد أن أتألم بعد ألم أمي، لم أشأ أن أتعلق.. لا أريدك فقط أن تأسف على أنك لم تستطع طمأنتي، ولا أريدك أن تتألم لذلك، أدرك معنى أن تفشل في منح الأمان لمن تحب..».

أظن أنها كانت لحظة مناسبة لإخراج بعض الدموع، وإلا ما كنت لأتوقف عن الكلام.

رأيت بسمة باهتة ومتعبة تحل على ثغرة، ثم بدأت شفتاه في التحرك: «بل أنا آسف جدًا يا بني، إنه لعالم قاسٍ، وبدون الطمأنينة لن يكفينا الحب لنمضي قدمًا». سكت لبرهة مترددًا ثم استدرك: «كنت أخشى الموت قبل أن تدرك كم أحبك».

استعدت رباطة جأشي بعد كلماته الأخيرة، ووضعت علبة الصودا جانبًا وقلت: «أنا أعرف بأمر السرطان».

لن تبدو عليه الدهشة، قال مباشرةً: «توقعت.. وأنا سعيد بذلك.. إذا كانت تلك المحادثة نتاج معرفتك تلك».

قلت وأنا أفكر: «ماذا لو كانت هناك طريقة؟ فرصة لتُشفى،

لتكون بالجوار لوقت أطول».

- «أنت لست صغيرًا حتى لا تدرك أننا متأخران، قد يرحل عني لكنه سيعود.. قد يتأخر الموت قليلًا لكن سيطول معه الألم.. تمامًا كما حصل مع أبي.. جدك.. تعرف أنه مات بالسرطان حين كنت لا أزال رضيعًا، لذلك عشت حياتي كلها يتيمًا، ثم ماتت عمتك الأكبر سنًا بالسرطان هي الأخرى قبل سنوات، والآن دوري، يبدو أنه قدر عائلتنا، أتمنى أن يتخطاك ذلك المرض الملعون كما تخطى عمتك الثانية».

ابتسم وكانت الابتسامة هذه المرة أكبر من أي وقت مضى، فأصبحت تجاعيده أكثر وضوحًا، السنون والحزن أخذا منه الكثير ولن يعطياه سوى التعاسة والألم، على مدار عشر سنوات لم تكن تحضرني سوى صورة أبي الشاب الذي فقد زوجته توًا، ونسيت أو تناسيت أن أراقبه بينما يكبر أمامي ومعي، لكنني متأكد أنه لن يتوقف يومًا عن مراقبتي بينما أكبر أمامه، بينما أقوى فيزداد هو وهنًا، كنت أشعر به في كل ليلة وكل صباح أمام باب غرفتي يراقبني، أشعر بنظراته نحوي بينما أختبر نظارتي الجديدة أو قميصي الجديد، أو أنظر إلى وزني الزائد أو عضلاتي التي عملت عليها في المرآة، لم يكن بعيدًا حين جربت أن أحلق ذقني لأول مرة، أو حين تحضرت لأول يوم في الجامعة، أو حين كنت متحمسًا

لموعدي الأول مع حورية، وحين أذكر كل ذلك أدرك وللمرة الأولى أنني كنت في كل مرة مستعدًا وواثقًا لأنني أعرف أنه يراقب من بعيد، لأنني ورغم إنكاري وتجاهلي، بداخلي كنت أعلم يقينًا أنه إذا فسدت الأمور سيتدخل، وكان هذا، دون أن يقصد هو أو أفهم أنا، يشعرني ببعض الأمان.

- ماذا لو كانت هناك طريقة تمسك بها بتلابيب ذلك المرض من بدايته وتقضي عليه، كأن تسافر بالزمن مثلًا؟

وجدتني أقول ذلك تلقائيًا وبدون تفكير فرد:

- أكلت الروايات عقلك.

- فكر في الافتراض فقط.

زم شفتيه وكأنما يفكر بالفعل ثم طرح سؤالًا:

- هل لو حصل ذلك سنعود إلى تلك اللحظة الآن؟

فكرت للحظات قصار ثم أجبت: «أظن أن ذلك غير ممكن، سيتغير كل شيء».

- «إذن.. لا أريد». قالها مباشرةً وبدون أي تردد ثم أردف: «الأخطاء الغير المقصودة الناتجة عن سوء تقديرنا للمكونات وكمياتها أثناء عملية الطهي هي ما تنتج في بعض الأحيان طبخة رائعة المذاق لا يمكن تكرارها، لقد تعودت أن أقدر تلك

اللحظات السعيدة بعد رحلات الحزن والألم، تلك اللحظات التي تستحق كل ما حدث قبلها، حتى أنك ستكون ممتنًا حينها للألم، لولا ما حدث ويحدث ما كانت تلك اللحظة، وأنا أحب لحظتي تلك فلا تفسدها عليّ.. ها؟».

احتضنته مباشرةً بعد أن أنهى كلامه، وشعرت بنفس الدفء الذي أحسسته عند دولابه فيما سبق أن حدث، لكن اختلفت هذه المرة في أنني لست خائفًا.

بقينا هكذا للحظات لم يقطعها سوى أبي حين قال:

- رائحة الذرة حلوة، رغم أنه ليس موسمها.

- «نعم»، (قلت دون أن أفلته).

- ممم.. هل تعتقد أنها ستكون طرية ولذيذة.. أم صلبة دون طعم.

هنا ألفيت نفسي أضحك، ضحكت بصوت خافت وكانت الدموع لا تزال تلمع في عيني، فضحك هو أيضًا وارتج جسدانا المتعانقان كقلب نابض سعيد، بعد ثوان من الضحك قال أبي:

- عليك أن تفلتني الآن وإلا سيظنون فينا ظن سوء.

***

بعد ساعات مرت كدقائق بصحبة أبي، كان عليّ ألا أخاطر بإرهاقه أكثر من ذلك، على الأخص بعد ما أكل، لم يكن قرارًا مدروسًا الضغط على معدة رجل مصاب بسرطان المعدة بهذه الوجبة الدسمة، ربما لجهلي بطبيعة المرض ولتجاهله هو أيضًا الأمر لم أشعر بأن هذا قد يكون خطرًا.

بينما نحن عائدان إلى البيت نظرت في هاتفي لأجدها التاسعة مساءً، وانبثق أسفل أرقام الساعة عدد كبير من المكالمات التي لن أرد عليها، أغلبها من حورية، ومكالمة واحدة فقط من طرف رفيق، بالطبع لم أشعر بكل تلك المكالمات بسبب عادتي المفضلة في جعل الهاتف صامتًا، ولجت إلى باقي الإشعارات فوجدت رسالة من رفيق وأخرى من حورية، دلفت أولًا إلى رسالة حورية أستقصي سبب كل تلك الاتصالات: «أين أنت؟ اتصل بي رفيق؛ سقط من فوق الجبل، أنا ذاهبة إلى المستشفى».

فتحت رسالة رفيق بعدها مباشرةً فوجدتها عبارة عن عبارتين: « كنت أتمنى لو كنت معي اليوم.. لا أعرف لماذا، لكن يتخللني شعور بالخوف».

لا، لا يفترض أن تجري الأمر هكذا! لقد كنت سبب سقوطه وأنا لست هناك، لقد كنت أنا السبب، من المستحيل أن يتسلق رفيق بمفرده، هذا ليس صحيحًا أبدًا، هذا خطأ.

رحت أكرر عبارة «هذا خطأ» بصوت واضح فلاحظ أبي وسألني فأجبته بأن هناك أمرًا طرأ لرفيق وعليّ الرحيل، تركته في الحافلة العائدة إلى البيت وقفزت منها بسرعة وتهور حتى كدت أنكب على وجهي، لم أكن في حاجة لأي تفاصيل، أعرف أين سأجده، وصلت إلى المستشفى وسألت عن رفيق فكان في المكان الذي توقعته وأذكره، وجدت حورية هناك بصحبة مجموعة من أصدقائنا وأشخاص لن أتعرف عليهم، ربما أقرباؤه، اقتربت ببطء مهتز الخطوات ثقيل الأنفاس فاغر الفم، انتبهت حورية لوجودي فأسرعت نحوي، هل كان وجهها محمرًا أم أن هذا تأثير اللون الأحمر الذي زحف على رؤيتي للعالم؟ نظرت إلى عينيها للحظة فقالت:

- إنه بين الحياة والموت.

كان صوتها متألمًا وكانت نظراتي تائهة، نظرت نحو غرفة العناية المركزة، ثم توجهت نحو بابها، من الخلف أتتني أصوات لا أعرف أصحابها تحاول أن تثنيني عن الدخول، دفعت الباب ولم أهتم، بالداخل كانت والدته وأخوه الأكبر برفقة الطبيب جوار السرير الذي تسطح عليه جسد رفيق، كان مغطى بالضمادات وجهاز نبضات قلبه يصدر تكات بطيئة مرعبة، كانت حالته أسوأ مما حدث قبلًا، سألت نفسي

حينها «لماذا عليّ أن أرى هذا ثانيةً؟ لماذا تجري الأمور بغير مسبباتها؟».

رأيت شفتي أمه تتحركان وهي تنظر نحوي باكية، رأيت الطبيب يتكلم فاردًا يده نحوي، وشعرت بأيادي تجذبني للخارج، لم أكن أفهم الوضع بدقة، وكأن تروس وعيي توقفت عن العمل، بعد أن أخرجوني وقفت في مكاني ثابتًا ساهمًا وكأني أنظر لشيء ما لا يراه أحد غيري، ذكريات ما في مكان آخر، يا لهذا البرد الذي يجتاحني! إن جسدي يرتعش بالكامل، كان أول ما شعرت به هو ضمة حورية لي، كان هذا دفئًا إلى حد أنه أذاب الجليد المتراكم فوق قلبي وبعضًا من الجليد في رأسي، فسألت دموعي حينها.

نظرت إلى حورية فنظرت إليّ هي أيضًا، وقالت: «كل شيء سوف يكون على ما يرام».

وأنت حين تعرف أنها كذبة تحتاج لمن يخبرك أن كل شيء سيكون على ما يرام.

***

٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٧°

حين قال أينشتاين إن الوقت نسبي، أظنه قصد نسبيته في الكون والفضاء، بين الكواكب والنجوم، لكنه وحتى في

الأرض نسبي، حتى بالنسبة لشخصين يمران بمشاعر مختلفة ولو كانا بغرفة واحدة، فاللحظات السعيدة لا أسرع منها، أما الحزينة اليائسة فلا أبطأ منها.

لا أعرف متى قادتني قدماي إلى هناك، لكني وجدتني جالسًا عند سور النيل القريب من المستشفى بالمعادي، وكان النهر كعادته مُنذ الأزل يتحرك نحو الشمال بهدوء، مهما جرى أو حدث، فهو لا يتوقف عن المضي قدمًا.

أخرجني من حالة السكون التي كنت فيها صوت خفقة جناح صغير فانتبهت إلى حلول الفجر، نظرت نحو مصدر خفقة الجناح فإذا به الطائر الأسود الصغير المشئوم واقفًا على السور الحديدي الفاصل بيني وبين النهر، يثبّت هذين الثقبين الأسودين الصغيرين في جمجمته نحوي، نظرت له دون اكتراث حقيقي، ثم أدرت رأسي في جهة أخرى تسمح لي أيضًا بالنظر إلى النهر، وقلت بهدوء:

- قل ما عندك.

- ولن تفر فزعًا؟

رد الغراب بصوته المميز فابتسمت نصف ابتسامة بركن فمي، وقلت:

- لتكن الشيطان نفسه.. سأسمعك فلا طاقة عندي لأحدث

بشرًا.

- لكن تروقك أحاديث الغربان؟

- يشبه الأمر أن أتكلم مع نفسي ليس إلا.

- لن أعتبر تلك إهانة.

نظرت نحوه فإذا به يعبث بمنقاره في ريش جناحه.

- ألم تقل شيئًا؟

عاد يوجه منقاره نحوي وأجاب:

- سيكون من الأفضل لك أن أسمع فقط.

- لا أعرف لماذا رغم أنني غيرت المعطيات وصلت إلى نتيجة أسوأ.. لماذا عجزت عن تصحيح الأمور؟

سكت بعدها قليلًا فسأل:

- هل تنتظر مني إجابة؟

- ربما.

- ربما لأنك تلاعبت بالمعطيات، ربما لأن القدر لا يمكن تغييره.

- إذًا نحن مسيَّرون كالخراف؟ هذا لا يصح، هناك مسببات

للأشياء: إذا زالت المسببات زالت النتائج.

- أو ربما تظهر مسببات جديدة.

فكرت هل كنت أنا السبب في سقوط رفيق، أم أنني كنت السبب في تخفيف حدة السقطة، تابعت الحوار مع الغراب:

- هل كُتب القدر، أم كتبته أفعالنا؟

- بماذا تؤمن؟

- أؤمن أن الإله الذي خلق هذا العالم قد أعطانا الخيار، ثم راقبنا ونحن نختار من بُعد أعلى فوق الزمان والمكان قبل أن يسجل أقدارنا.

- إذًا قد حصلت الأمور بالفعل وسُجلت.

- ربما سجَّل أكثر من احتمال، احتمالات لا نهائية للقرارات التي نأخذها.

- إذًا سيدخل نفس الشخص الجنة والنار مع اختلاف الاحتمالات؟

- ربما، أو يعطينا الله القدرة على تغيير مصائرنا.

أدار الغراب رأسه عني ونظر نحو السماء قبل أن يقول:

- لكني لا أظنه رب احتمالات، هناك خط واحد تسير به

مرة واحدة وتفرح وتتألم به مرة واحدة، لا تتكرر به نفس التجربة بل فقط تجارب مشابهة نختبر فيها مدى تعلمنا مما مضى ولا ننكأ فيه نفس الجرح مرتين.

قال ذلك ثم أنزل رأسه للنهر واستدرك:

- أنت تجدف عكس النهر، والكون لن يسمح لك؛ إما سيبتلعك أو سيعيدك للمسار الصحيح.

سكتُّ أسمع وأفكر في كلماته بينما أراقب اللوحات والصور المشوشة في الشارع من حولي، والقرارات تتصارع بداخلي، قد يكون محقًا لكنني قد دخلت أرض المعركة مسبقًا.

شعرت باهتزازات في فخذي فتنبهت، كان مصدرها هو هاتفي الجوال الذي ضبطه على وضعية الاهتزاز حين كنت في المستشفى تحسبًا لأي مكالمات مهمة، أخرجت الهاتف من جيبي شاعرًا بالندم على إلغائي الوضع الصامت، نظرت في شاشته فكان المتصل حورية، الساعة الآن السادسة صباحًا، من الغريب أن تتصل بي في هذا الوقت! رددت فأتاني صوتها يقول: «أنت بخير؟».

صوت مفطور يحبس الدمع، ذكرني بصوتها حين أبلغتني بانتحار رفيق.

- بخير.. ما بك؟

قالت بصوت متردد مرتعش: «أنت لست بالمستشفى؟».

قلت: «لا، أنا في الشارع، ما الأمر؟».

سكتت قليلًا ثم أخذت نفسًا عميقًا وصلني مدى عمقه في الهاتف ثم قالت: «لقد وصلني الخبر الآن.. ربما أرادوني أن أخبرك... رفيق...».

هل أصابني الصمم، أم أن عقلي رفض أن يسمع باقي كلامها؟ أين هذا الغراب؟ اختفى فجأة، هذا لا يحدث، هذا ليس حقيقيًا، أريد أن أعود، أبعدوني من هنا، روحت أردد الرغبة داخل عقلي، وأصوات كثيرة أخرى تتردد داخل عقلي.

«إذا شعرت أنك لا تعرف ما الذي يجري معك، اجرِ معه».

«احذر مما تتمنى».

«إنه لعالم قاسٍ، وبدون الطمأنينة لن يكفينا الحب لنمضي قدمًا».

«ربما لأن القدر لا يمكن تغييره».

«كل شيء سوف يكون على ما يرام».

***

ظهيرة اليوم الأخير في امتحانات الشهادة الإعدادية،

حيث الأطفال الذين يخطون ببطء نحو عالم الرجال يقفزون قفزتهم الكبيرة نحو أن يكونوا شباب بالمرحلة الثانوية، وأنا ورفيق نمشي تحت الشمس صامتين بعد أن اتفقنا اتفاقًا ضمنيًا على ألا نتكلم عن أي شيء يخص الامتحان، لكن السبب الحقيقي وراء صمتنا هو الخوف من التطرق لشيء ما..

- هل سنتقابل مجددًا؟

كان رفيق هو أشجعنا ومن أخذ خطوة الكلام وكسر الصمت.

- ربما، لا أعرف.. البيوت بعيدة، وقد تفرقنا المدارس الجديدة والأيام.. أنت تعرف.. هذا ما يحدث مع الكل.

- لماذا تفكر هكذا؟

- دائمًا ما يأتي الناس الأكبر على ذكر زملاء المدرسة الذين تفرقوا عنهم بسبب ظروف الحياة والانتقال والعمل.

عند تلك النقطة توقف رفيق عن المشي، ورفع رأسه ناظرًا نحوي فتوقفت أنا أيضًا وبادلته النظر، ولم يكن في حسابي حينها أنه على وشك أن يضربني بقبضة يده في صدري تحديدًا في الجانب الأيسر.

تأوَّهت وقلت بحدة: «قلبي هنا يا غبي».

- «أنت الغبي». (قالها بحدة وجدية ثم تابع): «نحن لسنا زملاء دراسة.. نحن أصحاب.. سوف نجد بعضنا دائمًا، ونساعد بعضنا دائمًا، وندعم بعضنا دائمًا، ألن نتفق على ذلك؟».

- «أ.. أجل..»، (لم أدرِ كيف أرد فقد صدمتني حدته، ثم رسم تعبيرًا ساخرًا على وجهه وقال): «ثم إن لدينا هواتف جوالة لسنا مثلهم».

- «لا، ليس لدي رصيد»، (قلت محاولًا أن أكون سخيفًا انتقامًا من ضربته لي).

- سأتصل بك أنا يا بخيل.

تبسمنا، ثم بادلته الضربة بضربة أقل قوة في صدره وتابعنا المسير.

قال رفيق أثنا سيرنا وهو ينظر نحو موضع قدميه في الأرض:

- لم يكن لي أصحاب قبلك، كنت دائمًا أُستغل وأُضرب ويسخر مني، وفي أفضل الأحوال يتم تجاهلي تمامًا، حتى وجدتك.. و كنت تشبهني.. لذلك أريد أن نكون أصدقاء دائمًا.

خطر في بالي سؤال حينها وأنا أنظر أيضًا للأرض أمامي:

- ماذا لو كنا نعيش في بلدين مختلفين؟ أو ربما دخلنا مدرسة مختلفة؟ ما كنا لنتقابل أبدًا.

مُنذ صغري أضع الاحتمالات، المتشائم منها تحديدًا، وربما كره تلك الصفة فيّ كل من عرفني وتحديدًا رفيق، فلقد كان على عكسي تمامًا، يحاول أن يكون متفائلًا، ويرد على كل احتمالاتي المتشائمة، قال:

- كُنا سنتقابل، القدر دائمًا يجمعنا بالأشخاص الذين نحبهم، مسير الحي يتلاقى كما تقول أمي.. حتى لو كنا نعيش في قطبين بعيدين من العالم كُنا سنلتقي، فقدرنا أن نلتقي.

في ذلك اليوم أدركت كما لم أدرك من قبل أن مصيرينا أنا ورفيق سيرتبطان إلى الأبد، وأنني محظوظ لأنه صديقي.

***

غطاني الأزرق كما في المرة السابقة، لكن هذه المرة لمدة أطول، حتى أنني حين فتحت عينيّ رأيتني أطفو داخل أثير أزرق وكأنني غارق في المحيط، لكنه محيط مضيء مطعَّم بالنجوم كسماء ليلة ساحرة، أشعر أنني أحلق في السماء لكني وفي نفس الوقت أحس ثقلًا يقيديني ويجذبني للأسفل، جسدي عارٍ تمامًا وجلدي يشع بضوءٍ أبيض، ومن

رأسي رأيت فقاعات صغيرة مضيئة تنساب طافية إلى الأعلى، ورحت أراقبها وجسدي مستسلم تمامًا، هناك فوق سطح تلك الفقاعات انعكاسات لأشخاص وصور، قادني الفضول لأن أحاول رفع يدي نحو إحدى تلك الفقاعات مقاومًا الثقل الذي يلفني، لكن بمجرد أن لمستها أضاءت بقوة فأعمتني للحظات، وحين بدأت الرؤية تتضح بعد قليل وجدتني في المعمل وأمامي سامر ونظرة إحباط كبيرة فوق وجهه، لقد عدت إلى الحاضر، أو ربما المستقبل.. الأمر مربك.

قال سامر حين تأكد من رجوعي:

- فشل آخر.

- أجل.. ربما نحتاج لخطة أفضل.

- إذًا تريد العودة والمحاولة.

- أظن.. نعم.

اقترب مني خطوة، ثم عدل نظارته فوق أنفه وسألني مجددًا:

- هل أنت متأكد من متابعة التجربة والموافقة على أي أضرار قد تلحق بوعيك أثناء عملية النقل والتكثيف؟

سألت:

- أي نوع من الأضرار؟

رد السؤال بسؤال:

- ما مجال عملك؟

فكرت للحظات ثم رددت: «مصمم.. نعم، مصمم وبعض الأشياء الأخرى ربما».

- أذكر لوحة مشهورة لفان جوخ.

فكرت قليلًا في سؤاله فشعرت أنني حتى لا أمتلك فكرة واضحة عن فان جوخ هذا، طال انتظاره فأدرك أنني لا أمتلك إجابة:

- هذا النوع من الأضرار هو ما أعنيه، حتى عم سعيد البقال يعرف لوحة ليلة النجوم starry night أو يمكنه وصف شكلها.

عند تلك النقطة بدأت أشعر بأن الأمر مرعب يبدو أن الأضرار ممتددة حتى بعد أن يعود وعيّ لمكانه.

- «لماذا يحصل ذلك بالضبط؟»، سألته.

- أثناء تكثيف وعيك وإرساله عبر الزمكان قد تفقد بعض البيانات أو تتم عملية مسح عشوائي لها، ثم أنك تتواجد في أماكن ليس من المفترض أن توجد فيها، بالطبع هناك عواقب.

لو أخبرني أنني قد أتسبب في حرب عالمية ما كنت لأخاف بقدر ما خفت مما قال، هنا قفز سؤال مهم إلى عقلي فطرحته:

- هل تتضمن العواقب الجنون؟ كأن أتخيل أنني أتكلم مع غراب أو ما شابه؟ أو أن أشعر بالزمن قد توقف؟ أن تتصرف الأشياء بلا منطق، أن كنت تفهم ما أعني؟

حدق داخل عينيّ بقوة للمرة الأولى حتى أنني شعرت أنه يكاد يخرق وجهي، ثم أمسك كتفيّ بكلتا يديه قبل أن يقول بلهجة حازمة:

- تجاهل الأصوات والرسائل وأي شيء يبدو لك غير منطقي، سيعبث الزمن بالواقع وبعقلك، سيحاول الزمن دائمًا تصحيح مساراته من أي انجرافات.

- هل تخبرني أنني أصارع القدر؟

- نحن.. نحن نصارع القدر.. (كان منفعلًا بشدة، فسكت لهنية يستجمع كلماته ثم تابع): «أأخبرك بشيء؟ أنا لا أؤمن بفكرة الإله العلي كلي الوعي، لكنني أؤمن أنه إذا كان هناك إله يسير الأمور فهو الزمن، القدر، لأكون واضحًا معك، نحن في حرب مع الإله، فهل تريد أن تتابع تلك الحرب وتتحمل مخاطرها؟».

تجمَّدت في مكاني لدقيقة ربما من أثر كلماته، ثم فكرت قليلًا فيما عشته وفيما حدث، وقلت لنفسي أن عليّ المتابعة، خيار التراجع الآن يعني خسائر أكبر، غرزت الأوتاد في جراحي سلفًا، محاولة التراجع لن تعني سوى جرح أكبر وألم أعظم ودماء أكثر.

- لقد غيرت القدر بالفعل، أنهيت خط حياة شخص ما سلفًا.. هذا يعني أن في إمكاني إحياءه.

مهما نسيت من أشياء، لكن لن يكون من ضمنها صوت رفيق حين قال لي: «نحن أصحاب، سوف نجد بعضنا دائمًا، ونساعد بعضنا دائمًا، وندعم بعضنا دائمًا، ألن نتفق على ذلك؟».

- «أرسلني إلى يوم الحادث مباشرةً». ارتديت مكثف الوعي فوق رأسي وأردفت: «ليس لدينا وقت، دعنا نحاول لمرة ثالثة».

ضغط سامر أزراره بينما يقول: «بل لدينا كل الوقت».

***

(٤)

بعد أن ارتبطت مصائرنا أنا وحورية، فتحنا قلبينا، وبدأ كل منا يحكي عن أهم أحداث حياته، ومن بين كل الحكايات حكاية لا أنساها، أذكر يوم حكتها لي للمرة الأولى، كانت ترتدي فستانًا أزرق واسعًا اشترته حديثًا، يمتد أسفله بنطالون جينز بلون أزرق غامق، ويعلوه حجاب سماوي اللون رقيق يحيط بوجهها، وكان على الطاولة الفاصلة بيننا فنجاني قهوة تركي مضبوط.

أخذت من فنجانها الرشفة الأولى، فاستحسنتها ثم شرعت في الحكي:

«بعد انفصال أمي عن أبي لم تعد تملك في العالم غيري، ورغم أنني كنت في الرابعة تقريبًا إلا أنه كان في إمكاني أن أقرأ ذلك بسهولة وأفهمه، في اهتمامها المبالغ وحركاتها وفي صوتها المذعور الخائف حين أسعل، لقد أضحت مطلَّقة في سن صغير، ولم تفكر في الزواج بعدها أبدًا، فقط كانت تفكر فيّ، هناك كلمة سمعت أمي تقولها يومًا ولم أفهمها إلا حين شطحت قدماي، قالت إنها استبدلت بي أحلامها.. لا أعرف من أين لي بذلك الوعي حينها لكن كان بإمكاني أن أدرك أن المرأة التي تحاول أن تمدني بالأمان لا تستطيع أن تمدّ نفسها به، كانت تفتقده وكنت أشعر بذلك في كل يوم تعود

فيه من العمل مسرعة لتحتضنني، لذلك أردت أن أكون ابنة صالحة بقدر المستطاع، كنت دائمًا طفلة هادئة، محبوبة، ملتزمة في دراستي، ولم أكن أبتغي من وراء كل ذلك سوى رؤيتها سعيدة».

زفرت بعمق ثم غيرت وضعية جلوسها، وضعت يديها الاثنتين فوق الطاولة: واحدة مفرودة تجاهي والأخرى تعبث بفنجان القهوة.

«أعرف أن البعض سيقول إن ذلك التعلق غير صحي، لكن طز.. لقد كنت مستعدة أن أبادل حياتي بها.. وهذا ما كدت أفعله».

ابتسمت فظهر نابها المعوج، فأشارت له ولجرح صغير في صدغها وقالت:

«إن لتلك الاصابات حكاية.. تعود إلى وقت كنت في الثامنة، حين كنت أعبر الشارع مع أمي ذات يوم خرجت سيارة عن سيطرة سائقها لتتوجه بسرعة نحوي أنا وأمي، و كنت قد لمحت السيارة قبل أمي بوقت كافٍ فدفعتها بعيدًا، كان جسد أمي صغيرًا، فتمكنت من إبعادها عن الاصطدام المباشر قليلًا لكن ليس تمامًا، ما شعرت به بعد ذلك كان الألم.. ألم طال لفترة لم أدركها».

امتدت يدي لتمسك بيدها الممددة فوق الطاولة وكأنما أحاول تخفيف ذكرى الألم الذي مر عليه أكثر من عقد.

استدركت: «حين أفقت كنت ممددة على سرير المستشفى والضمادات تغطي أماكن متفرقة من جسدي، وأمي تغرق الغرفة بدموعها، حين أدركت أنني عدت للوعي اندفعت بلهفة نحوي، كنت قد خرجت للتو من غيبوبة، وكان أول ما نطقت به، لا تخافي.. أنا بخير».

ابتسمت بينما تذكر ذلك فتبسمت أنا أيضًا، استطردت: «كان فكي مكسورًا، يمكنك أن تتخيل طبعًا شكل تلك الكلمات وهي تخرج من حنجرتي، كنت مليئة بالجروح والكدمات في أنحاء جسدي ووجهي، أضف لذلك كسرًا فظيعًا في ذراعي التي دفعت بها أمي، وفي ضلوعي، وعرفت أنني كنت أسعل دمًا طيلة الساعات الثلاث التي أعقبت الحادث، لكن رغم ذلك كنت سعيدة، فأمي لم تصب سوى بكسر في ذراعها اليسرى».

تخيل شكلها بينما هي ممددة فوق السرير جعل جسدي يقشعر، بدا لي المشهد كأسوأ كوابيسي، اتسعت ابتسامتها أكثر ليظهر كيف زادت الحادثة من جمالها.

«لا أعرف من أين أتيت حينها بكل تلك اللماضة بينما لا أقوى على تحريك طرف من أطرافي، ربما لأنني لم أفكر

حينها سوى في طمأنتها».

قلت بينما أنا سارح في وجهها وضحكتها:

- لقد خلقتِ لتزرعي الطمأنينة أينما حللتِ يا حورية.

***

٢٧ نوفمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٨°

كنت أسقط داخل هوة زرقاء سحيقة، لكنه سقوط هادئ كسقوط بالون، وحولي رأيت عشرات الكتب تحلق مفرودة الضفتين كجناحين، راحت تلك الكتب تطفو وتطير لأعلى قبل أن تتحول إلى فقاعات لامعة ومضيئة عند ارتفاع معين، حاولت أن أحرك جسدي لأمسك بإحدى تلك الفقاعات الجميلة لكني شعرت بثقل يشدني للأسفل، كالجاذبية لكنه أقل وطأة، وكأنه أذرع تحتضنك من الخلف وتجذبك نحو حضن دافئ، يذوي المشهد وتتبدل الموجودات من حولي فإذا بي أنظر إلى سقف غرفتي وإذا بالدفء الذي يشدني هو دفء سريري الوثير.

حين أدركت مكاني وما أوصلني إليه مددت يدي أسفل وسادتي لأمسك بهاتفي، أنظر إلى شاشته الواسعة فإذا بي في التاريخ الذي أردت، السابع والعشرون من نوفمبر، في تمام الساعة الخامسة صباحًا، فكان عليَّ أن أتحرك بأسرع

وقت.

في تمام السادسة إلا عشر دقائق كنت واقفًا أمام باب بيت رفيق بعد الكثير من الجري والتعجل وسط شبورة صباحية وأجواء باردة مزرقة، طرقت الباب ففتح لي رفيق، وكان سليمًا معافى يلف حقيبة ظهره فوق كتفه اليسرى فقط ويمسكها بيده، فابتسمت بارتياح.

- «حين اتصلت بي قبل قليل وأخبرتني أنك ستمر عليّ، كنت أظن أنك قد غيرت رأيك وسترافقنا في الرحلة!»، (قال رفيق كلماته تلك مشيرًا بكلماته ونظراته إلى ملابس البيت التي لم أغيرها ووجهي الذي لم يمسه الماء، ثم استدرك): «لكن يبدو أنك فاقد (مصطبح)، هل بدأت تشرب الحشيش من دوني؟!».

حاولت أن أبدو جادًا وحادًا بينما أقول كلماتي القادمة:

- لن يذهب أيٌّ منا.

قال عاقدًا حاجبيه: «وأنت من قررت؟! سأذهب أنا وأبحث عن شريك يساعدني في التسلق».

سكتت لثوان أبحث عن حجة تبرر موقفي إلى أن انبثقت أمامي ذكريات الأمور التي سبق أن غيرتها في رحلتي الماضية فرميت ما خطر لي من كلمات أمامه:

- أتذكر حين أخبرتك بمرض أبي؟ سأخرج معه اليوم وأحتاج إليك معي، الأمور متضاربة بيننا.. ربما قد يساعد وجودك.

- وما الذي سيغيره وجودي؟

- ربما يقلل من توتري وجودك معنا، كما أنك ثرثار وخفيف الظل نوعًا..

قاطعني قائلًا: «لا أعرف أذاك مدح أم ذم لكن شكرًا على اعترافك بحقيقة الأمور»، سكت لثوان ثم استدرك: «لكني سأذهب إلى الرحلة.

شد على ذراع حقيبته فشدت على يده وقلت: «أرجوك يا رفيق.. أحتاج مساعدتك اليوم.. هذا أبي».

نظرنا لبعضنا لثوان قبل أن أشعر بيده تتراخى عن ذراع حقيبته فتصبح الألوان من حوله أكثر نضارة ووضوحًا، قبل أن يسبني ويلعن يوم عرفني بغيظ وبصوت عال، بينما ابتسمت أنا سعيدًا وممتنًا.

***

«لماذا كل اللافتات الإعلانية بيضاء؟ يبدو الأمر مريبًا إلى حد ما بالنسبة لي».

كانت تلك الخاطرة هي ما يشغل بالي أثناء جلوسي على كورنيش النهر بين رفيق وأبي بعد أن تناولنا الغداء معًا، بنفس المطعم الذي أكلت به مع أبي فقط بالمحاولة السابقة، وقد أعجب أبي بالطعام تمامًا كالمرة السابقة، وحاول أن يكون لطيفًا قدر الإمكان مع رفيق وأبدى سعادته وترحيبه به في كل فرصة سانحة، أما رفيق فيبدو أنه غير متأقلم بشكل كامل رغم محاولاته أن يكون مرحًا طيلة اليوم، لكن يمكنني إدراك عدم ارتياحه الكامل من قلة انطلاقه في الثرثرة، كما أن كلماته القليلة التي ينطقها تكاد تفضح معرفتي بمرض أبي ومعرفته هو أيضًا، فقد سأل عن صحة أبي حتى الآن ما يقرب الخمسة مرات خلال ساعتين، على جانبي أنا كان هناك أمر آخر يؤرقني بشدة، لافتات المحلات في الشوارع لا تحمل سوى أسماء دون أي تصاميم، وكذلك قوائم الطعام! لا أذكر أنني في أثناء عودتي إلى الماضي حاولت إخفاء مصممي الجرافيك من العالم!

نفضت القلق عن رأسي وحاولت التركيز في اللحظة الراهنة فلاحظت أن الصمت هو سيد الموقف مُنذ جلسنا قرب النهر، فرأيت أن أفتح باب الحوار بين ثلاثتنا:

- شكرًا.. أعني على قبولك وجود رفيق.. فهو كأخ لي وأردت أن أعرفك عليه أكثر.

انتبه أبي لكلامي فأسرع يقول:

- «لا تقل هذا يا ولدي، يسعدني طبعًا وجود رفيق والتعرف عليه»، ثم حول بصره أثناء حديثه إلى رفيق، «أعرف أنكم أصدقاء مُنذ سنين ويسرني أن تسمح الفرصة أخيرًا للجلوس معه».

قال رفيق: «أنا أيضًا يا عمي والله، لقد كنت على وشك الذهاب إلى رحلة، لكن بمجرد أن دعاني ابنك وأخبرني أنك موجود قبلت الدعوة على الفور، كما أن الطعام الذي أكلناه أفضل من أي رحلة».

نظرت إلى ذلك المنافق من فوق نظارتي بينما يرد أبي ضاحكًا: «صحيح.. هذا المطعم جيد، نادرًا ما تجد مطعمًا يهتم بجودة طهي المكونات بحيث يحصل كل مكون في الوصفة على ما يحتاجه من وقت على النار دون أن يهترئ مكون أو يكون نيئًا».

قال رفيق متجاهلًا نظراتي:

- «نعم بالضبط.. أيضًا البهارات وكمياتها وأوقات وضعها، يمكن أن أشعر بوجود جوز الطيب والكمون والزعتر والقرفة أيضًا دون أن يزعجني طعم أحدها أو يطغى على الآخر».

لقد التقيا عند نقطة تواصل مشتركة، واسترسلا في

الحديث عن الطعام وصنعته، وجلست أنا كالأحمق بينهما أنتظر الفرصة المناسبة لأتكلم، وحين أتت قلت:

- «أريد أن أريكما شيئًا».

جذبت انتباههما قبل أن أفتح حقيبة ظهري وأخرج منها الشيء الذي كان يملؤها، كرة كأس العالم ٢٠١٠ المخروقة التي نفخ داخلها كرة بلاستيكية زرقاء، أمسكت الكرة بين يداي أمام نظريهما وقلت: «أعتذر يا أبي لقد أخذت تلك الكرة من دولابك اليوم قبل أن نخرج، فأنا أحبها جدًا وهي تمثل لي ذكرى مهمة». نظرت لرفيق وقلت: «بالتأكيد تذكرها أليس كذلك».

تبسم مشجونًا بالذكرى فبادلته الابتسامة ثم استدركت:

- لطالما ظننت أنني أحب تلك الكرة بسبب شعور الأمان اللطيف الذي غمرني حين أصلحها لي رفيق أول تعارفنا، لكني اليوم أدرك أنني أحب تلك الكرة لسبب أعمق، وهو إنها تذكرني بكما، إنها هديتكما لي.. هدية الحب الذي حين فسد أصلحته وأقامته الطمأنينة.

خفضت الكرة قليلًا فكاد أبي أن يتكلم لكني استطردت بسرعة:

- لطالما كنت أحمق يحب الهرب، لكني جئت بكما اليوم

طالبًا أن تبقيا بجواري دون أن تهربا أو تسمحا لشيء أن يبعدكما عني، حتى المرض و.. الموت.. رغم أنني لم أكن أبدًا الابن أو الصديق الذي تستحقانه.

بدت على ملامح أبي الصدمة والعجز عن الكلام، كان ما يحدث مفاجئًا بشكل زاد له، بينما كان رفيق ينظر إلى الأرض دون أن يصدر عنه أي رد فعل، رفعت عيني إلى اللافتات البيضاء وتمتمت: «أخبروني أنكم ستبقون دائمًا بالجوار». ثم بدأت أشعر بالعبرات تتراقص فوق مقلتيّ.

- أنت مجرد طفل.

صدرت تلك عن رفيق، الذي استرسل في كلامه بعدها دون أن ينظر إلى عينيّ: «طفل جبان مذعور تخيفه حتى نغمات رنين الهاتف، ويتوتر إذا ما أخبره أحد أساتذة المادة أن عمله ليس جيدًا كفاية، وأناني لا يبالي سوى بأن يشعر بأنه بخير، حتى لو لم تكن الأمور كذلك بالنسبة لمن حوله». كان مباشرًا وصادمًا بالنسبة لي ولأبي لكني لم أوقفه لم أحتج: «أتذكر آخر خلافاتنا؟ لا بل كل خلافاتنا، دائمًا نتجاهل الأمر وكأنه لم يحدث، وننتظر أن تصبح الأمور من تلقاء نفسها على ما يرام دون أن نحتاج لحل المشكلة معًا أو إلى الاعتذار، في وقت ما ظننت أنك لا تحب الاعتذار كأمر في حد ذاته فلم أشأ أن أجبرك عليه في أي من خلافاتنا، لكني مع الوقت

فهمت أنك تخاف الاعتذار لأنه الدليل على أن الأمور ليست بخير، تجاهلك لمشاكلك لم يكن يساعد على حلها بل فقط يؤجل الأضرار ويجعلها تتراكم، أعرف أن ما سأقوله الآن قد يكون قاسيًا لكن ألم تفكر لماذا عدد الاشخاص الحقيقين المهمين في حياتك قليل جدًا؟ هذا لأنه لا أحد يحب أن يتم تجاهل غضبه وحزنه ومشاعره عامة، الجميع يود أن يشعر بأن لأحزانه عند من يهتم لأمرهم قيمة، وها أنت الآن تطلب بأنانية أن نبقى مهما حدث، فقط لأنك تريد وتحتاج ذلك، فقط لأن هذا يجعلك تشعر بالاطمئنان، لكن هل فكرت فينا نحن؟ هل نحن مطمئنون؟ هل نود أن نبقى؟».

توقف رفيق عن الكلام عند ذلك الحد، وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال بصوت خفيض»آسف»، قبل أن يقف وينظر إليّ ويقول:

- مُنذ اليوم الأول رأيت حقيقة الطفل الخائف بداخلك، فأنا ايضًا كنت خائفًا منعدم الثقة، أعاني من اضطرابات عديدة لا أدركها، وأفتقر للهدف وللصحبة، كنت دائمًا محط سخرية أقراني في العائلة والشارع، كنت دائمًا غير كاف بالنسبة لعائلتي، فأخي الكبير يستطيع أن يفعل كل شيء أفعله وأكثر وبكفاءة أعلى، و كنت دائمًا أشعر أنني قابل للاستبدال، يمكن لأيٍّ كان أن يحل محلي ولم يشعر أحد بالاختلاف، لذلك كنت خائفًا مثلك يوم رأيتك، لهذا أردت أن أشعرك بأن الأمور

بخير، وحين فعلت.. شعرت أنني أن أيضًا بخير، أنني ولأول مرة كاف بالنسبة لأحد، أنني غير قابل للاستبدال، لذا نعم، أنا أيضًا كنت أنانيًا، لا تحتاج أن تطلب مني أن أبقى يا صاحبي، فأنا دائمًا سأبقى لأنني -مثلك- أحتاج أن أبقى.

أسعدني أن يتكلم معي بصدق ويخرج ما يعتمل بنفسه، وسقطت دمعة من عيني بينما أنظر إليه، فلكزني بقبضة يده في قلبي وقال وهو ينشج:

- «هنخيب ولا إيه؟ دعك من جو الصعبانيات ذاك». نظر لأبي في تلك اللحظة فارتبك، يبدو أنه بينما يسترسل، نسي وجوده تمامًا: «أنا آسف جدًا يا عمي.. لقد مثلت بجثة ابنك للتو أمامك».

كان أبي مرتبكًا من الموقف كله لكنه حاول الابتسام وقال:

- لا يهمك.. أنت شخص يعرف ابني جيدًا.. أكثر مني حتى، من المفترض أن أتضايق من نفسي لا منك.

قلت لأبي: «لا تلومن نفسك يا أبي فأنا أعرف أنك حاولت، لسنوات طويلة حاولت».

- لم أحاول كفاية.

- أنت أبي وأنا أحبك، أريدك أن تتأكد من ذلك دائمًا.

وضعت يدي اليسرى على فخذ أبي واليمنى أمسكت بها معصم رفيق الواقف أمامي، واستدركت:

- إذًا عداني أن تبقيا قدر استطاعتكما.

اكتفى أبي بأن ربت على يدي بابتسامة مليئة بالمرارة بينما تصنَّع رفيق التفكير وقال: «وما مقابل ذلك الوعد؟».

تحرك أنفي في الجو من حولي قبل أن أقول: «رائحة الذرة زكية، سأشترى لنا الذرة ما رأيكم؟»، نظرت إلى أبي وأنا أبتسم واستدركت: «أظن أنها ستكون طرية ولذيذة».

قال رفيق: «اتفقنا، أعدك أن أبقى قدر استطاعتي معك في حالة أن أعجبني الذرة».

ودعت رفيق حاضنًا إياه بعد أن أوصلته إلى باب منزله، ثم عدت مع أبي إلى المنزل بينما نتبادل نظرات طويلة صامتة، حين دخلت إلى غرفتي اتصلت بحورية، سألتني عن حالي فقلت مرتاحًا: «أن كل الأمور ستصبح على ما يرام». وبينما أكلمها رفعت عيني نحو أرفف المكتبة فلاحظت شيئًا عجبت له، أغلب عناوين الكتب على كعوبها قد اختفت! أنهيت المكالمة وقفزت عن سريري ثم أخرجت أحد الكتب من الرف وفتحته، فإذا بي أري صفحات الكتاب بيضاء خالية من أي كلمات!

***

ما زالت مشكلة العجز عن الرسم قائمة، وأضيف إليها الآن عجزي عن القراءة بعد أن أضحت الكتب بلا كلمات، كما لاحظت أن مهارتي في قراءة أي شيء عامة أصبحت أضعف، أحتاج أحيانًا أن أتهجى كالأطفال، كما لاحظت أيضًا عدم قدرتي على تمييز درجات اللون الواحد، يجب على الدرجتين أن تكونا شديدتي التباين حتى أتمكن من تمييزهما.

هكذا عزمت على ألا أكرر تجربة القفز مجددًا، انتهى الأمر بالنسبة لي وأمست الأمور أخيرًا على ما يرام، رفيق بخير.. وعلاقتي بأبي قد تحسنت، حتى أنه صارحني بحقيقة مرضه وتظاهرت بالطبع بأنني لا أعرف، عززته ويبدو أن الدعم النفسي قد شكل فارقًا في إقباله على العلاج والاعتناء بصحته، أصبح أكثر اهتمامًا بنظامه الغذائي وأكثر نشاطًا، أما فيما يتعلق بحورية، فما زال لدينا بعض الأمور العالقة التي علينا مناقشتها.

***

١٠ ديسمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٧°

وقفت في الشمس لمدى ساعة كاملة في انتظار حورية

أن تخرج من مركز كورسات الرسم الذي قدمت فيه على عمل، أثناء انتظاري رحت أتجول بعيني في المباني المرتفعة لشارع الدقي وتفاصيلها، وشعرت أن هناك شيئًا ما في شكل العمارات داخل الشارع يجعلها غير متناسقة مع بعضها، كما أن جميع اللافتات بيضاء والبشر والمحال أقل تنوعًا مما أعتقد، لكني سرعان ما طردت تلك الفكرة العابرة من رأسي.

أخيرًا رأيت حورية خارجة من البناية، ويبدو أنها مرهقة وعابثة بشكل مبالغ فيه، مشيت نحو مسار حركتها معترضًا مجال بصرها، فإذا بها تتوقف محدقة بي بمجرد أن رأتني، لم تكن تتوقع رؤيتي، كنت أرتدي فوق وجهي كمامة أخفت معظم وجهي فثبتت في مكانها تحدق بي لثوان قبل أن تدرك من أنا.

- لم تتوقعي رؤيتي.

اقتربت مني وهي تحاول التبسم وقالت: «خيرًا يا أستاذ، لم المفاجأة؟».

قلت: «شعرت أنكِ ربما تحتاجين لرؤيتي».

- بالكمامة!

قلت متحرجًا: «إنه مجرد إجراء احترازي، لكن انظري إلى حالك.. أنت بخير».

نظرة تعجبية كبيرة على وجهها بينما تقول:

- وهل كنت تتوقع ألا أكون بخير؟

- نعم.. أقصد لا طبعًا.. فكّك.. مقهى الدونتس قريب من هنا.. هل لي أن أدعوك لشرب الآيس كوفي؟

قبلت الدعوة بالطبع، وصلنا إلى المقهى وطلبنا القهوة المثلجة (آيس كوفي) لأنه على ما يبدو أنني الشخص الوحيد في ذلك العالم الذي يشعر بالحر.

حين سألتها عن سبب عبوسها الذي كان جليًا فوق وجهها أخبرتني أنه فقط يوم طويل، ثم حكت عن اختبارات العمل وختمت كلامها بقولها إنها تظن أنها قد قُبلت، قالت: «أظن أنني سأبدأ في إعطاء كورسات في الرسم بالقلم الرصاص قريبًا».

قلت: «خبر عظيم يستحق الاحتفال».

طلبت لكل منا قطعتين من الدونتس، قبل أن نستأنف حديثنا.

كانت بخير، لا أثر لإصابتها بأي فيروسات من أي نوع، من المفترض أن تكون مريضة اليوم، ولا تفسير لدي سوى أن هناك شيئًا ما حدث قبل أسبوعين قد تغير فلم تصب

بالفيروس، الشيء الوحيد الذي أذكر الآن أنه تغير هو حادث سقوط رفيق، وبسبب تغير هذا لم نلتقِ أنا وهي في المستشفى، يعني هذا أن الإصابة حدثت يومها.

بعد صمت دام بيننا لدقائق سألتني: «إذًا.. هل نحن بخير؟».

ضمت شفتيها ونظرت إليّ نظرة مليئة بالعتاب ثم مدت يدها لتمسك بيدي فوق الطاولة فتشبثت بيدها ثم قالت:

- لا.. لسنا بخير أبدًا.. وهكذا كانت الأمور مُنذ فترة.

ضغطت على يدها الصغيرة وقلت:

- دعينا نتحدث.. تكلمي.. أعرف أنك تفكرين في كل يوم أن ننهي كل هذا.. وأعرف أنك تحاولين مقاومة الفكرة وأنني مغفل وجبان.. وأطالبك أن تتحمليني مهما حدث رغم أنك..

- لست أمك.

أكملت هي كلماتي، فنظرت إلى عينيها أحثها على المتابعة.

- لقد عشت طيلة عمري مفتقدة للطمأنينة، رغم أن أمي حاولت أن توفرها لي بكل ما في كيانها.. لكن كثيرًا ما افتقدت وجود أبي رغم أنه حي يرزق، حين عرفتك زال هذا الاحتياج وشعرت لأول مرة أنني بالفعل مطمئنة.. ربما جذبني نحوك كونك أنت أيضًا غير مطمئن مثلي، تفتقد

أمك وتبحث عنها في أي شيء وأي شخص، فرضيت بأن أكون أمك.. لكنك حملتني حينها بالكثير من التوقعات التي أثقلتني، لذلك كثيرًا ما شعرت أنني لست كافية، أو أنك ضمنت وجودي فلم تعد تراعيني، كان من الخطأ أن أقبل لعب هذا الدور، أن أقبل وضعًا غير مريح لي.

قلت: «لم أقصد أن أسبب لك كل هذا الألم والضغط، أنا آسف».

قالت: «الخطأ يقع على كلينا، كان من الخطأ أنني لم أتكلم حين بدأت أشعر بعدم الارتياح».

- «هل تشعرين الآن بالارتياح لتكلمك؟»، سألتُ.

- «أنا خائفة». أجابت وعيناها تدمعان.

- مم؟

- خائفة من البقاء.. خائفة من الرحيل.. لا شيء آمن.

- لكن ربما إن رحلتِ تجدين نسخة أفضل منك رغم الألم.

قالت: «ربما..»، أخذت بعدها نفسًا عميقًا ثم سحبت يدها من يدي وعادت تسند ظهرها إلى ظهر الكرسي لتحبس دموعها.

سكتنا لدقائق أخرى نتبادل النظرات ثم محوت بكلماتي

الصمت:

- هل تأخرنا كثيرًا إذًا؟

كانت تدري ما أعنيه فردت: «لا أدري».

قلت: «أنا أحبك يا فراولتي الزرقاء، وأدري أن هذا غير كاف، لكنني قطعت الكثير من الأيام والآلام والأفكار حتى أصل إلى هنا وأخبرك أنني ربما أخيرًا أفهمك، قد لا تفهمين ما أعنيه، لكنني أظن أن لدينا فرصة لنحاول لمرة أخيرة، لنحاول بينما نحن على استعداد للتقبل والتصالح والتفاهم، لم أرك يومًا في غير أولوياتي، لقد خسرت الكثير في رحلتي للوصول إليك، أعني في الوصول إلى نقطة أكون فيها قادرًا على فهمك بشكل واضح، ربما معك يعود إلي كل شيء محته الأيام بداخلي، حتى إذا لم يعد.. يكفيني أن أكون هنا.. معك..».

شهقت ثم زفرت قبل أن أشرب قدرًا كبيرًا من قهوتي المثلجة مرة واحدة لأعالج جفاف حلقي، عيناها الصغيرتان كانتا تتلألآن وخداها محمران، بقت ساكتة لوقت طويل قبل أن تقوم عن الطاولة فأقوم معها، ثم مشينا متجاورين نحو موقف مواصلات قريب، توقفت فجأة قبل أن نصل للموقف، ثم وقفت أمامي وجهها يقابل وجهي قبل أن تقول: «قلت إنه يكفيك أن تكون هنا معي.. لكن المهم أن نكون هنا.. معًا..

أن أكون معك كما تريد أن تكون معي.. ما زلت أحتاج إلى وقت».

ولم أستطع أمام ذلك الوجه الجميل الحزين الحائر سوى أن أهز رأسي متفهمًا.

***

٢٥ ديسمبر ٢٠٢٠- درجة الحرارة ٣٧°

- «أتعرف.. أصبحت أخشى قول إن كل الأمور على ما يرام».

كنت أقف مستندًا إلى سور النهر بينما أوجه كلماته إلى الغراب الواقف على السور بجواري.

- «للقدر دائمًا ترتيباته». رد.

- ما الحكمة منها؟ ربما لو عرفنا لكانت الأمور أسهل.

- أو ربما تمنينا لو بقينا جاهلين.

سكت، ثم نقلت عيني من النهر إليه أراقب حركة رأسه السريعة الموترة، قلت:

- هل يمكن أن أعود طبيعيًا.. بدلًا من هذا المحو الذي يحاوطني والغربان التي تكلمني؟

رد: «أنا غراب واحد فقط الذي يكلمك.. لا تخاطر الغربان عادة بمطاردة البشر وتبادل الحوارات معهم».

- أليس غريبًا لماذا أنا ولما أنت تحديدًا، وكيف تعرف وكأنك قفزت معي؟

رفع منقاره نحو السماء وقال:

- أشعر وكأنك سبب وجودي، وكأنني خرجت لسماء هذا العالم حتى ألحق بك.. الأيام بالنسبة لي لا تتغير.. أنا فقط أتبعك.. أجدك وأشعر بأنني أريد أن أتكلم إليك أو أسمعك.

- ربما أنت رسالة.. رسالة القدر لي.. لكني عاجز عن معرفة إذا كانت رسالة تحذيرية أم إرشادية.. لكن في كل الحالات من الجيد أن أجد شخصًا ما أشاركه سري، حتى ولو كان هذا الشخص غرابًا.. كما يشارك الأطفال أسرارهم مع الدمى.

خيل لي أنه ابتسم حينها، هل تبتسم الغربان؟ قال:

- «أظن أن عليك أن تعود إلى البيت.. فاليوم يوم مهم».

قالها ثم فرد جناحيه وحلق، وتبعته بنظراتي حتى أضحى نقطة سوداء في تلك السماء الزرقاء التي خضبت غربًا بدماء شمس ذلك اليوم.

الليلة ذكرى عيد زواج أبي وأمي، لذلك كان عليّ العودة

مسرعًا إلى البيت لتناول العشاء مع أبي كما وعدته، حين وصلت رأيته جالسًا على كرسيه المفضل في صالة الشقة يطالع شيئًا ما في هاتفه، والحزن كالنحات الذي أعمل ضفرته في وجه أبي ليبرز تجاعيد وجهه.

- أبي؟

انتبه لوجودي، فاعتدل في الكرسي وأخذ شهيقًا عميقًا قبل أن يقوم قائلًا: «العشاء.. كنت على وشك أن أنهيه.. أحتاج نصف ساعة فقط وسيكون العشـ..».

قاطعته مستفهمًا بينما أقترب منه:

- ما الذي يحزنك هكذا؟

- لا شيء.. كنت فقط أقلب في صورنا القديمة.

ضحك ضحكة قصيرة متألمة بينما يقول ذلك، ثم ناولني الهاتف بعدها فشرعت أقلب الصور بسبابتي لأجد صور مختلفة لأسرتنا قبل موت أمي، صورة لي بينما أتوسط أبي وأمي في حديقة الحيوان، صورة أخرى قرب قفص الأسد بينما أبكي خوفًا، كنت في الرابعة حينها، صورة لأمي وأبي في زفافهما.. كانت فاتنة بحق حينها، وكان أبي يشبهني كثيرًا هنا، وابتسمت لهذا، نحن متشابهان بالفعل، الشبه الخارجي جعلني أدرك التشابه الداخلي بيننا، عاش أبي

سنينه الأخيرة وحيدًا نادمًا، بلا عائلة تقريبًا وبلا حب وربما حتى بلا أصدقاء، أدرك الآن مشاعره أكثر من أي وقت مضى.

كان على وشك أن يقوم لدخول المطبخ فأوقفته، سألني:

- «ألست جائعًا؟».

قلت: «أريدك أن تحدثني قليلًا عن أمي».

أدهشه طلبي كثيرًا، فأنا لم أرد يومًا أن أتكلم بشأن أمي، كنت مكتفيًا دائمًا بما أعرف عنها، في الحقيقة لم أرد معرفة حقيقة كواليس ما حصل معها حقًا، أو تذكر يوم موتها.

سألني: «أتريد التكلم عن هذا حقًا؟».

أومات برأسي، فعاد وجلس وقال: «عم تريد أن تتكلم؟».

- «كيف عرفت أمي؟ ما قصتكما؟».

هل تورد وجه أبي لمجرد الذكرى أم أنني أظن ذلك، وكأن شقوق الزمن قد تراجعت عن وجهه، أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- «ليست بالقصة التى تُحكى.. عادية جدًا.. كنا أقارب لكننا لا نعرف بعضنا.. ربما نعرف فقط أسماء بعضنا، رأيتها مرة واحدة حين كانت صغيرة جدًا وكنت أكبرها بثلاثة أعوام، كانت صغيرة وسط فستان كبير لا يناسبها، ويتدلى المخاط من أنفها».

اتسعت ابتسامته بينما يتابع: «حين تخرجت وأنا في مثل سنك، صادف أن ذهبت لزيارد جدك والد أمك بعد إصابته بجلطة في المخ، فقد كان جدك خالًا غير مباشر لي، وفي أثناء الزيارة وضع لي طبقًا من البرتقال، لا أدري إن لاحظت لكن لدي هواية تقشير البرتقال واشتهرت في العائلة بأنني لا يمكن أن أجرح برتقالة حين أقشرها، بل أقشرها بشكل مثالي».

علقت: «مهارة استثنائية».

استدرك: «كان ذلك حتى يوم زيارتي لجدتك، فقد صادف وجودها فدخلت وسلمت عليّ وجلست معنا لدقيقة، لم أشعر بنفسي إلا بعد أن أغرق عصير البرتقال يدي، لقد غرزت السكين تمامًا في جسد البرتقالة، ولقد لاحظ جدك ذلك».

قلت مازحًا: «يبدو أنه حادث جلل».

قال: «بالتأكيد.. إلى الدرجة التي جعلت جدك يسألني إذا كنت أود أن أتزوج بأمك».

- «هل أحبتك أمي هي الأخرى؟».

- إطلاقًا، كانت ترفض الزواج، ويبدو أن جدك وجد أنني فرصة جيدة لإقناعها بالعكس.

تمنيت في عقلي لو أعود بالزمن إلى تلك الفترة حتى أرى كيف كانا يبدوان، لكني لم أكن ولدت بعد للأسف وهذا يجعل عملية القفز بالوعي مستحيلة.

ترددت قليلًا قبل أن أقرر الشروع في السؤال التالي:

- «إذًا.. كيف وصلت إلى تلك النقطة في النهاية؟».

ابتلعت ريقي وزفرت قبل أن أقولها:

- أعني.. الانتحار.

كان بإمكاني أن اشعر بنبضات قلبه تعلو من مكاني، لذلك قلت:

- «يمكن أن نتوقف هنا إذا أردت».

قال: «نحن كبار كفاية ويمكننا أن نتكلم عن ذلك، هذا حقك».

أومات بينما المرارة تزحف فوق حلقي.

- لقد توترت علاقتي بأمك في آخر عامين، أصبحت أركز على العمل تمامًا تاركًا أمك تتولى مسئولية كل شيء آخر بما في ذلك أنت، لم أكن أعرف كيف أتعامل مع الأطفال، ولم أحاول حتى، ولم يكن لدي أي نموذج للأب في ذهني، لقد عشت يتيمًا دون أب، لم أكن أعرف عن الآباء سوى

تلك الصورة السطحية التي أراها من الخارج، كنت فقط ألعب دور الأب التقليدي، أعمل طيلة النهار وآتي في الليل بطلبات البيت والشيكولاتة، وكأغلب الأزواج عشنا في بيت واحد لكن منفصلان، ننام حتى في غرفتين منفصلتين، تصاعدت الأمور حين مات جدك، وعرفت حينها أنني مصاب بالسرطان.

- «هل كنت مصابًا بالسرطان!»، سألت محاولًا أن أبدو مستغربًا متعجبًا من المعلومة، رغم علمي بالأمر مسبقًا من دفتر أمي.

- قال أبي: «أصبت بسرطان المعدة قبل موت أمك وشفيت منه، لكنه وبعد كل تلك السنين عاد الآن يطاردني، ربما علينا أن نكتفي بذلك».

- أرجوك يا أبي تابع.

ابتلع ريقه مجددًا وتابع: «لقد تفاقمت الأمور فجأة، وانهارت أمك نفسيًا وباتت تتصرف بغرابة، وتتحدث مع أشخاص غير موجودين، تحديدًا جدك، وفي يوم عيد ميلادك كانت تبدو كأنها في عالم آخر، ثم كان ما حدث في صبيحة اليوم اللاحق لعيد ميلادك.. لم أتخيل أن الأمر من الممكن أن يصل بها إلى هذا الحد.

عند تلك النقطة من الحوار حضرني مشهد من الماضي، حضرني بوضوح أكثر من أي وقت مضى، يد أمي الزرقاء المتدلية من حوض الاستحمام.

قلت بصوت هامس مختنق: «كانت أمي تعرف أنك قد تموت بالسرطان.. ورغم ذلك انتحرت وتركتني».

قام أبي من مكانه ووضع يده على كتفي:

- نحن لا نعرف ما كانت تمر به أمك.. ربما لم تختر الهرب بكامل إرادتها ووعيها.

رفعت رأسي أنظر له فحدق في عيني تمامًا وقال: «لم يحبك أحد في العالم بقدر ما أحبتك أمك».

قال كلماته ثم سحبني من يدي إلى دولابه الخاص في غرفته وقال بينما يفتحه:

- أعرف أنك فتحته من قبل حين أخذت الكرة أيها اللص، لكن هناك بعض الأشياء التي عليك أخذها أيضًا.

ناولني رسوماتي القديمة ومن بينها الرسم الممزق الذي أصلحته أمي، ثم ناولني الإطار الذي يحمل صورتي معه ومع أمي ورأيته حينها يبتسم بينما يناوله لي ابتسامة ذات مغزى فابتسمت، ثم ناولني بعدها كتيبات ما وراء الطبيعة

وفانتازيا وملف المستقبل وميكي، وعلى قمة تلك الكتيبات قصة سيف شبورة، أمسكت تلك القصة تحديدًا، وفتحتها أقلب صفحاتها، وكما توقعت الصفحات بيضاء، ولا أذكر أي شيء عن القصة أو الرسم.

ناولني أبي أيضًا دفتر أمي الذي قرأته سابقًا، وأخيرًا الخاتم الفضي ذو الحجر الأزرق الزمردي والنقوش الحلزونية المميزة الخاص بأمي والذي ورثته عن جدي.

ارتديته في يدي اليمنى وسألت أبي:

- أتعرف عن هذا الخاتم شيئًا؟

قال دون اكتراث واضح: «ليس الكثير، كان جدك عاملًا في مجال الآثار وكان ذلك الخاتم من مقتنياته، التي حصل عليها أثناء آخر رحلات عمله، كان يحب هذا الخاتم كثيرًا وورثته أمك بعده كما ورثت منه الحواديت التي كانت تحكيها لك قبل النوم».

قلت بخبث: «أتشير إلى أن جدي كان يسرق بعض الآثار».

ابتسم وقال: «أيًا يكن، إنه إرثك العائلي».

نظرت إلى الدولاب وكان ملف حالته الصحية لا يزال هناك.

- «ألن تريني إياه؟».

غابت الابتسامة عن وجهه وقال:

- دعنا ننسى أنه موجود.. نحن هنا الآن، معًا.

قلت: «لم تعدني بعد أنك ستبقى».

رد: «من الغباء أن أعد بأمر لا أملك أمري فيه.. لكني أعدك بأن أبقى قدر استطاعتي».

ضممته مباشرةً، فتجمد وكأنه يستوعب الأمر، لكن بعد ذلك ضمني إليه هو أيضًا، فأصبح الحضن أكثر دفئًا وتكاملًا، وشعرت أن الألم داخلي قد انزاح مؤقتًا، وأضحى العالم من حولي دافئ الألوان، فاطمأننت، وأعطيت ظهري لترتيبات القدر.

***

٣١ ديسمبر ٢٠٢١- درجة الحرارة ٣٧°

أغمضت عينيها ثم أخذت نفسًا عميقًا وقالت:

- موافقة.

ثم ابتسمت ابتسامة متوترة سرعان ما اتسعت فضاقت عيناها الصغيرتان ولمعتا، لتحترق كل لوحات العالم وكتبه، لقد قالت نعم، كنت سعيدًا إلى الدرجة التي كاد معاها وجهي يتمزق من شدة الابتسام.

سألتني: «لماذا تبكي؟».

تحسست خدي فإذا بالدموع تغرقه.

قلت: «لأنني بكاء ودراما كينج كما تعرفين».

ندت منها ضحكة قصيرة قبل أن تقول بحزم:

- لكنها الفرصة الأخيرة، موافقتي على الخطبة لا تعني أنني سأتهاون في موضوع مشاكلنا.

قلت: «كم مرة قد يعطينا القدر فرصة كتلك لنضيعها؟».

الألوان عادت زاهية والعالم دافئ كيدِها وكل شيء مسكر الطعم، وكأن مرارة العالم كلها انتزعت.

اتفقنا على موعد أقابل فيه أمها وجدها، ثم راقبتها بعدها بينما تبتعد متعجلة وتتحرك برشاقة ولطف وتوتر، وبمجرد أن غابت نظري أوشكت أن أتصل بها، لكن أتتني حينها مكالمة من أبي، رددت بسرعة فسألني عن مكاني، أخبرته بمكاني فقال:

- جيد.. أنا بجوارك، لقد عبرت الإشارة ودخلت الشارع الرئيسي بسيارتي توًّا.

- عظيم.. أنت بالخارج وتقود سيارتك مُنذ فترة طويلة، هل

قابلت أصدقائك اليوم؟

جاءني صوته متوترًا:

- دعنا من ذلك، سأمر عليك.. أشعر أنني متوتر بعض الشيء وخائف.

أقلقتني كلماته فطلبت منه أن يتوقف بالسيارة في أقرب مكان يسمح بذلك، لكنه طلب مني بحدة أن أخبره بمكاني، لم أشأ أن أوتره أكثر فوصفت له المكان، فأغلق الخط في نفس الوقت الذي كانت حورية تتصل فيه، رددت بسرعة وسألتها بصوت حاولت أن أجعله مرحًا إن كانت قد استقلت الميكروباص أم لا، لكن صوتها أتاني خفيضًا خائفًا وهي تقول:

- لا أعرف ما الذي يجري لي، أنا ثابتة في مكاني وعاجزة عن الحركة.. أشعر بالخوف.

- حـوريـ...

صوت كلاكسات.. صيحات.. اصطدام.. بل عدة اصطدامات.. والهاتف بعدها يقع على الأرض.

وقع قلبي أسفل قدمي، وجريت كما لم أجرِ من قبل فوق خطى حورية، جريت حتى وصلت إلى الشارع الرئيسي

فوجدت حركة السيارات متوقفة، والناس تتجمع حول نقطة بعينها، اقتربت منهم ببطء في البداية، ثم أسرعت ثم عدوت ودفعت الناس عن طريقي حتى رأيت.. رأيت أسوأ كوابيسي.

حورية على الأرض غارقة في دمائها، يدها اليمنى ملوية في وضع غير طبيعي، ووجها يعاني من جروح عدة، وجوارها سيارة قد أضحت هي وعمود النور كتلة واحدة، كنت أعرف السيارة، وأعرف أيضًا الرجل مفتوح الرأس داخلها.

- حو.. رية.. بابا!

تكلمت دون أن أخرج أي صوت، ثم سيطر اللون الأحمر على مجال إبصاري.. ثم لم أعد أرى شيئًا.

***

كل شيء وكأنه رسم بقلم أسود فوق ورقة حمراء، عربات الإسعاف، نظرات الهلع حولي، الإجراءات، الطوارئ، العناية المركزة، الدكتور وهو يقول إن الفتاة قد ماتت وأن أبي لن يتحمل تأثير الحادث عليه طويلًا، ثم السكوت الذي حل على الكون، حتى أنني لم أسمع صوتي حين تمتمت برغبتي.. قبل أن يأتي الأزرق ليحملني بعيدًا عن هذا كله.

***

رأيت أبي أمام عيني لكنه أضخم حجمًا وأكثر شبابًا، أشعر أنني عاجز عن الحركة بحرية، أرفس الهواء بقدمي لكن بلا فائدة، هناك شيء ما يقيدني، يدخل وجه أمي لمجال رؤيتي، يصدمني الأمر لوهلة ثم أضحك فرحًا، تبتسم أمي أيضًا وتقول:

- انظر إنه يبتسم.

أحاول مد يدي نحوها فيصعقني منظر قبضتيّ الصغيرتين المدملكتين كيدي رضيع! تسأل أمي أبي أن يحملني، فيمد أبي يده نحوي ثم يلف قبضته حول جسدي ويرفعني إلى الأعلى، صوت أمي خارج مجال رؤيتي يقول:

- ماذا نسميه؟

يقول أبي: «لا أعرف أنا محتار بين عدة أسماء.. يبدو كأنه خُلق توًّا».

أدور برأسي في الغرفة محاولًا رؤية أمي، يستدرك أبي:

- إنه يبحث عنكِ.

يعيدني أبي إلى أمي، فتضمني أمي إليها وتقول:

- لا تقلق يا عزيزي، سيكون كل شيء دائمًا على ما يرام، أعدك.

يقول أبي: «أظن أنني عرفت ماذا نسميه».

تبخر المشهد فجأة، لأجد نفسي عائمًا في الأثير الأزرق مجددًا، حيث أسقط بهدوء عاري الجذع، فقاعات مضيئة تنساب من رأسي، تنفصل من جسدي كجزء من روحي، أحاول أنا أتمسك بإحدى تلك الفقاعات فتطير مبتعدة ومعها باقي الفقاعات التي انسلت مني، لاحظت أنني لا أذكر ما الذي كان يحصل معي قبل ثوان، فشعرت فجأة بالبرد بداخلي، انكمشت على نفسي كالجنين العائم داخل رحم أمه قبل أن ينسحب وعي مجددًا من ذلك الأثير.

***

في المعمل قال لي سامر: «القفز لمرة رابعة! هذه مخاطرة كبيرة.. هل أنت متأكد منها؟».

قلت بنبرة صوت بين التوسل والحزم: «أرسلني إلى آخر يوم في السنة الماضية مجددًا.. أرجوك».

بدت عليه السعادة حين قلت ذلك، وشرع ينفذ طلبي دون كلمة أخرى، قبل أن أقفز عبر الأزرق مجددًا.

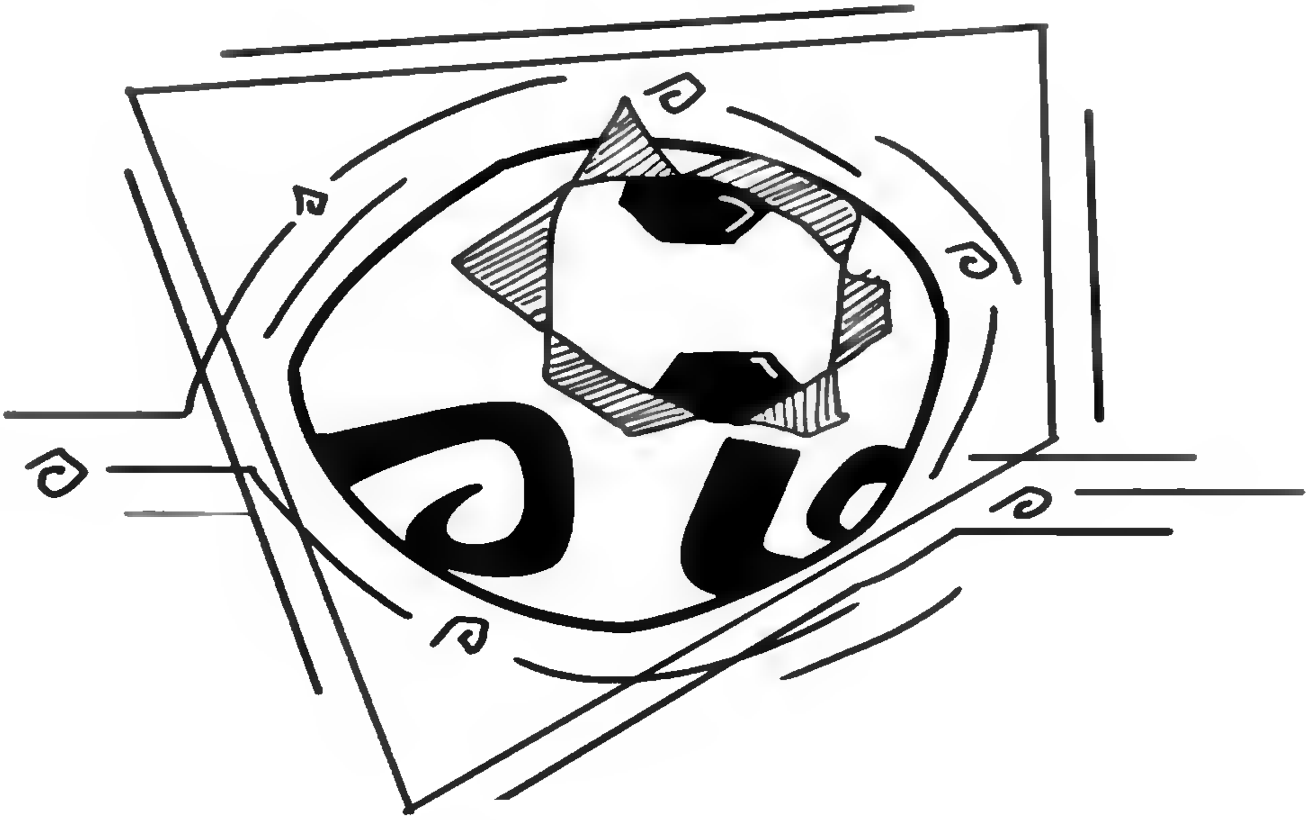

(٥)

٣١ ديسمبر ٢٠٢١- درجة الحرارة ٣٧°

هل كان العالم باهتًا دائمًا هكذا؟ هل كان ساكنًا كما هو الآن؟ ولماذا أصبح الناس من حولي مطموسي الوجوه والملامح؟ هل عقلي يتداعى؟

دارت كل تلك الأسئلة في عقلي بينما أراقب الناس يروحون ويجيئون أمامي أثناء جلوسي على كورنيش النهر، آلية الدفاع في عقلي تخبرني أن كل شيء على ما يرام لكن صوتًا آخر بعيدًا في عمق ذاكرتي يخبرني أنني أحطم.

سمعت رفيف جناحيه فاستدرت أنظر نحوه، كان واقفًا بجواري على الأريكة يوجه منقاره نحوي أقرب من أي مرة، قلت:

- مهما تغيرت الألوان يظل لونك حقيقة ثابتة.

رد: «الأسود والأبيض حقيقتان مطلقتان، وكل الألوان والدرجات بينهما حقائق عائمة يمكن رؤيتها بألف شكل وهيئة وانطباع».

- «تدرك ما يحصل معي وإلى أين وصلت؟»، سألته.

- بشكل ما نعم.

- هل هناك حلول؟

- لا أدري، لكن احذر، قد يفقد المرء نفسه أثناء سعيه لإيجاد الآخرين.

لكز أسفل جناحه كأنما يهرش ثم أردف: «أبيض أو أسود.. الرماديات قتلت الملايين من أمثالك».

ثم حلق بعيدًا.

***

- موافقة.

نفس الجملة لكن ليس نفس الشعور، وكأن مشاعري أضحت أبهت، كما الألوان تمامًا، كنا جالسين في أحد كافيهات وسط البلد التي تبعد عن مكان الحادث الذي حصل قبلًا حوالي كيلو متر مربع، حرصت على ألا يغادر أبي المنزل اليوم وألهيته في صنع وليمة بعد أن ادعيت دعوتي لعدة أصدقاء لتناول العشاء بالمنزل، ثم قابلت حورية واصطحبتها إلى نقطة بعيدة عن مكان الحادث، فكرت في ألا نتقابل إطلاقًا، لكن تلك الفكرة أثبتت فشلها في محاولتي إنقاذ رفيق، ربما من الأفضل أن أقوم أنا بعملية الإنقاذ، فحين أبعدت رفيق عن مكان الحادث نجح الأمر.

وقع اختياري على كافيه على الطراز الأمريكي له واجهة زجاجية تكشف كل تفاصيله الداخلية، كان المكان كلاسيكيًا وجميلًا وكان بلون القهوة، أمكننا أيضًا أن نتنفس عبق القهوة بمجرد أن عبرنا الباب إلى الداخل فأسكرتنا الرائحة، وشعرت بالنشوة، وقفزت إلى عقلي عشرات الذكريات السعيدة المتعلقة بالقهوة، كل تلك الصباحات السعيدة الهادئة، والليالي الهادئة، والصحبة الكريمة، وساعات العمل الطويلة، التي لا يهونها عليّ سوى هربي إلى المطبخ لمدة عشر دقائق لإعداد فنجان قهوة.

بحثنا عن مكان نجلس فيه فصدمنا الزحام، لم نجد سوى تلك الطاولة ذات الكرسيين بجوار الواجهة الزجاجية المطلة على الشارع العمومي، وكأنها تنتظرنا، فنجلس عليها لأستمع إلى قرارها الذي أعرفه مسبقًا.

- موافقة.

لم أبتسم هذا المرة بنفس القدر، وضعت فقط ابتسامة بسيطة على زاوية فمي مجاملة له، لا أدري ما شعرت به تحديدًا، ربما لم أشعر بشيء، لا سعادة ولا امتنان، وكأني لم أدرك يومًا معنى لتلك الأشياء، أرى التعجب باديًا على وجهها من ردة فعلي الباردة، فتسألني إذا كنت بخير،أجيب أنني بخير، ثم أردف: «أنا محظوظ.. لا تعطي الحياة لنا فرصة

ثانية دائمًا».

أُقلب بصري بينها وبين الجالسين فأكاد أهلع، وجوه البشر من حولنا قد طمست ملامحها، أثبت بصري على وجه حورية محاولًا تجاهل ما رأيت تمامًا، أمد يدي لأمسك يدها لعلي أطمئن بها، يظهر عليها القلق فتسألني: «ما لك؟».

الساعة على الحائط تشير إلى السادسة مساءً، أشعر بتوتر يجتاحني فجأة، أبتلع ريقي وأقول: «ربما خائف.. قليلًا».

شيء في الأجواء كان موترًا، لا شيء مطمئن أبدًا في تلك التفاصيل حولي، ترتجف يدها في يدي فأنظر نحوها متسائلًا، فتبتسم ابتسامة باهتة، يختلج معها جفناها، وتقول: «أنا أيضًا.. أحس أنني.. خائفة».

أحدق بها مرتعبًا فأرى الضوء القوي المنعكس من الشارع على وجهها الخائف، يلتف بصري بسرعة نحو الشارع العمومي فأري لجزء من الثانية هذين الكشافين المنحرفين عن المسار متوجهين نحونا كخطفة برق، ارتطام.. تحطم الزجاج.. ثم تنتزع حورية من يدي انتزاعًا، فتتناثر الدماء فوق وجهي، الذي كانت السيارة الطائشة على بُعد سنتيمترات قليلة منه، لا أرى شيئًا، فقط أشعر بدفء الدماء على جسدي وسرعة أنفاسي تكاد تمزق رئتي، حين انقشع الضباب الذي خلَّفه الاصطدام، رأيت يد حورية لا تزال

متشبثة بيدي، لكنها لم تكن متصلة بجسدها! درت برأسي ببطء نحو مقدمة السيارة التي تقبع أمامي الآن والخوف والهلع يخنقاني، رأيت ما تبقى من ذراع حبيبة متصلًا بجسدها قد التوى، بينما باقي جسدها ورأسها الجميل قد تحولا إلى جزء من هيكل السيارة، احتشدت مشاعر مختلفة ومتضاربة قادمة من كل أطرافي داخل قلبي، وخرجت كل تلك المشاعر دفعة واحدة على هيئة صرخة طويلة تعبر عن كل ألم شعرت به مُنذ يوم ولدت، صرخة طويلة إلى الحد الذي سيجعل صداها يتردد في سماء العالم لأيام، ثم هربت بعدها إلى الأزرق.

***

- «لماذا؟ لماذا عليّ أن أراها تموت أمامي للمرة الثانية؟».

كانت تلك هي الكلمات الأولى التي نطقت بها بمجرد عودتي بينما أحدق إلى أرض المعمل.

رد سامر: «هذا يسمى تقارب خطوط الزمن، أو القدر، آسف أن أخبرك بذلك.. لكنه قدرها، مصير تلك الفتاة الموت، مصيرها معلق بحادث السيارة ذلك.. سيتكرر الأمر مهما فعلت».

قلت بحدة معترضًا: «هذا لم يحدث مسبقًا، لا يفترض أن

تموت!».

سحب نفسًا عميقًا ثم زفره وقال: «هذا صحيح.. لكنك عبثت في تفرع الزمن.. حاولت تحسين صحة أبيك وإنقاذ صاحبك وإنقاذ علاقتك بها.. فكان على القدر إعادة تصحيح مساره».

تسألت مندهشًا: «إفساد حياتي مجددًا يعتبر تصحيحًا للمسار؟».

- بشكل ما.. نعم.

رأى نظراتي المستنكرة لكلامه، فقام من مكانه وراح يتمشى في المعمل بينما عيناي تتابعانه، كان يفكر في شيء.. يود قول شيء، لهذا صمت وانتظرت، ولم يتوقف صوت الخطوات إلا حين وقف ليقول: «هناك شيء ربما عليّ إخبارك به رغم أنه لا يجب أن تعرفه، لكنك تخاطر بالكثير هنا.. الوعي الذي يتحدث معك الآن هو وعي سامر من عام ٢٠٣٠م.. السنة التي اخترعت فيها مكثف الوعي بعد عمل دام لأكثر من عشرة أعوام، في الحقيقة ما كنت لأثق في أحد لتجريب شيء كهذا عليه سوى نفسي.. لذلك قفزت إلى عام ٢٠٢٢م.. لأنني في ذلك العام وحين كنت في بدايات عملي على مكثف الوعي عدت لهنا.. للوطن.. للمرة الأولى منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.. وحين عدت وسألت عنك.. عرفت

أنك..» سكت للحظات وكأنما يتعمد أن يوترني ثم استدرك: «أنك قد انتحرت راميًا نفسك في النهر في يوم ١ إبريل».

صعقني ما قال، أظن أنني بالفعل فكرت في الانتحار في وقت من الأوقات لكني لم أتخيل أنني قادر على أخذ الخطوة، شرح لي أنه راح يبحث عن وقائع انتحاري ووصل إلى بعض المعلومات عني، وحين مرت الأعوام وانتهى من اختراع مكثف الوعي كان لا يزال يذكر ما حدث معي، ففكر في العودة إلى تاريخ يسبق انتحاري ليحاول مساعدتي، وأيضًا تجريب نسخة جديدة من جهازه مكثف الوعي، وحين سألته عن لما أنا تحديدًا، ولِمَ يكلف نفسه هنا العودة بالزمن لأجلي قال:

- بدون إهانة يا صديقي.. لم أكن مهتمًا بك تحديدًا.. كان يمكنني إنقاذ أي أحد غيرك لكني أعرفك.. وأعرف أن لديك الدوافع الكافية لقبول آثار القفز بالزمن عليك.. ثم إنني لا أساعدك بقدر مساعدتي لنفسي، النسخة الأولى من مكثف الوعي التي استخدمتها عليّ فشلت في إعادتي إلى حيث كُنت، لذلك أنا الآن في عرف المستقبل ميت، أما النسخة التي قمت بتصنيعها أثناء وجودي في ذلك الزمن وتجريبها عليك فقد نجحت في إرسالك وإعادتك، لكن آثارها السلبية قد ظهرت عليك.

قلت بصوت بلا انفعالات: «إذاً.. كُلما قفزت عبر الزمن ساعدك ذلك أكثر رغم إضراره بي، أنت تحاول دراسة الأضرار للبحث عن طريقة لتجنبها في المستقبل، كما أنك الآن تسبق تاريخ صنعك للنسخة الأولى بثماني سنوات، هنيئًا لك».

عم الصمت بيننا لدقيقة ربما قبل أن أستدرك أنا: «إذًا مصيري هو الانتحار.. يجب أن تدمر حياتي لأنتحر في النهاية، أنت ترمي بي نحو انتحاري، لو لم أنتحر ما كنت عدت إلى هذا الزمن لتجرب علي الجهاز، نحن ندور في حلقة لا يمكن تغيير مسارها.. أليس كذلك؟».

رد : «ليس تمامًا، نحن نستطيع تغيير أماكن القطع، في تفرع زمني ما قد ماتت حورية في صغرها في حادث، لكن في آخر هي حياة، ولكن عبثك في الأمر الآن أدى لموتها في الحادث حين كبرت».

فكرت في أنني محكوم عليّ بالإعدام في كل الأحوال، لكني بدلًا من الموت وحدي أخذت حورية معي، شعرت وقتها كم أن وجودي هو لعنة على من حولي يجب ألا تستمر.

- «هناك ثغرة يمكننا اللعب عليها». استدرك سامر فنجح في جذب انتباهي، ثم تابع: «أخبرتك بكل ما عرفته أنت الآن بعد

أن تأكدت من شيء».

ناولني هاتفي الجوال وطلب مني أن أنظر، تناولته من يده ونظرت إلى شاشته فهالني ما رأيت، عشرات المكالمات من أبي ومن رفيق ورسائل نصية قلقة تتساءل عن مكاني، نظرت إليه غير فاهم أو مدرك فابتسم وقال: «من المفترض أن يكون أبوك ميتًا على الأقل مُنذ شهر، بشكل ما لقد نجحت في استبدال حياة والدك بحياة حورية.. يمكننا تغيير الماضي رغم أنف القدر».

***

٢٥ مارس ٢٠٢١- درجة الحرارة ٣٧°

نزولًا على رغبتي، وافق سامر على أن نخرج من المعمل، واصطحبني إلى البيت، ولدهشتي كان المعمل من الخارج عبارة عن بيت مهجور من طابق واحد على أطراف العاصمة، بينما نتحرك وسط الشوارع في الحاضر الفعلي لي، لاحظت أن الألوان باهتة هنا أيضًا، والوجوه لا تزال مطموسة، واللافتات بيضاء، جعلني هذا أتساءل عن الفرق بين الماضي والحاضر، بين أي نقطة في الزمان والمكان، أظن أنه لا فرق، وكأن هذا الكون كله ما هو إلا رؤيا كاذبة يصيغها وعينا، بينما لا شيء من هذا موجود أو حقيقي، حين وصلت إلي البيت كانت الساعة الحادية عشر مساءً، دخلت إلى الشقة

بهدوء فوجدت أبي جالسًا على كرسيه الخاص بالصالة، شعر بوجودي فقام من مكانه ونظر إليّ بلهفة وفرح، ثم احتضنني بقوة بينما عيناه تترقرقان بالدمع، لم أكن أشعر بشيء، هناك هوة كبيرة فارغة بداخلي، فقط حاولت أن أبتسم، وسألته عن حاله، لم يرد لكنه راح يسأل عن مكاني وحالي وكيف ولماذا ومتى؟ أخبرته أنني سأجيب عن كل هذا فيما بعد، لكني الآن جائع، وكما توقعت توجه نحو المطبخ بسرعة ليعد لي الطعام، لاحظت أن هناك ثنايا جلدية قد زادت تحت عينه من الإرهاق وقلة الطعام، وحين راقبت خطواته المتعثرة أثناء المشي أدركت أنني غبت طويلًا وتدهورت حالته كثيرًا.

بعد نصف ساعة كان قد أعد لي سريعًا بعض المعكرونة المحمرة وأضاف إليها الكمون والفلفل الأسود ومعجون الطماطم، أكلتي البسيطة المفضلة التي يعدها لي حين يكون مستعجلًا أو محتارًا في أمر الغداء، جلسنا نأكل متقابلين دون أن يتكلم منا أحد، وبدا على أبي أن في رأسه ألف سؤال وسؤال ينتظر من إجاباتهم دون أن يضطر لطرحهم.

بعد أن أكلت قمت عن الطاولة وذهب إلى المطبخ، لقمت كوبين بملعقتين من الشاي، ثم غليت الماء وصببته، وضعت الكوبين فوق صينية وخرجت، ناولته كوبه فضمه بين يديه الاثنتين، ثم ما برح ينظر لي وكأنما ينتظر شيئًا، وكما يضع

الفنان اللون البارد في لوحته ليقلل من حدة الألوان الساخنة، قررت أن أقلل من حدة السكوت فسألت: «الشاي جيد؟».

قال بسرعة: «آه.. آه.. جيد».

عدنا إلى سكوتنا لدقيقة أو اثنتين قبل أن أقرر الخوض في الحديث:

- إذًا هل يمكنني أن أسألك عن شيء.. شيء بخصوص أمي

- طبعًا.. اسأل.

أخذت رشفة من كوبي ثم زفرت دفأها قبل أن أقول:

- «ماذا لو كان بيدك استبدال حياتك بحياة أمي.. هل كنت لتفعل؟ أتتخلي عن حياتك لتعيش هي؟».

تعجب في البداية من السؤال الغريب وغير المتوقع في هذا الوقت غير المناسب لذلك سكت قليلًا يفكر قبل أن يجيبني:

- قد أقول نعم.. ليس لأنني مثال للتضحية.. لكن لأن أمك كانت لتكون خيرًا لك مني.. أن تعيش خيرٌ لك من أن أعيش أنا.. لذلك كنت سأوافق على الاستبدال.. لأجلك وليس لأجل أمك.

مشاعر متضاربة انفجرت بداخلي أثناء سماعي لكلماته،

لكني كنت عاجزًا عن إبداء أي مشاعر، وكأن هناك طبقة جليدية تغلفني من الخارج تمنع ذلك، تكلمت دون أي انفعالات واضحة:

- لكن لولا وجودك ما كنت لأقرأ كل ما قرأت، وما كنت عرفت طريق دراسة الفن، لقد كان وجودك مهمًّا.

ابتسم ابتسامة تُظهر مدى إرهاقه ووهنة وتبعها بقوله:

- «يكفيني أن تكون في هذا العالم، سعيدًا دون معاناة، حتى لو كنت بعيدًا عني». ربت على كتفي قبل أن يستدرك: «كما أنني وقتها كنت أستعد للموت بالسرطان، لذلك أجل، كنت سأفعل ذلك دون تردد، سأستبدل حياتي بأي شخص أحبه».

ظهر الألم على ملامح واعتصرت يده كتفي فسألته عن ما يحس، فأخبرني أنه تعب بسيط بسبب الطعام، أزحت كوب الشاي جانبًا وأسندته لأدخله إلى غرفته، وبينما نخطو إلى داخل غرفته وقف وقال: «بشأن الشاي.. حاول في المرة القادمة أن تجعله أخف، كان ثقيلًا».

نجحت بعض المشاعر حينها في الخروج من داخلي مخترقة الغلاف الجليدي فابتسمت بصدق وربت على كتفه ومسحت عليها عدة مرات بيدي، وحين استلقى فوق سريره

قبلت رأسه وقلت: «اشتقت لك»، فرد قائلًا: «وأنا أيضًا».

مسحت على يده بكلتا يدي ثم أطفأت النور وخرجت من الغرفة، وهمست لنفسي: «سأشتاق إليك».

بعد أن تأكدت من نوم أبي نزلت إلى سامر الذي كان لا يزال في انتظاري لأكثر من ساعتين بسيارته أسفل البناية التي أسكن بها، حين رآني سألني إذا ما كان والدي بخير، فرددت:

- «دعك من هذا.. سنعود الآن لنجرب ثانية.. أليس هذا ما تريده؟ لدي فكرة».

ابتسم حين قلت ذلك، وشعرت بخبث العالم ومكره في ابتسامته.

***

(٦)

الأزرق من جديد..

كنت أسقط داخله بشكل أسرع هذه المرة، والفقاعات كالعادة من حولي تصعد في اتجاه معاكس لي، إلا واحدة كبيرة لازمتني، كانت كمرآة تعكس مشهدًا لامرأة تسقط، نظرت نحو تلك المرأة في الفقاعة فنظرت هي الأخرى نحوي، أشرت إليها فأشارت لي، وكأنها مرآة تعكس حركتي، أمعنت النظر فيها فشعرت أنني أعرفها، أسبح في ذلك الأثير محاولًا الوصول لها فتفعل هي الأخرى المثل، وعند قرب معين تبينت ملامحها ومَن هي، أمي!

قربت يدي نحوها بلهفة ففعلت المثل حتى كادت يدها تخرج من الفقاعة، لكن جدارًا غير مرئي منعها، بدت كأنها تطلب المساعدة، بدت كأنها تطلب المساعدة، تحتاجها.. وضعت يدي قبالة يدها فوق سطح الفقاعة، يتقابل وجهانا تمامًا ويبدأ شيء في الحصول، وكأن صوت تسربت عبر الفقاعة إليّ.

«اسمعني يا ولدي.. اتبعني وافتح لي الممر لأساعدك».

يختفي الصوت فجأة فأحاول أن أركز أكثر علني أسمعه، أغلق عيني فتتسرب إلي العديد من المشاهد، أمي تمسح

على شعري بينما تبكي، أراها في مشهد آخر تكلم الفراغ، أراها تحتضنني صغيرًا في سريري بينما أنا نائم، قبل أن تخرج من باب غرفتي إلى الأبد.

أخيرًا يعود الصوت واضحًا من جديد قائلًا: «ابحث عني.. ستجدني دائمًا حولك».

ثم تختفي الفقاعة فجأة يختفي الأزرق.

***

٣١ ديسمبر ٢٠٢١- درجة الحرارة ٣٨°

- «موافقة».

كان هذا أول شيء سمعته حين تمت عملية الانتقال، وكان أول شيء رأيته هو وجهها المبتسم المتورد، نفس المكان، نفس الطاولة، لكن رائحة القهوة، ربما أقول مزعجة، أحاول تذكر سبب حبي المسبق لها فلا أذكر أي أسباب، حتى ألوان المكان، باهتة وكئيبة.

أنظر إلى عقارب الساعة على الحائط فإذا هي تشير للسادسة إلا عشر دقائق.

أبتلع ريقي وأمسك يد حورية قائلًا: «سنرحل من هنا». دون أي شرح، أشدها إلى الخارج كهاربين من دفع الحساب

بينما تقبض يدي على يدها بقوة، أجري باحثًا عن أي زقاق لا يسمح بمرور سيارة لكني لا أرى أي واحد في الجوار، تبدي حورية غضبها من تصرفي وتقول: «قلت لك مئة مرة أنني لا أحب أن أشد من يدي كالبهائم».

قلت لها بنبرة تخلو من أي إنفعالات: «أرجوك اتبعيني.. أشعر بالخطر والتوتر، شيء سيئ سيحصل، اتبعيني فقط وستفهمين، تنظر لي غير فاهمة فلا أعطيها فرصة للتفكير وأتابع الجري بينما تستسلم هي للجري معي، أحرص أثناء جرينا على أن أقابل أنا اتجاه سير السيارات وأن تكون هي خلفي، وأتجنب أن تعبر الشارع، إذا تمكنا من توقع القدر فيمكننا ربما أن نسبقه بخطوة، لكني متأخر، أرسلني في وقت متأخر كالعادة، عليّ التصرف بسرعة، أقرر الدخول إلى إحدى البنايات التي تحيط بي، لكن الأبواب كلها مغلقة! هذا لا يحصل عادة! ولماذا الآن تحديدًا؟

هرج ومرج من حولنا، وأناس يجرون وصوت سيارة شرطة مقبلة على الشارع، يبدو أن هناك ملاحقة من نوع ما، وقت غير مناسب، أنظر إلى الساعة معي فأجدها السادسة إلا دقيقتين، أدور في الشارع بعيني فأجد أخيرًا زقاقًا صغيرًا لم ألاحظه من النظرة الأولى بسبب كشك لبيع المنتجات الجلدية واليدوية يسد مدخله، أشد على يد حورية وأدلف

بسرعة إلى داخل هذا الزقاق، لا أرى بوضوح ملامح الناس من حولي بالشارع، كل الوجوه مطموسة، لكني متأكد أن نظراتهم نحوي أنا وحورية الآن متشككة.

أصوات سيارت الشرطة تنخفض، أنظر حولي فاكتشف أنه ليس زقاقًا، بل حارة تصل بين شارعين، وبها باب عمارة مفتوح، أقف عنده، وأنظر إلى مدخل الحارة فأتأكد أنها لن تسمح بمرور أي سيارات، وأن كل شيء هادئ، الساعة السادسة تمامًا الآن، كان ذلك قبل أن أسمع صوت سيارة الشرطة مجددًا، لكني أسمعه هذه المرة قادمًا من الشارع الآخر الذي تؤدي إليه الحارة، ثم حدث ما لم أكن أتوقعه، دخلت إلى الحارة دراجة نارية يعلوها اثنان من الرجال الملثمين، كانا مذعورين وفاقدين للسيطرة، خفت على حورية فنظرت إليها نظرة أخيرة سريعة قبل أن أدفعها بقوة عبر البوابة إلى داخل البناية، وطلبت منها أن تجري صاعدة إلى الأعلى ثم وقفت أسد مدخل البناية بجسدي، إذا كانت تلك كلمة القدر، فتلك الدراجة اللعينة ستتوجه نحو حورية، ما يعني أنها حتمًا يجب أن تمر بي، بالفعل انحرف مسار الدراجة وأصبح كشافاها مباشرةً في عينيّ، لم أعد أرى شيئًا سوى الأبيض، وتوقف بي الزمن طويلًا عند تلك اللحظة، أو هكذا شعرت.

«لقد حل الظلام على علاقتنا وعلى قلبي.. وأنا لم أعد قادرة على حبك في الظلام».

«آسف لأنني أحببتك طيلة عمرك.. لكنني عجزت عن طمأنتك يومًا».

«أتمنى منك أن تتصل بي حين تسمعها.. فأنا خائف.. ولست على ما يرام».

«أبيض أو أسود.. الرماديات قتلت الملايين من أمثالك».

«لقد كنت مستعدة أن أبادل حياتي بها.. وهذا ما كدت أفعله».

«سأستبدل حياتي بأي شخص أحبه».

شعرت بكل الألم والحزن يتدفقان في لحظة واحدة إلى قلبي، كل تلك المرارة والفقد، موت أمي وفقد حبيبة وأبي وعجز صديقي وخذلانه، أنانيتي وغروري وهروبي وطموحي وخوفي وفشلي وعجزي، كنت أحلق في أثير هذا الوميض وأرى شريط حياتي يمر في لحظات كالسنين أمامي، فأغمضت عيني وفردت ذراعي مستقبلًا الأمر بصدر رحب.

حصل كل شيء بعد ذلك في لمح البصر، الأيادي الرقيقة

تدفعني بعيدًا عن مدخل الباب، سقوطي على الأرض، صوت الارتطام والصرخة، استغرق الأمر مني ثلاثين ثانية أتحسس فيها الأرض وجسدي، قبل أن تعود عيناي للعمل، أفكر قليلًا محاولًا استيعاب ما حدث، أزحف على أربع نحو المدخل الذي تحطم بابه فأرى المشهد، الذراع الملتوي لحورية أسفل جسد الدراجة وبركة الدماء من أسفلها تغدوان أكبر مع مرور كل ثانية، بينما جسدا هذين الوغدين الملثمين قد طارا إلى السلم ورغم أنهما لم يسلما من الحادث إلا أنهما لا يزالان على قيد الحياة، كنت أرى هذا المشهد وعقلي عاجز عن ترجمة كل عناصره وألوانه وأشكاله وموجوداته ومشاعره، لم أبكِ، لم أصرخ، لم تصدر عني أي ردة فعل، لقد تعطلت تلك الآليات داخلي، رحت فقط أراقب رجال الشرطة يحيطون بالمكان بعينين خاويتين، بينما أردد اسمها بصوت خفيض.

«حور.. حورية.. حورية».

بدأت السماء تمطر، فأغرقت زخات المطر الأرض من حولي، ولم تكن كأي أمطار، كانت أمطارًا حمراء اللون! رفعت رأسي ببطء نحو السماء، بينما أنا راكع على الأرض، فدلفت قطرات المطر الأحمر إلى فمي، فكان المطر بطعم الصدأ ومرارة الفقد.

في تلك اللحظة.. تلك اللحظة فقط قررت أنه لا جدوى من

كل هذا، قررت أن أمحو كل شيء.. قررت أن أمحوني.

***

- «تدرك أنك كنت ستموت، أليس كذلك؟».

سمعت تلك الكلمات من سامر وما زالت بقايا الضوء الأزرق في عيني وما زلت أحاول الإلمام بالواقع من حولي فرددت:

- «أعرف.. هذا مصيري على أي حال، لأجل الأمر يستحق إذًا».

- «هل تنوي العودة مجددًا؟».

- «لأرى حورية تموت أمام عيني مجددًا؟».

سكت قليلًا يفكر قبل أن يعرض عليّ العودة إلى نقطة الصفر وإرجاع كل شيء كما كان، لكنني لن أتحمل عيش كل ذلك مرة أخرى، أأعيد إليهم ألمهم لأموت في النهاية بعد أن ألمت كل من حولي؟ لا أعترض على فكرة الموت، لقد بدأت أتقبلها، لكن إذا وجب عليّ الموت، فليكن لموتي قيمة.

- أريد طريقة لتجنب كل هذا الألم.. طريقة ليختفي الشخص الذي هو أنا من حياة كل من أحبوه، أريد أن أمحى من حياتهم.

ابتسم سامر لسماعه كلماتي، فأنا أعطيه فرصة أخرى

لتجريب آثار جهازه على القدر، أو هذا ما ظننت حينها أنه يبتسم بسببه، قال:

- هناك حل، لا يمكنك أن تغير قدرك إلا في حالة تغير التفرع الرئيسي.

نجح في جذب انتباهي، فبدأ يشرح، قال إن قدرك عبارة عن شجرة، عند حدث رئيسي في حياة أي شخص ينقسم جذع تلك الشجرة إلى جذعين أصغر، ما يعني فرعين، ثم عند كل حدث محوري في كل فرع ينقسم ذلك الفرع إلى فرعين آخرين وهكذا، الفروع الصغيرة كثيرة ومتقاربة لذلك يصعب تغييرها، أي حدث يحصل للشخص بعد سن العشرين يكون من الصعب جدًا تغييره، لأن القرارات والأحداث المحورية كلها تكون قبل هذا السن، لكن إذا عدنا لتفرع رئيسي قبل، فرع كبير رئيسي من الفروع التي انفصلت عن جذع شجرة القدر يمكن حينها تغيير واقعك كله.

بعد أن أنهى شرحه ذلك سكتُّ أفكر بتمعن فيما يقول وأفكر في الأحداث المحورية في حياتي، كنت كُلما اقتربت من التفكير في الحدث المهم أبعدني عقلي عن التفكير فيه لثقله على نفسي، لكني في النهاية استسلمت لذكرى هذا الحدث وقلت: «ليلة عيد مولدي الثاني عشر، انتحار أمي».

قال سامر: «محاولة إنقاذ أمك؟ لكن تلك المحاولة قد

تتسبب في عملية استبدال، قد لا يشفى أباك من السرطان، كنت تريد له أن يعيش سعيدًا».

قلت دون أي إنفعالات: «كان سعيدًا حينها، لكنه أصبح تعيسًا بعد أن عاش معي كل تلك السنوات». عدلت وضعي في كرسي مكثف الوعي وأردفت: «إذا اختفى أبي سيختفي وجود حورية ورفيق من حياتي كتسلسل طبيعي للأحداث، سينسونني وسيموت أبي في سلام دون ذنب أو حزن».

تحمس سامر حينها وقال: «دعنا إذًا نقفز بك إلى ذلك اليوم».

استوقفني تذكري لشيء ما فقلت له: «لكن هذا قد يؤثر على مكثف الوعي، إن حدوث كل ذلك يعني عدم قيامنا بكل هذا من الأساس، أبحاثك كلها ستمحى وستنساها.. لماذا قد توافق على شيء كهذا؟».

قال بثقة: «من البداية أعرف أن نجاحك في أي محاولة سيعني أن يمسح السبب في قيامي بتلك التجارب، لكن لدي سببان للموافقة على ما ستفعل، أولًا اختبار تأثير ما ستفعله، لأنها ستكون قفزة مختلفة وواسعة، ربما أوسع قفزة قام بها الجهاز، ثانيًا لدي طريقتي الخاصة في تذكر النتائج، سيبدو ما حدث وكأنه لم يحدث بالنسبة لك وللعالم، لكن ذكريات كل تجاربنا ستبقى مخزنة في مكان ما وسأتمكن من نقلها

إليّ عبر الزمكان بطريقة ما، في النهاية لدي طريقي التي لا تعرف عنها شيء».

بدا واثقًا فيما يقول وعالمًا به فلم أجادله، كان عليّ أن أركز على كيفية مواجهتي لذلك اليوم الذي أنا على وشك القفز إليه، أخذت نفسًا عميقًا بينما رأسي يلتحم مع مكثف الوعي، أدخل سامر الإحداثيات ثم ضغط على الزر وقال مبتسمًا: «وداعًا يا صديقي».

أغمض عيني وركزت على ذكرى يوم الانتحار، قبل أن أنتبه لشيء، لم أخبر سامر بالتاريخ بالضبط، فكيف سينقلني إلى هناك دون أن يعرف التاريخ؟ لكن الأزرق لم يمهلني لحظات أخرى، لقد قطع تساؤلي وأخذني بعيدًا، وبداخله سمعت صوت فيروز في عقلي يقول:

«وجوه الناس صارت ممحيه ذكرى وحنين كأنه امبارح..

في حب الناس الكانو هون لون حياتي».

***

(٧)

محاولتي الأولى لرسم البورترية في غاية السوء، على الأقل بالنسبة لتوقعاتي المرتفعة حينها، إنها الخيبة التي تلحق تخيلك القدرة على عمل شيء بشكل متقن قبل أن تكتشف أنك ما زلت عاجزًا عن نقل خيالك عالي الجودة على الورق، لذا خجلت من أن أريها لمعلم الفنون، بينما أصر هو إصرارًا زحزح خجلي فأريته إياها، سألني:

- هل المرأة التي رسمتها هي أمك؟

لم يقابل معلمي أمي أبدًا، ولا أظن أنه رأى صورتها حتى، كيف أمكنه استنتاج ذلك! هززت رأسي أن نعم، فترحم عليها ثم استدرك:

- يمكنني الشعور بذلك بمجرد النظر إليه، يمكنني الشعور بطيبتها وحنانها وعطفها.

قلت مستاءً: «لا تسخر مني يا أستاذ، أخبرني أنه سيئ فقط وانتهى الأمر».

- لا، لا.. لا أسخر.. هذا حقيقي إنه جيد، والأهم هو أنك تمكنت من نقل روح الشخصية إليّ، لقد تمكنت من نقل شيء ما قد يعجز فنانون كبار من نقله، ألا وهو روح الشخصية.

- وماذا يعني هذا؟

- «أتعرف ما الفرق بين أن تكون رسامًا أو فنانًا؟»، سأل السؤال ونظر إليّ للحظات ثم استدرك بعد أن أيقن عدم وجود أي إجابة لدي: «مهمة الرسام هي النقل الدقيق للأشياء.. بينما الفنان ينقل رؤيته الخاصة للأشياء، يسمح لروح المشهد أو الشخص أن تمر من خلاله ثم ينقل انطباعاته ومشاعره عنها مستخدمًا الخط واللون».

- وما الروح؟

سألته فأخبرني أن روح الشيء هي انطباعنا وذكرياتنا عنه، عن سكونه وفوضويته وشره وطيبته، بحيث لا يحتاج الأمر من المتلقي سوى النظر إلى اللوحة ليستشعر حرارة الشمس التي تلفح العناصر وعرق الفلاح الذي يعزق الأرض، قال أيضًا أنه حين ينظر لبورتريه أو لشخص يتمكن من استشعار طباعه والشعور بسعادته أو بمأساته وكل شيء يتعلق به، ثم أضاف:

- «الفنان لا ينقل كل التفاصيل الخارجية فقط بل الداخلية أيضًا، فلكل منا روح ووعي وأفكار، هذا ما يميزنا عن الحيوان، شكل وعينا يكون نتاج الذكريات والتجارب التي يخزنها ويعالجها، فتتشكل معه روحنا والهالة المحيطة بنا والتي يستشعرها الفنان، لذلك فإن كل تجربة، وكل ذكرى هي

جزء منا ومن أرواحنا لا يجب أن نخاف أو نهرب منه». ثم أشار لرسمي وتابع: «لا تخجل من شيء فعلته، فالخطأ هو الطريقة المُثلى للتعلم وصقل روحك».

***

٤ أكتوبر ٢٠٠٩- درجة الحرارة ٣٧°

مهما حاولت أن أنسى تلك الليلة، تبقى كل صورها وأحداثها قابعة في أعماق روحي كجزء مني، تلك الليلة حين فتحت باب الحمام فرأيت أمي ممددة داخل حوض الاستحمام يتدلى ذراعها من حافته بينما الأزرق يزحف على كل شبر في جسدها، صرختي التي أيقظت أبي، نظرات هلعه وعدم تصديقه، محاولته إبعادي عن هذا المشهد، وصدمتي التي لم أفق منها إلا بعد أيام وأنا مُحمَّل بعقدة من كل ما هو أزرق، ثم كيف بعد ذلك نسيت أو تناسيت، وحاولت التخطي، ها أنا أعود بإرادتي إلى تلك الليلة، لأغير كل شيء.. ولأمحو كل الألم.

- كل سنة وأنت طيب.

تنامى إلى سمعي صوت أبي ضعيفًا متزبزبًا من مكان ما، لكني لم أكن أرى شيئًا، حاولت أن أركز أكثر وأن أفتح عينيّ لأرى.

- كل سنة وأنت طيب يا بني.. هيا انظر هنا.

بدأت الرؤية تتضح قليلًا فكان أول ما استوضحته وجه أبي، وجه أكثر شبابًا من الذي أعرفه، كان يبتسم بمرح ويلوح بيد وبالأخرى يمسك كاميرا رقمية عتيقة الطراز، أشعر بيد حانية رقيقة فوق كتفي فأنظر إلى صاحبتها لأجدها..

- ماما!

أنطق بها متسع العينين فتنظر لي وتبتسم ابتسامة هادئة يتجلى بها أرقها، تشير نحو أبي طالبة مني أن أنظر إلى الكاميرا فأدير رأسي لكن عيني تبقى معلقة بها غير مصدق وجودها بجواري، يأتيني صوت أبي وهو يقول: «سأعد إلى ثلاثة وستكون صورتك سيئة إذا لم تنظر». أدير عيني ببطء تجاه عدسة الكاميرا فألتقط المزيد من التفاصيل في المشهد.

«واحد..»

بيتنا مضاء وملون ومليء بالتفاصيل الجديدة والحية كما لم أره مُنذ.. لا أذكر.

«اثنان..»

أصدقاء أبي وأمي وعمتاي وبعض أفراد العائلة يقفون حولنا مبتسمين مفسحين الطريق للصورة، لكنها ابتسامات دون ملامح، هناك ضبابية ما في المشهد تجعل غالبية ملامحهم مطموسة بالنسبة لي.

«ثلاثة..»

هناك كعكة كبيرة فوق طاولة غرز في سطحها شمعتان تمثلان الرقمين واحد واثنين.. اثني عشر عامًا.

(كليك)

صوت الكاميرا ثم ضوؤها القوي يغطينا للحظات، ويغطي الموجودات قبل أن يعود المشهد لوضوحه، يظهر وجه أبي من خلف الكاميرا، قبل أن يناولها لأحد أصدقائه، ثم يقف بجواري أنا وأمي وينظر إليّ، ثم إلى الكاميرا، كان الأمر بالنسبة لي كحلم قاسٍ، لحظات سعيدة مؤقتة لا أستطيع التمتع بها لإدراكي أن تلك الليلة ستنتهي بكارثة، كليك أخرى.

غنوا.. والتقطوا الصور.. وحاولوا مداعبتي وتسليتي، أحاول أن أستجيب لهم فأستجيب في مرة، وفي مرات أعجز عن الاستجابة لتلك الوجوه ضبابية الملامح، أغلب الوقت كانت عيناي معلقتان بوجه أمي، ذلك الحزن الواضح في عينيها، الرغبة المكبوحة في البكاء، والروح العالقة التي

تطرق مستنجدة من داخل زجاج عينيها، لا يمكن لأحد أن يفهم تلك العيون ويرى ما خلفها سوى من مر بما تمر به، إنها على الحافة، تنظر إلى الهاوية وتفكر في كل لحظة أن تقفز، لكنها تخشى السقوط، وأيضًا تخشى التراجع، لم تعد راغبة في التراجع، تتمنى لو قام أحدهم بدفعها لينتهي الأمر بسرعة، أو أن يجذبها بعيدًا عن الهاوية ويحتضنها.

جذبتها من يدها واستشعرت خاتم جدي ذا الحجر الكريم الأزرق فانتبهت ونظرت لي، قلت مستخدمًا ذلك الصوت الطفولي الذي تصدره حنجرتي: «ماما.. أريدك معي.. بجواري الليلة».

قالت وهي تحاول الابتسام: «أنا معك يا حبيبي.. أشعر فقط بصداع».

كيف لم يلحظ أحد ماسأة تلك المرأة؟ كيف لم تلتقط عيونهم ذلك الصراع والألم داخلها وصدقوا ببساطة أنها بخير؟ قطع أفكاري احتكاك قطة والدتي (ليل) بقدمي، قبل قفزها على حجر أمي لتلتف حول نفسها وتنام، فشرعت أمي تمسح على رأسها، يبدو أن حفلتنا الصاخبة تزعجها.

طلبت من أبي بعدها أن يجذب أمي للمشاركة معنا، منبهًا إياه إلى حالتها السيئة، استجاب لطلبي لكنها لم تستجب لمحاولته بحجة الصداع، غاب أبي بعدها لدقيقة أو اثنتين

ثم عاد بمشغل أغانٍ قديم ووضع به شريطًا، وضغط زر التشغيل، وبدأت مجموعة من أغاني التسعينات وأوائل الألفية تصدح في الشقة، انتبهت أمي للأغاني، ورأت أبي يرددها بينما يقترب منها، استجابت له هذه المرة، أزالت السيدة ليل عن حجرها ثم قامت وتفاعلت وربما حاولت أن تغني، وكذلك فعل المدعوون، وقفت على بعد خطوات منهم أتابع محاولات أبي وردات فعل واستجابات أمي الباهتة، فجعلني هذا وبرغم برود المشاعر في المشهد أشعر بالسعادة لرؤيتي إياهما على هذه الحال.

بعد أن انتهى الحفل وغادر المدعوون دخلت إلى غرفتي التي كانت حينها مجرد غرفة طفل عادي، فوجدت دولابًا صغيرًا أذكر أنني بعته قبل دخولي للجامعة، بنفسجي اللون وبه مرآة تسمح لي برؤية جسدي الصغير بشكل واضح، والوجه المستدير الخالي من أي شعر، والعينان الضيقتان دون نظارات، والشعر الكبير الممشط بعناية الذي أخفي أسفل خصلاته ندبة هاري بوتر الكبيرة التي أصبت بها في الرابعة في جبهتي، وبالطبع ملابس النوم التي كففت عن ارتدائها مُنذ سنوات، فبعد تلك الليلة بعدة أعوام سأعتاد أن أنام بنفس ما أخرج به من ملابس. قربت يدي من المرآة ولمستها وكأني ألمس الذي أراه، ليحدث حينها شيء غريب، لقد بدأت شفافية انعكاسي في المرآة تتغير، تقل حتى يكاد

الانعكاس يختفي ثم تعود للظهور، كان الانعكاس يتصرف كلمبة على وشك الاحتراق، ثم حصل بعدها شيء أثار ذعري أكثر، لقد تكلم انعكاسي في المرآة وقال: «لا تتركني هنا». تراجعت إلى الخلف وكدت أفر هاربًا لولا أن دخلت عليّ أمي حينها، وطلبت مني أن أذهب إلى سريري، حدقت بها للحظات قبل أن أستجمع الموقف وما عليّ فعله، قررت أنني واهم وصعدت إلى سريري وشددت فوقي لحافي الخريفي الخفيف، فدخلت أمي إلى جواري في السرير أسفل اللحاف، ووضعت يدها فوق قلبي، وكأنها تودعني، ثم أغمضت عينيها.

بالطبع لم أنم، كنت أعرف أنها ستقوم في أي لحظة لتقدم على فعلتها، ولن أدعها هذه المرة تفعل، بعد وقت لن أحصيه قامت أمي ببعض الحركات القلقة فوق السرير قبل أن أشعر بها تقوم قاعدة على طرف السرير بينما أنا مستمر في ادعاء النوم، قبل أن تقوم وتتوجه خارجة من باب الغرفة كالمندوهة.

سابقًا حين حدث ذلك، فتحت عيني ورأيتها خارجة أمام عيني لكنني تابعت نومي، هذه المرة لن تكمل أمي طريقها نحو الخارج، فلقد اعترضت طريقها بسرعة محتضنًا قدميها.

- لا تذهبي لأي مكان يا أمي، ابقي معي بالغرفة.

توقفت للحظات، لكنها حاولت متابعة طريقها دون أن تنظر إليّ، كانت نظرات عينيها خاوية، تنظر إلى الفراغ دون أن تسمع أو ترد، احتضنت قدميها بقوة أكبر بواسطة ذراعي وجسدي الصغير وأنا أسترجع عشرات المشاهد في رأسي، يد أمي المتدلية من طرف الحوض، صور عيد ميلادي، لصق رسومي المقطعة، صوتها وهي تخبرني أن كل شيء على ما يرام، أو وهي تحكي لي الحواديت قبل النوم، قلت لها بصوت عالٍ وبنبرة متوسلة:

- ماذا قالت الغرابة الأم لفرخها الأبيض في القصة التي حكيتها لي؟

لم ترد، فأعدت عليها السؤال: «ماذا قالت الغرابة الأم لفرخها؟».

هنا شعرت بارتخاء عضلات قدميها وتوقفها عن المقاومة، ثم تبع ذلك ارتعاش صوتها وهي تقول: «أنا أحبك.. لن أتركك أبدًا يا صغيري».

ثم بدأت تبكي، فأرخيت ذراعي وتراجعت للخلف، جثت على ركبتيها ومدت يدها تحتضنني، احتضنتني لباقي الليل وغطت في نوم عميق ليلتها، بينما لم أستطع النوم، خوفًا من أن تحاول ثانيةً الخروج. مع مطلع الصبح كنت قد غرقت في النوم، وحين استيقظت على وجه أمي المبتسم الصبوح

كنت قد كففت عن التساؤل عن مدى نجاح الأمر، فأنا لم أعد أتذكر ما هو الأمر الذي نجح بالضبط! ثم حل الليل من جديد فنمت، وبدت حياتي بعد ذلك كحلم طويل، انتقال أبي إلى المستشفى.. موته.. عزاؤه.. الدكتور يخبرني أن عندي نوعًا نادرًا من عمى الألوان، المرحلة الإعدادية، انعزالي ووحدتي، الثانوية.. التحاقي بكلية الآداب.. شريط سريع من الأحداث المهمة والأقل أهمية، حياة بسيطة رتيبة خالية من الأصدقاء والأحباء.. لكن آمنة.. هادئة.. كالأزرق.

***

قال رفيق: «هل تظن أن هذا هو التصرف الصحيح؟».

كنا طافيين في ذلك الأثير الأزرق اللانهائي نتحدث، وبدا الأمر كحلم عجيب، قلت: «الأفضل لك.. لكما».

انضمت حورية للحوار وسألت: «هل سيريحك ذلك؟».

استدرت أنظر إليها وقلت: «لا أعرف، ربما».

بدآ يتماهيان في الأزرق، ليختفيا رويدًا رويدًا، أستدرك: «لكن يكفيني أن تكونا أنتما الاثنين بخير.. آمنين في هذا العالم.. لا يهم أن تعيشا بجواري.. المهم أن تعيشا فقط». أبتسم لحورية :»أن تبقى ابتسامتك في هذا العالم«. ثم حولت نظري إلى رفيق أردفت: «القدر دائمًا سيجمعنا».

تبادلنا ابتسامة أخيرة قبل أن يتحول طيفاهما إلى مئات الفقاعات الحاملة لعشرات الذكريات، التي تناثرت في الأثير، وبقيت أنا غارقًا هنا.. وحدي.

***

١ إبريل ٢٠٢١- درجة الحرارة ٢٥°

كم هي جميلة تلك النسمات الباردة، وكم أحب مداعبتها لوجهي وشعري ورائحتها كذلك، آخذ شهيقًا عميقًا ثم أزفر مرتاحًا، أفتح عيني لأرى النهر الأزرق ممتدًا أمامي إلى أن يلتقي بسماء الغروب التي تدرجت بألوان الشمس الدافئة، الأحمر والأصفر والبرتقالي، ويمكن ببعض التدقيق أن تلاحظ ذلك اللون الأخضر المتماهي بين البرتقالي والأزرق، ثم البنفسجي الذي يسبق سواد الليل ويمهد للنجوم الطريق، بديع.. هذه هي الألوان إذن، أحسبني نسيتها أو لم أرها قبلًا، نظرت نحو النهر فأحسست وكأنه يناديني، صوت كالسحر.. كصوت أمي، وكأن أمي تفتح ذراعيها لي، وتطلب مني أن آتي إليها.. إلى الأزرق، لا أعرف شيئًا، أو أذكر شيئًا، وكأن الكون بأسره ليس فيه في تلك اللحظة سواي أنا والسماء والنهر، أضع قدمي فوق حديد السور ثم أصعد فوق حافته دون تردد، أسمع أصواتًا تناديني لكني أتجاهلها، أركز في اللحظة الراهنة فقط على تلك القفزة، أفتح ذراعي وابتسم،

ثم أقفز، وأنساب بهدوء إلى الأسفل، ساقطًا مع شمس الغروب إلى داخل النهر، شعرت أن دهرًا قد مر عليّ قبل أن يغمرني الأزرق، وتبدأ فقاعات الهواء في الخروج من رئتي.

«I sometimes have wondered where you've gone

Story carries on, lonely, lost inside»

***

-٣-

محو أخطائك لن يمكنك من تصحيحها

بل هي طريقة مضمونة لإعادة ارتكابها.

حدوتة ضياء الدين ورحلته لآخر الدنيا

حين كنت في الثامنة وبينما أنا خارج من مدرستي الابتدائية والحيرة جلية فوق وجهي، لاحظت أمي التي كانت تنتظرني في الخارج ذلك فسألتني عن سبب حيرتي فقلت:

أحيانًا أسأل نفسي أسئلة حين أسألها لغيري من أصحابي في الفصل لا يفهمونني أو يسخرون مني.

سألتني عن تلك الأسئلة فترددت قليلًا في البداية لكن وجه أمي المبتسم شجعني فبُحت: «هل ما أحلم به هو الحقيقة أم ما يحصل وأنا مستيقظ؟ هل أنا حقًا أنا أم أنني شخص آخر أحلم بأنني أنا.. أم..»، سكتت قليلًا وقد بدأت أفكاري تتعثر ثم استدركت: «هل تفهمينني؟».

«اممم»، قالت أمي: «كبيرة هي تلك التساؤلات على عقلك الصغير، لكني أفهمك».

قلت: «حقًا؟»، قالت: «نعم.. سنعود الآن إلى البيت وفي المساء قد أحكي لك قصة».

وفي نفس الليلة حكت لي بصوتها العذب أن «كان يا مكان».

«كان هناك في بلاد الشمال ملك حكيم عادل وكان له ابن شجاع وسيم وكان يسمى ضياء الدين، أراد الملك أن يجعل من ضياء الدين خليفة له على العرش إلا أنه رغب في أن يختبره أولًا، فجمع الملك مستشاريه الثلاثة وطلب منهم أن يفكروا في طريقة لاختبار شجاعة ابنه.

قال الأول: «أرسله يبحث عن الحديقة السحرية التي ينمو فيها تفاح الحياة ويعود بواحدة».

قال الثاني: «أرسله يبحث عن خاتم السعادة».

قال الثالث: «أرسله يحضر لك مرآة الحقيقة من قصر الملك مندوزا الواقع في آخر الدنيا».

أعجبت اقترحاتهم الملك فصرفهم وأرسل في طلب ابنه ضياء الدين، وكلفه بأن يحضر له الثلاثة أشياء دفعة واحدة، تفاحة الحياة، وخاتم السعادة، ومرآة الحقيقة.

وافق الأمير ضياء الدين، وقضى الليلة التي تسبق انطلاقه في رحلته تلك نحو آخر الدنيا في حالة أرق وتفكير لا ينقطع في كيفية حصوله على تلك الأغراض الرائعة، وبينما هو غارق في أفكاره لاح له في ركن من أركان غرفته ضوء قوي، خرجت منه جنية صغيرة مضيئة لها جناحا فراشة، فزع الأمير منها فأسرعت الجنية تهدئه قائلة: «لا تخف يا

أميري، أنا ملاكك الحارس وقد جئت لأساعدك فيما أوكل لك من مهمات ثلاث». اطمأن الأمير فأعطته الجنية قلادة فضية جميلة ثم قالت: «ضع تلك القلادة حول عنقك وانطلق في رحلتك، فإذا ما احتجت مساعدة حكّ تلك القلادة ثلاث مرات». وقبل أن يشكرها الأمير اختفت.

في اليوم التالي انطلق الأمير متحمسًا نحو الغابة السحرية ممتطيًا حصانه الأبيض، وكان كلما احتاج أن يعرف أين يسير حكّ القلادة فأخبرته الجنية عن الطريق الصحيح، إلى أن وصل بعد ثلاثة أيام إلى حديقة كبيرة عالية الشجر تحيط بها الأسوار وقف عند بابها ودق ففتح الباب بمجرد أن لمسه، فترك حصانه خارجًا ودخل، بالداخل رأى المئات من أشجار التفاح المصطفة المثمرة والكبيرة فقال له ملاكه الحارس: «خذ تفاحة يا مولاي فتلك هي الغابة المسحورة، وتلك هي تفاحة الحياة».

قطف الأمير تفاحة ذات أوداج حمراء لامعة، فظهرت في الحال عشرات المخلوقات الصغيرة الطائرة الطنانة وبدأت في لسعه، فأسرع الأمير يحكّ تعويذته الفضية طالبًا النجدة، فخرجت الجنية من القلادة وتحولت إلى نمرة سوداء ضخمة، زمجرت في تلك المخلوقات ثم راحت تبطش بما تطال منهم بمخالبها إلى أن تراجعت كل تلك المخلوقات،

فخرج الأمير من الغابة غانمًا على ظهر النمرة السوداء، التي أوصلته إلى حصانه ثم اختفت عائدة إلى القلادة، هكذا اجتاز الأمير الاختبار الأول.

ارتحل الأمير بعدها لثلاثة أيام ثم أراد أن يرتاح في مكان ما، فدلته الجنية على نُزل في طريقه يديره رجل وامرأته، وصل الأمير النزل فأكل وشرب وارتاح وكذلك حصانه وقد رحب به صاحب النزل ترحيبًا شديدًا، وفي الليل وبينما الأمير يوشك أن ينام سمع صوت أحد النزلاء في إحدى الغرف القريبة يئن ويتأوه، فخرج الأمير من غرفته يستطلع أمر صاحب الصوت، فوجده عجوز يلفظ أنفاسه الأخيرة، سمع الأمير صوت ملاكه الحارس، يهمس له: «تفاحة الحياة».

فأخرج التفاحة من جعبته وجعل العجوز يقضم منها قضمة فإذا به يقوم عن السرير فيشتد عوده ويسود شعره وتتورد بشرته ليعود سليمًا، شكر العجوز الذي أضحى شابًا الأمير وقال له: «لقد أنقذتني وأصبح في إمكاني أن أتابع رحلة البحث السرية التي وهبت لها حياتي، لذلك سأعطيك خاتم السعادة الذي تبحث عنه».

تعجب الأمير وسأله: «كيف عرفت أنني أبحث عن خاتم السعادة؟»، رد الرجل: «لقد أخبرني ملاكك الحارس وأرشدني

إلى هنا حتى أقابلك فآخذ قضمة من تفاحة الحياة وأعطيك مقابلها الخاتم». هكذا أنهى الأمير الاختبار الثاني.

في اليوم التالي غادر الأمير النزل ومعه خاتم السعادة، واصل الأمير ترحاله لشهر آخر محمولًا من بلد لبلد حتى وصل إلى ممر ضيق تحيط الصخور بجوانبه وكان يؤدي إلى جبل قاف الذي يقع في آخر الدنيا ويحيط بالأرض، وحين وصل إلى سفح الجبل رأى على قمته قلعة عملاقة، قلعة آخر الدنيا، كانت القلعة تتميز بعشرات الأبراج الزرقاء التي تعلوها نجوم ذهبية عملاقة، وللوصول لها كان على الأمير سلوك طريق صعب ومتعرج وطويل، لكن وكالعادة ساعدته ملاكه الحارس على الوصول للأعلى وحين وصل إلى بوابة القلعة طرق الباب، ففتح له وزير الملك مندوزا الباب وقال للأمير: «إن الملك في انتظارك».

تعجب الأمير، فكيف للملك أن يعرف بقدومه ويستقبله! حين دخل الأمير على الملك مندوزا الجالس على عرشه العاجي المنقوش وجده مهمومًا محزونًا، قال الملك: «مرحبًا بالأمير، لقد رأيت قدومك في مرآة الحقيقة.. وكنت أنتظرك لعلمي أن لديك ما يخلصني مما أنا فيه، فأنا أمتلك تلك القلعة الذهبية عالية الأبراج، وبيوتًا مليئة بالكنوز والمجوهرات، وممتلكات هي الأثمن على الأرض، ورغم ذلك لست سعيدًا».

قال الأمير وهو يخلع خاتم السعادة من يده: «مولاي، جرب هذا وسيمنحك السعادة التي تفتقد».

بمجرد أن لبس الملك الخاتم شعر بالسعادة تجري في جسده وقفز من فوق عرشه فرحًا وقال للأمير: «أشعر بسعادة لم أشعر بها من قبل، اطلب ما تريد تطع»، قال الأمير: «هل لي بمرآة الحقيقة؟».

قال الملك على الفور: «بالطبع». وأقيمت الاحتفالات على شرف الأمير لأسبوع، وحين عاد الأمير إلى مملكة والده كانت مرآة الحقيقة في جرابه، هكذا انتهى الأمير من الاختبار الثالث.

حين وصل الأمير إلى مملكة والده وجدها خالية، كان الجميع قد اختفوا، سأل الأمير مرآة الحقيقة عن حقيقة الأمر فعرف منها أن تنينًا ضخمًا مجنحًا يرهب أهل المملكة، وأنهم جميعًا مختبئون بما فيهم والده الملك، قرر الأمير أن يتصدى لذلك التنين، فرفع سيفه وتوجه نحو مكان تشتغل فيه النيران بفعل التنين، وحين وصل الأمير إلى مكان التنين، ورآه الأخير طار نحوه ليحرقه، فنظر الأمير لمرآة الحقيقة بسرعة ليعرف كيف يهزم هذا التنين فأخبرته المرآة بحقيقة أن التنين ليس سوى فتاة جميلة من أصل نبيل لُعِنت بواسطة سوار سحري يلتف حول معصمها، وأن اللعنة

لن تنفك إلا إذا تحطم السوار، فأسرع الأمير يناور التنين ويهرب من لهيبه ثم استغل فرصة قربه من التنين ورفع سيفه بقوة وشجاعة وانقض على السوار حول قدم التنين فحطمه، فكُسرت اللعنة وعاد التنين إلى سيرته الأولى، فتاة شابة شديدة الجمال أعجب الأمير بها من أول وهلة، وطلب أن يتزوجها فوافقت الفتاة على الفور وعلى الأخص بعد أن عرفت أنه من كسر لعنتها.

نادى الأمير جميع أهل المدينة والقصر أن: «اخرجوا فقد قتلت التنين».

فخرج الجميع بما فيهم والده الملك وحيوا الأمير وفرح الملك بعودة ابنه والعروس التي اختارها -والتي لم يخبر أحدًا بأنها كانت التنين- وسأل الملك ابنه عن تفاحة الحياة وخاتم السعادة ومرآة الحقيقة، فقص عليه ضياء الدين القصة كلها كما قصصتها عليك للتو، ثم أعطاه مرآة الحقيقة فسعد الملك وقال لابنه: «لقد جئتني بأفضل ما يمكن أن يملكه إنسان وهي الحقيقة، فلا معنى للحياة أو السعادة بدون الحقيقة».

أنهت أمي القصة التي ورغم متعتها فإنني لم أفهم المغزى من ورائها، ولم أجد فيها إجابات على تساؤلاتي، ثم استدركت: «من الجيد أن تكون باحثًا عن الحقيقة حتى لو

لم تصل إليها، هذا أفضل من أن تختار الهرب سيكون لك رحلتك الخاصة يومًا ما كالأمير ضياء الدين، رحلة تدرك فيها ماهية السعادة والحياة والحقيقة، وتختبر فيها جدارتك».

سألت بسذاجة: «لكن هل سيكون لي ملاك حارس؟».

قالت وهي تشدني من خدايا بأناملها الرقيقة برفق: «سأكون أنا ملاكك الحارس».

كانت تلك هي المرة الأولى التي يخبرني أحدهم فيها ولو بشكل غير مباشر أنه وللوصول إلى الحقيقة سوف تضطر إلى التضحية بالسعادة أثناء رحلتك، كما أن السعادة والحياة لا يجتمعان عادة حتى في قصص الأطفال.

***

(١)

أنا أسقط.. لا ينفك ذلك الحلم يراودني.. السقوط الهادئ نحو الظلام والفقاعات المضيئة، الاستسلام التام والسكون، ثم أفتح عيني صباحًا فتقابلني ابتسامة أمي الودودة وصوتها يحثني على النهوض، أقوم عن سريري متثائبًا ثم أقف أمام مرآة دولابي لأتأمل وجهي الناعس وشعري المسرح بعناية الذي لم تنجح وسادة سريري في نعكشته، وإلى ملابس النوم القطنية الزرقاء تمامًا ككل شيء آخر أعرفه، يتبع ذلك غسيل وجهي عدة مرات، أغرق وجهي جيدًا بالماء وكأنني أحاول التأكد من أنني مستيقظ بالفعل، ثم غسيل أسناني فالجلوس على طاولة الإفطار جوار أمي وتناول طعامي، تسألني أمي إذا كنت قد نمت جيدًا فأهز رأسي دون أي إنفعالات، أودع أمي ثم أفرك خلف رأس قطتها السوداء العجوز ليل قبل أن أتحرك إلى الكلية.

هكذا كانت حياتي لأكثر من اثني عشر عامًا منذ مات أبي، أعيش مع أمي في شقتنا دون أن نغير أي شيء، تعمل هي من البيت ويتكفل معاش أبي وتأمينه بالباقي، كان لدي مُنذ زمن بعيد ميل إلى مجال الفن والرسم لكن عمى الألوان الذي أصابني وقف حائلًا بيني وبين الفن ودراسته، يقول الأطباء إنه نوع نادر من عمى الألوان يجعلني لا أميز سوى

الأزرق بدرجاته فقط، والأبيض والأسود بالطبع، سمعت أن هناك لوحات ترسم بتلك الطريقة التي تعتمد على لون واحد بدرجاته ويسمى هذا بالمنكروم، لكني بالنسبة لي فكل اللوحات وكل الأشياء كانت مُنكرومية، حتى أنني نسيت كيف كانت باقي الألوان في أيام طفولتي، مثلًا يقولون إن الفراولة حمراء اللون.. لكن بالنسبة لي كانت الفراولة زرقاء دائمًا.

أدرس في كلية الأداب، وإذا سألتني لماذا سأقول إنني لا أعرف على وجه التحديد، ربما لأنني ملت لمجال الأدب في فترة ما من حياتي، وربما لأن مجموع الثانوية العامة لم يعطني الكثير من الخيارات. ليس لدي أي أصدقاء، لا شيء يجعلني ناجحًا في تكوينهم، حتى أن لدي عادة النظر إلى الأرض حينما أتكلم مع الناس، أخشى النظر إلى وجوههم وعيونهم، فكثيرًا ما أجد وجوههم مطموسة أو ضبابية الملامح، ريما يكون الأمر مجرد وهم أو رهاب إجتماعي كما قرأت على الإنترنت، لكني لم أحاول معالجة ذلك، كما أنني أحس مؤخرًا بطبقة من الجليد تغطي قلبي، طبقة تجعلني بارد المشاعر قليل الانفعال غير متفاعل وغير مهتم، أحيانًا أتساءل كيف عشت تلك الحياة، وحين أحاول التذكر، أكتشف أنه لا شيء لدي لأتذكره، وكأن حياتي ليست سوى حلم طويل بدون تفاصيل، لكن مؤخرًا ظهر صوت ما بداخلي

يخبرني أن عليّ أن أخرج من ذلك الحلم.. من هذا العالم.. لكنه صوت خفيض بعيد.

***

حين أكون في البيت تكون أكثر ساعات حياتي مللًا، وكأن حياتي ينقصها الملل، فقط أتناول عشائي مع أمي ثم نجلس لمشاهدة التلفاز أو أدخل إلى غرفتي، بصحبة هاتفي الذكي، في الماضي كنت أقضي كل الوقت برفقة أمي وحكاياتها، لكنها توقفت عن الحكي مُنذ وقت طويل، أضحت ساكتة ساكنة طوال الوقت، تمسك بهاتفها الذكي وتقلب فيه إلى ما لا نهاية، لذلك فلا ملجأ لي سوى الإنترنت، ففيه أجد بعض الإثارة والسلوان، ورغم ساعاتي الطويلة عليه فإنني فشلت حتى في تكوين صدقات افتراضية، ربما لأنني لا أستخدم اسمًا واضحًا، أو ربما لأنني لا أستخدم وسائل التواصل الاجتماعي المعروفة وأكتفي بالإيميلات، لكن وعلى الرغم من انعزالي ماديًا وافتراضيًا أصبح هناك شخص ما يتواصل معي عبر الإيميل في الفترة الأخيرة، امرأة.. لا أعرف سنها أو أي معلومات واضحة عنها، فقط نتبادل الحوار، ترسل رسالة وأرد عليها- هكذا الأمور فقط، حتى تحول الأمر مع الوقت إلى عادة، طقس يومي تعلقت به، أمسى أول شيء أفعله حين أختلي بهاتفي هو البحث عن رسائلها.

أحيانًا أشعر أنني أعرفها مُنذ سنوات، وأحيانًا أشعر أن محادثتنا الأولي كانت البارحة فقط، لدي مشكلة مع الزمن، الأحداث في حياتي متداخلة بشكل كارثي، أظن أن تلك حالة مرضية أخرى ستضاف إلى سجلي المرضي الشيق، لو كانت حياتي تلك رواية، لتشتت أفكار قارئها وهرب تاركًا إياها، كما أريد أنا أيضًا الهرب، لكنها حياتي وليست رواية.

في أحد تلك الأيام التي لا أستطيع تحديد موقعها وسط أيام حياتي المتشابهة بحثت عن صندوق محادثاتي أنا وتلك المرأة التي تسمي نفسها (الملاك الحارس) وبدأت أفصح لها عن بعض أفكاري:

الغراب الأزرق: «بدأت أشعر مؤخرًا بالوحدة أكثر من أي وقت مضى، لم تعد أمي موجودة تقريبًا، ولا شيء ألتهي فيه، حتى الدراسة.. أشعر أنني لا أعرف شيئًا عن أي شيء أدرسه، أصبحت أخشى النظر للكتب كما أخشى النظر للبشر».

قامت على الفور بفتح رسالتي، ثم بدأت في الكتابة، وما هي إلا لحظات ووصلني ما كتبت.

الملاك الحارس: «أتفهمك يا عزيزي.. فأنا أحفظ ذلك الشعور كما أحفظ وجهي».

حين أكلمها فأنا لا أنتظر حلولًا، أنا فقط كنت أريد أن أخبر أي إنسان حي بما يعتمر في صدري، وأظن أنها تهدف في محادثاتنا للمثل، لم تتوقف بعد رسالتها الأخيرة، بل تابعت الكتابة وأرسلت:

«أتعرف.. لقد جربت شيئًا في الفترة الماضية وقد حسن من شهوري.. يمكنك أن تذهب إلى دورة ما.. دورة لتعلم وممارسة أي شيء تهواه».

الغراب الأزرق: «التعامل مع البشر ليس من خططي الحالية».

الملاك الحارس: «أظن أنك كنت مهتمًا بالرسم كما أخبرتني، لذلك أظن أنك ستهتم بهذا».

أرسلت لي صورة هي عبارة عن دعوة لدورة تعلم أساسيات الرسم بالرصاص، ثم استطردت: «هذا يناسبك كليًا ويمكنك أن تتجنب التفاعل إذا أردت.. جرب فالأمر يستحق».

لم تبد لي فكرة سيئة، شيء ما بداخلي انجذب نحو الأمر.. نحو إمساك قلم رصاص وتمريره فوق ورقة بيضاء لصنع شيء، أظن أنه شعور جيد أفتقده.

الغراب الأزرق: «حسنًا.. ربما أذهب.. ربما..».

***

كانت المحاضِرة فتاة، وكما عرفنا منها كانت تدرس في كلية الفنون الجميلة، وككل من ألتقيهم لم أنظر لوجهها مباشرةً، لكن كان لها صوت ارتاحت له أذناي، ما أعجبني في الأمر هو أنها بمجرد أن دخلت إلى المحاضرة رحبت بنا ودخلت في صلب الموضوع دون مقدمات أو محاولات غير ضرورية للتعارف، تكلمت عن الخط، ثم الظل والنور، قبل أن تدعونا لرسم بعض الأشكال الهندسية الصغيرة كتمرين، رسمت أسطوانة معوجة قليلًا ثم مربعًا لا بأس به، لكن حين حاولت أن أرسم دائرة كانت المحاولة في غاية الفشل، أفضل ما استطعت تحقيقه هو رسم ما يقرب في شكله للبيضاء، لكنها بيضاء مهشمة تحمل كتكوتًا مشوهًا على الأرجح، مسحت ثم أعدت الرسم، فشلت ثانيةً فمسحت وأعدت الرسم، حتى تآكل سطح الورقة، لاحظت المُحاضرة ذلك فشعرت بها تقترب مني فأبقيت وجهي منكسًا داخل الورقة ولم أرفعه، حتى بعد أن تناولت قلم الرصاص من يدي ووقفت جاري تتأمل ورقتي، قبل أن تقول:

- هذا خطأ.

انكمشت في كرسي شاعرًا أنه بالفعل كان من الخطأ القدوم إلى هنا لكنها سرعان ما أردفت: «من الخطأ أن تخجل من

رسمك وتستمر في مسحه، إذا أخطأت، قم بتقويم الخطأ». كانت تتكلم بينما تعدل في رسم دائرتي المعاقة حتى جعلتها دائرة متسقة جميلة، وبعد أن انتهت استدركت:

- إذا استمررت في مسح أخطائك وإعادة الرسم ستستمر في تكرار الأخطاء، إبقاء الخطأ قائمًا أمام عينيك سيسهل عليك التعلم منه وتقويمه، أخطاؤك جميلة.. إياك أن تخجل منها، فلولاها ما وصلت لشيء.

شعرت بحكمة قوية فيما قالت وبرغبة قوية في النظر إلى صاحبة تلك الكلمات وهذا الصوت الجاذب، في النظرة الأولى لم أتبين من ملامحها شيئًا، لكن حين أطلت النظر تبينت الابتسامة اللطيفة التي تبرز صفين من الأسنان اللؤلؤية، ونابًا معوجًا في يمين فكها يزين ابتسامتها.

ووجدت نفسي دون أن أشعر أبتسم أيضًا.

(٢)

الملاك الحارس: «ألا تشعر أحيانًا، أن هذا العالم ما هو إلا رؤيا كاذبة؟ مثل المصفوفة، ما ضمانة أن ما تراه حقيقي؟ والأهم، ما الذي يجعل الشيء الحقيقي حقيقيًا؟ كل الحواس يمكن خداعها.

أثار سؤالها انتباهي، ودفعتني لأكتب..

الغراب الأزرق: «أجل.. أجل.. أخيرًا شخص ما غيري يفكر بنفس الطريقة..»، كنت على وشك أن أقول شيئًا بشأني لكني ترددت قليلًا وتوقفت أصابعي، لكني حسمت أمري وتابعت الكتابة. «في كل يوم وبعد أن أستيقظ أغرق وجهي بالماء عدة مرات وكأني أحاول الاستيقاظ من حلم طويل سخيف، وأحيانًا حين أنظر للنهر أفكر في أن الحل الوحيد للاستيقاظ هو بأن ألقي بنفسي في أحضانه».

الملاك الحارس: «ربما عدم رضا المرء عن واقعة هو ما يدفعه للتفكير بتلك الطريقة، ربما لو كنت راضيًا عن واقعك ما غسلت وجهك من الأساس خشية أن تستيقظ».

الغراب الأزرق: «ربما، فالواقع هادئ تمامًا وكئيب، أتعرفين؟ تراودني أحيانًا تلك الأحلام عن عالم صاخب فيه ألوان غير الأزرق، وحكايات كثيرة مليئة بالخيال وناس كثر يلتفون

حولي، لكن حين أستيقظ.. لا أعود قادرًا على تذكر وجوه هؤلاء الناس، ولا الأصوات ولا الألوان، فقط يبقى ذلك الإحساس بأنها كانت هنا، وبأنني قد رأيتها وعشتها».

لم ترد على رسالتي فورًا رغم ظهور علامة الاستلام والقراءة على ركن رسالتي، لقد غابت لدقائق حتى أنني فكرت في أن أتمرن قليلًا على ما درست في محاضرة الرسم الأولى، لكن وقبل أن أنشغل في الرسم وصلتني رسالة منها.

الملاك الحارس: «لماذا لا يكون الحلم هو الحقيقة والعكس؟ ربما إذا قفزت في النهر بالفعل تستيقظ». تأملت تلك الفكرة لدقيقة لكنها قطعت تفكيري بإرسالها رسالة أخرى. «ربما حينها نلتقي».

لم أفهم رسالتها الأخيرة، لكني لم أحب فكرة لقائي بها عمومًا، أفضل تلك الطريقة في التواصل، لم تمهلني هذه المرة الوقت لأرد، فقد انبثقت رسالة أخرى منها داخل صندوق الدردشة:

الملاك الحارس: «إلى أن يحين اللقاء.. سأكون مرشدتك دائمًا».

لم أعرف ما الرد المناسب على كلماتها اللطيفة، فاكتفيت بإيموجي قلب أزرق، لست متأكدًا ما إذا كان أزرق بالفعل،

فكل القلوب عندي زرقاء، أزحت الهاتف جانبًا وسرحت ببصري في ظلام غرفتي الصغيرة فاصطدمت بعينين زرقاوين مشقوقتين وسط الظلام، انتفضت في سريري قبل أن أدرك أن تلكما العينين ليستا سوى عيني ليل قطة أمي المدللة، لذلك لا أحبها أن تدلف إلى غرفتي، كيف من الأساس دخلت دون أن أحس؟

***

محو أخطائك لن يمكنك من تصحيحها، بل هي طريقة مضمونة لإعادة ارتكابها.

ها هي دائرة منبعجة، وها هو القلم الرصاص يدور فوق منها مقومًا خطوطها بخفة لتتحول إلى دائرة تامة الاستدارة، أرفع القلم عن الورقة ثم أنظر لها في سعادة، هل ابتسمت حينها؟ جائز.. شعرت وقتها حتى أنني وللمرة الأولى أود أن أشارك شيئًا فعلته مع العالم.. أو حتى مع شخص واحد أحبه.

- «إنها جيدة.. لقد تطورت كثيرًا في محاضرة واحدة».

أتى الصوت من الفتى الذي يجاورني في المحاضرة فشكرته دون أن أرفع عيني لأنظر إلى وجهه مباشرةً كعادتي، لم يكن تعليقه على الدائرة فقط، بل على مجموعة من

الأشكال الهندسية التي رسمتها بيدي الحرة، وكانت على قدر لا بأس به من الدقة، تكلم الفتى المجاور لي من جديد:

- «أتمنى حقًا لو أمكنني الوصول إلى هذا المستوى، هل تسمح بإلقاء نظرة على رسمي؟».

هززت رأسي وألقيت نظرة مجاملة على رسمه فإذا بها مجموعة لا نهائية من المربعات، وتجاور تلك الأشكال محاولة أو محاولتين فقط لرسم دائرة أقرب لورقة شجر، قال بينما أتأمل هذا:

- «أعرف أنك تتساءل عن كل تلك المربعات، أنا أحب المربعات، كل شيء في الكون يمكن تلخيصه لمربعات، إنها تشعرني بالبساطة والراحة.. غريب أليس كذلك؟».

لقد توقع أنني سأسأل بل وأجاب على السؤال، رغم أنني لم أكن مهتمًا فعلًا، ابتسمت ابتسامة مجاملة وقلت له: «أحسنت صنعًا»، دون أن أحول وجهي إليه.

نفس تلك الجملة (أحسنت صنعًا) حين قيلت لي من طرف معلمة الرسم كان لها على روحي وقع سحري، ولا أفهم لم لتلك الفتاة هذا التأثير عليّ! وللمرة الأولى مُنذ وقت لا أذكره، أشعر بالفضول يحفزني أن أرفع رأسي المنكب حتى أنظر إلى وجهها، فرأيت ابتسامتها اللؤلؤية، ونابها السفلي

المعوج، وقرطا الفراولة الزرقاوين المتدليين من أذنيها.

***

الأصوات من جديد تناديني، وتجذبني نحو النهر، وكأن هذا الشريط العريض من الماء ما هو إلا خط فاصل بين ذلك العالم وعالم آخر خلف حدود ذاك الواقع، أضحت مؤخرًا فكرة وهمية هذا العالم تسيطر على تفكيري بقوة، وعلى الأخص بعد حواري الأخير مع الملاك الحارس.

بينما أنا جالس جوار النهر تحت تلك السماء الغائمة أتامل مجموعة من الغربان تقف متفرقة فوق إحدى الأشجار، أتاني صوت الإشعار من هاتفي، كانت هي، مجرد أن فكرت في سيرة القط طلع ينطّ.

الملاك الحارس: «هل رأيت السماء اليوم؟».

رفعت رأسي أنظر إلى تلك الغيوم التي تحجب ضوء الشمس تمامًا وغراب صغير يحلق تحت تلك الغيوم وفوق النهر متخبطًا لا يلوي على شيء.

ثم عدت إلى صندوق الدردشة لأجيب: «نعم، غائمة».

الملاك الحارس: «إنها ليست غيومًا، إنه الضباب».

الغراب الصغير يقترب من إحدى الأشجار ليحاول أن

يستقر على أحد فروعها.

«سيُبتلع هذا الواقع وستبتلع أنت كذلك، لقد حدث هذا معي مسبقًا».

تطرد باقي الغربان الغراب الصغير عن الشجرة، يحاول أن يستقر فوق شجرة أخرى لكنه يطرد أيضًا بل ويُهاجم بمناقير باقي الغربان حتي ينزف.

أرسل علامتي تعجب بعد أن عجزت عن فهم ما تعنيه بل واستغربته، فكتبت تقول: «سيتوجب عليك أن تخرج من هذا العالم في أسرع وقت، إنه ينهار ويبتلع ببطء كما يحدث فيك».

الغراب الصغير يحلق في السماء متخبطًا غير فاهم لمَ يتم طرده من كل شجيرة يحاول أن يطأ فروعها.

الملاك الحارس: «يجب أن تتبعني وتثق بي».

يئس الغراب من أن يجد له مستقرًا فوق الأشجار فوقف فوق السور الحديدي للكورنيش، لينزف دماءه الزرقاء فوقه.

الغراب الأزرق: «لا أفهم ما تقولينه، أي ضباب وأي عالم سيبتلع؟ وما لي أنا بما تقولينه؟ وهل إذا كان العالم سيختفي، هل سأكون أنا الوحيد الذي يمنع ذلك أو يهرب

منه!».

يدير الغراب منقاره إلى يساره فتتقابل عينه الداكنة على جانب رأسه من جهة اليسار بعيني.

الملاك الحارس: «لأنك صانع هذا العالم بما يحصل فيه، لذلك يمكنك أن تهرب منه».

- «اتبع فقط النداء بداخلك وستصحو».

مَن تكلم؟ من أين أتى هذا الصوت؟ لا أحد على مسافة أمتار مني سوى ذلك الغراب فوق السور! نظرت إلى الغراب متأملًا إياه للحظات فعاد برأسه إلى الأمام نحو النهرمتجاهلًا نظراتي، ثم فرد جناحيه الأسودين كالليل، وقفز، لم يحلق كما يفترض، بل سقط! هرعت إلى السور لأنظر نحو موضع السقوط فلم يكن له أثر، لقد ابتلعته زرقة النهر.

***

- أنا آسف جدًا جدًا.

كانت تلك هي الكلمات التي حاول بها أحد الشباب في الجامعة الاعتذار بها بعد أن صدمتني كرته أثناء جلوسي في الحرم الجامعي، تناولت الكرة عن الأرض وأعطيتها له دون أن أنظر لوجهه بالطبع وقلت: «حصل خير».

أخذ الشباب الكرة ولم يرحل، بل ظل واقفًا أمامي للحظات وكأنه يتأملني، قبل أن يقول فجأة: «أنت! الشاب الذي يجاورني في دورة الرسم».

توترت، ثم حاولت أن أرسم على وجهي ابتسامة لأبدو لطيفًا، رغم أنني لم أكن مرحبًا بتبادل حوار معه، قلت: «نعم، أذكرك بالطبع».

قال: «أرى أنك هنا وحدك!».

- نعم، كما تعرف، هذا مريح أحيانًا.

- نعم، أفهمك نوعًا، كنت أحب الوحدة أيضًا حين كنت صغيرًا، وكنت أحب الكرة والرسم كما أحسب أنك خمنت.

ثرثار، لم أكن مهتمًا بمعرفة أي من تلك التفاصيل، كل ما رغبت فيه حينها أن يأخذ كرته ويرحل تاركًا إياي في وحدتي، قلت:

- جيد، دعنا نلتقي قريبًا في الدورة.

هممت بالمغادرة لكنه وقف في طريقي والكرة في يده وقال بصوت متحمس بلا داعٍ: «انتظر، لم لا تنضم إلينا؟ نحن خمسة وينقصنا واحد لنلعب كفريقين».

همست ببعض الكلمات المعتذرة، لكنه تجاهلها تمامًا ورفع

صوته وصاح: «لدينا شخص إضافي سيلعب».

كان يكلم مجموعة من الشباب الواقفين بالقرب منا، فأشار هؤلاء الشباب بإشارات مرحبة لي، وددت حينها أن تنشق الأرض وتبتلعني، وتعرقت من شدة التوتر، كان الموقف محرجًا، وحاولت أن أبدو ودودًا ففشلت تمامًا في ذلك.

اضطررت في النهاية أن أنضم إليهم غصبًا فعرفني الشاب الثرثار على صديق طفولته نوح، ثم الشباب الثلاثة تباعًا، قسمنا بعدها إلى فريقين، وكنت أنا في فريق الشاب الثرثار وصديقه، لعبنا متبادلين أدوار الهجوم والدفاع والحراسة، ولم أكن ألعب في البداية بذرة حماس، لقد تذكرت الآن لم لا أحب تلك اللعبة، أنا فاشل في الأمر، وتعمدت أن أظهر ذلك لهم حتى أنني كلفتهم نقاطًا عدة عسى أن يرفع هذا حرج طردي عنهم، لكن بدلًا من ذلك استمر الشاب الثرثار في تشجيعي مبتسمًا والتصرف بمرح، لم يُظهر أي إحباط مني، حين لعبت حارسًا للمرمى وتخطتني الكرة إلى الشبكة قال: «قفزة جيدة، ستصدها في المرة القادمة». أنا فاشل في لعب الكرة، وحين لعبت مهاجمًا وأخذت مني الكرة قطعها وأعادها لي مخاطرًا بأن تؤخذ مني، جعلني تصرفه هذا أود لو أحقق له أي مكسب، أود أن أجعله سعيدًا، سددت الكرة نحو المرمى بسن حذائي فطارت بعيدًا ولم تدخل، راقبتها

تبتعد محبطًا فأتاني صوته من خلفي يقول: «كانت قريبة، أحسنت».

تابعت اللعب بعدها بملء إرادتي، ووجدتني وللمرة الأولى مُنذ لا أتذكر متى، أستمتع بوقتي، وأشعر بالحماس يلهب جسدي، حتى أن الجليد فوق قلبي قد تصدع.

حين تأخر الوقت وأنهكنا اللعب جلسنا على الأرض في انتظار أن يأتي أمن الجامعة لطردنا، رفعت وجهي إلى السماء فرأيت شقًّا وسط كتلة الغيوم التي تغطي السماء منذ أيام، شق سمح بمرور ضوء الشمس الراحلة نحو الغرب ليلامس وجوهنا والكرة القديمة التي بين يدي، كرة قديمة مخروقة تم تعبئتها من الداخل بكرة بلاستيكية منفوخة، كانت تلك الكرة مثيرة للاهتمام بالنسبة لي، فليس من العادي أن يلعب مجموعة من الشباب الجامعي بكرة كتلك، ويبدو أن الفتى الثرثار قد لاحظ نظراتي لها.

- غريب أليس كذلك؟ تبدو كرة صالحة لمباريات الشوارع أكثر من صلاحيتها لملعب الجامعة.

ابتسمت بخجل شاعرًا أنه قد قرأ أفكاري بينما أنظر لها ولم أعقب، فاستدرك:

- أحب أن ألعب بها فهي تذكرني بصداقتي أنا ونوح، رغم

أنها كرة قوية لكن ممزقة، وبرغم أن الكرة البلاستيكية داخلها ضعيفة إلا أنها تدعم الكرة القوية من الداخل وتحافظ على تماسكها من الخارج، تمامًا كالأصدقاء.

أثار حديثه اهتمامي فاستدرت بوجهي نحوه فتابع:

- كنت أحب الوحدة والكرة والرسم، لكني تركت الوحدة والرسم حين قابلت نوحًا، كان ما جمعنا هو لعب الكرة، لذلك تابعنا اللعب معًا كلاعبين في أحد النوادي الصغيرة التي لا تعرفها بكل تأكيد، هذا يجعلني أفكر.. لو كان ما جمعني به هو الرسم، هل كنت سأصبح الآن فنانًا كبيرًا؟ لا أظن، فأنا لم أصبح لاعبًا مشهورًا.

أردت بشدة أن أنظر إلى وجهها، رفعت عيني فالتقيت بعينيه اللامعتين وابتسامته المضيئة الواسعة، ووجهه المرح الذي تحددها لحية وتعلوه صلعة لمعت تحت الضوء، بادلته الابتسام وسألت باهتمام حقيقي: «ذكرني باسمك».

قال: «اسمي رفيق، محمد رفيق، وأنت؟».

شل لساني وتجمد بينما أبحث داخل عقلي عن المعلومة، كل أبواب عقلي خالية، لا إجابة على سؤاله، مهما بحثت وبحثت، وبعد مدة من البحث، صعقني إدراك أنني لا أذكر اسمي، بل أشعر وكأنني قد ولدت بدون اسم!

***

حالة صدمة سيطرت عليّ لباقي اليوم، حاولت أن أتذكر أي موقف ذكرت فيه اسمي أو كتبته فلم أجد، حين وصلت بيتي بحثت عن أمي أسألها الإجابة، وجدتها جالسة على كرسيها، سألتها عن اسمي فلن تجب، كانت صامتة تنظر للخواء بينما جسدها كله ثابت لا يتحرك منه سوى يدها التي تمسح فوق فراء ليل، لاحظت أيضًا أن لونها أمسى أكثر زرقة مما تعودت عليه وأكثر شحوبًا وصارت أنحف، وكأنها تتحول تدريجيًا لجثة!

«ماما!».

لا ترد، تجاهلت نداءاتي كلها وأخيرًا تركتني ومضت إلى غرفتها، أشعر بالبرد، الجليد فوق قلبي يلتحم، بعثت برسالة لصديقتي الملاك الحارس أحكي فيها عما أمر به فردت بسرعة: «هذا متوقع، إن الضباب يبتلع كل شيء بسرعة، لن يعطيك الفرصة للتعافي».

أغضبني ما تقول فكتبت: «هل هذا وقت هذا الهراء؟ الأمر جدي جدًا ويمسني، هل أخبرتك باسمي قبلًا؟».

ردت: «إذا أرسلته لك لن تراه، لن يسمح بذلك».

الغراب الأزرق: «من الذي لن يسمح؟ أرجوكي وضّحي».

الملاك الحارس: «يجب أن تخرج من هذا في أسرع وقت».

تشوشت شاشة الهاتف بعدها ثم اختفى الملاك الحارس فجأة، واختفت معه كل الرسائل التي تبادلناها، وكأنها محيت من الوجود، وضعت الهاتف جانبًا غير فاهم لما يحصل، دخل إلى غرفتي وجلست فوق سرير لدقائق طويلة أفكر في كل هذه العيشة الزرقاء التي أعيشها، بينما احتضنت قدميّ محاولًا تخفيف شعوري بالبرد، كانت مرآة الدولاب تعكس صورتي، فأمكنني بسهولة أن أرى إلى أي مدى صار انعكاسي شفافًا، وكأنني أختفي من هذا العالم، أغلقت عيني متفاديًا النظر إلى المرآة، فشعرت بشيء ما يدلف للغرفة، كانت القطة العجوز ليل، تحمل في فمها كيسًا من المعكرونة متوسطة الحجم! تعجبت لثوان من الأمر، لكن معدتي أصدرت صوتًا ذكرني بمدى جوعي، ربما يساعد الطعام في تدفئتي، قمت وأخذت الكيس من بين فكيها فتركته لي، شعرت وكأنها تدرك جوعي وأحضرته لي خصيصًا، دخلت المطبخ وأحضرت حلة صغيرة وضعت فيها بعض الزيت لأبدأ في إعداد بعض المعكرونة المحمرة، قلبت المعكرونة في الزيت ووضعت الصلصة ثم البهارات ثم الماء كل في وقته، وحين نضجت، رفعت الحلة عن النار وجلست آكل منها فوق أرض المطبخ بينما غفت ليل بجواري، حين نزلت المعكرونة إلى

معدتي شعرت بالدفء، ليس دفء الشبع، بل أظنه دفء ذكرى أبي، وقفزت إلى عقلي صور له وذكريات لا أتذكر أنني عشتها معه، حتى أنني رأيت في عقلي صورًا له وهو أكبر من السن التي مات فيها، وبدون أن أشعر بدأت الدموع تنحدر فوق خديّ وأنا آكل.

بعد أن امتلأت معدتي تسطحت على سريري ليلتها ونمت بسلام متناسيًا كل ما حدث وكل همومي.

***

ذهبت إلى محاضرة الرسم متأخرًا بسبب استغراقي في النوم، حين طرقت الباب ودخلت رحبت بي المُحاضرة وأشارت لي كي أجلس، كل الوجوه كالعادة بلا ملامح عدا وجهه هو، الوجه المألوف الوحيد، رفيق، جلست بجواره فرحب بي وهو يبتسم بود وأشار إلى أنه لم يعرف اسمي حتى الآن، ادعيت حينها أنني أريد التركيز في المحاضرة حتى أتملص من هذا السؤال، اقتضى عملنا اليوم أن نرسم التكوين المرصوص أمامنا بأقلام الرصاص، فشرعت أفعل، لاحظت تطورًا في مستواي وشعرت بيدي وكأن لها وعيها الخاص، وكأن لديها ذاكرة مسبقة عما ترسم، كانت الخطوط تنساب مني وتسافر بي إلى عالم خلف هذا العالم، قطع رسمي وأفكاري تلك تعليق من المُحاضِرة على عملي، أثنت

على خطوطي وكتلي فشعرت بالغبطة وشكرتها بينما أنظر إلى وجهها مباشرةً، للمرة الأولى تتعلق نظراتي بوجه أحد، لم تغب عني طوال المحاضرة حتى بعد أن انتهينا، لا إراديًا تتبعتها بنظراتي، ولم أهتم بوجود رفيق بجواري، كانت تقف برفقة بعض الفتيات اللآتي كن معنا على ما أظن، تجيب أسئلتهم بينما تبتسم تارة وتستغرق في الشرح تارة أخرى، النظر إليها فقط يشعرني بالدفء، دفء يذيب الجليد حول قلبي ويتسلل إلى الموجودات من حولي فيشعرني بالأزرق ينسحب من حولي. ودعت الفتيات قبل أن تنسحب من بينهن لتعبر الطريق إلى الجهة الأخرى، سمعنا صوت عجلات تصرخ إثر احتكاكها بالطريق، نظرت تجاه الصوت فرأيت سيارة خارجة عن السيطرة، المحاضرة تتجمد في مكانها، أحاول أن أتحرك لكني أتردد وأشعر بالشلل، تحاول هي أن تهرب لكنها تتعثر فتسقط، السيارة تقترب، كان كل هذا يحصل في لحظات لكنها بالنسبة لي مرت ببطء شديد، لست أتوهم، أشعر أن أحدًا قد بطّأ المشهد ليجعلني أشاهد تفاصيله، المُحاضرة تمد يدها مستنجدة وصارخة، السيارة تنحرف بحدة وتتوجه بجانبها نحو المحاضرة، تنقلب في الهواء ثم يتسارع الزمن فجأة لأرى السيارة تسقط بظهرها فوق جسد المحاضرة، التحم الجسدان فتهشم الحديد والزجاج وأيضًا العظام، لم يبقَ أي شيء سليم سوى ذراعها

التي كانت ترفعها مستنجدة يظهر من أسفل هيكل السيارة، البرد.. أشعر ببرد شديد، أشعر وكأن العالم تهشم مثل زجاج تلك السيارة، أحس بالألم في رأسي، وقعت على الأرض منكمشًا على نفسي كالأطفال، الألم في رأسي يزداد قوة، فيولد عندي رغبة في الصراخ، فصرخت.

الشمس اختفت وبدأت الأمطار تهطل بقوة، الحادثة تتكرر في رأسي بألف شكل وطريقة، وحين تعبت من الصراخ، فقدت الإحساس بالعالم كله.

***

(٣)

أسمعكم بوضوح، لكني لا أفهمكم، لا أفهم ما تتمتمون به، من أنتم؟ من أنا؟ أين أنا؟ وما هذا الأثير اللانهائي الذي أطفو فيه؟

«بني!».

أمي، أسمعك يا أمي، أين أنت؟

رأيتها تطفو مثلي في الهواء، جسدها يضيء كملاك، تمد يدها لي، لكن لا أستطيع أن أمد يدي أنا، كنت مقيد الحركة بواسطة شيء ما خفي، ما حدث بعد ذلك كان غريبًا، لقد أخرجت أمي لسانها واقتربت من وجهي، ثم بدأت في لعقه!

شعور لزج، أفتح عيني ببطء لأجد أنني مستلقٍ على الأرض في الشارع بينما تقف قطة فوق صدري تلعق وجهي، أقيم جسدي مفزوعًا فتقفز القطة من فوقي، أمعن النظر إلى العينين الزرقاوين والفراء الأسود فأتعرف عليها.. ليل قطة أمي! كيف أتت إلى هنا؟ أنظر حولي فأرى الشارع خاليًا تقريبًا، اللهم إلا من بعض البشر الذين تجمدوا في أماكنهم، أرى السيارة المقلوبة واليد أسفلها فأتذكر كل ما حدث، المحاضرة والحادث وصراخي.

«ليس لدينا وقت.. علينا الهرب بك».

تلك الكلمات التي خرجت من بين أنياب القطة ليل أفزعتني أكثر بكثير مما أفزعني تذكر الحادثة، حملقت فيها فاستدركت: «الضباب تكثّف، إذا لم نهرب من هنا سوف يتم محوك مع هذا العالم».

هذا حلم بالتأكيد، أنا أحلم الآن، سمعت صوت شيء يتهدم في الشارع فنظرت لأرى مبنى سكنيًا كاملًا يغطس في الأرض، ورأيت باقي البشر يختفون من الشارع، ولاحظت ذلك الضباب الكثيف الذي يزحف على الشارع ويلف العمائر، وغيومًا كثيفة تحجب أي ضوء.

قالت ليل: «إذا كنت تعتقد أنك تحلم، فعليك أن تجاريني في هذا الحلم، وإلا سيبتلعك الضباب».

كان الضباب يأتي على كل ما في طريقه، ولم أكن لأود أن أجرب شعور أن يبتلعني حتى لو كان حلمًا، فحتى في الأحلام تبقى غريزة البقاء داخلنا يقظة، جرت ليل فلحقت بها خلال الشارع، كانت سريعة رغم كونها قطة عجوزًا، وكنت بطيء الحركة رغم كوني شابًا، لكن كرشي يعجزني عن التحرك بسلاسة، وكان الضباب أسرع منا معًا، قفزت ليل داخل إحدى السيارات المركونة على جانب الطريق وأمرتني أن أركب ففعلت، أمرتني أن أقود فأخبرتها أنني لا أعرف القيادة، قالت:

- أعرف.. استخدم معلوماتك القليلة عن الأمر وستتحرك السيارة حسب رغبتك لا تقلق.

وجدت مفتاحًا في السيارة فأدرته، ووجدت دواسة بنزين فدهستها، ثم عجلة قيادة فأمسكتها، وتحركت بالسيارة هاربًا من الضباب، كانت قيادتي كالمجانين، تنحرف السيارة يمينًا وشمالًا، كان هذا مفزعًا، لكن انعكاس الضباب الذي يأكل كل شيء خلفي على المرآة كان أشد إفزاعًا، يا إلهي هل اختفى انعكاسي في مرآة السيارة تمامًا أم أن هذا من شدة الفزع؟

ماءت ليل من التوتر والقلق أثناء نظرها للخلف وقالت: «قُد بنا إلى النيل، ادخل إلى الشارع القادم يمينًا».

أدرت عجلة القيادة بحدة فاعتليت رصيف الشارع، كنت أخترق وأدهس أي شيء يقف في طريقي، كنت متوترًا وزاد توتري ما لاحظت أنه يحدث للسيارة، لقد اختفت عجلة القيادة، ثم تبع ذلك اختفاء السيارة كلها من حولي، فانكفأت على وجهي فوق الأرض بفعل القصور الذاتي، بينما تعاملت ليل مع هذا برشاقة، شعرت بألم في كل جزء من جسدي، ألمٌ جعلني أود البكاء، رفعت وجهي المنكس في الأرض قليلًا وفتحت عينيّ وأنا أتأوه، فرأيت كل السيارات من حولي في الشارع تختفي، حثتني ليل على الإسراع في النهوض، لكن لم يمهلني ذلك الكابوس، فلقد خرج علينا من كل حدب

وصوب بشر بلا ملامح يمشون ببطء كالزومبي، يحاولون الإحاطة بنا، تحفزت ليل فسألتها: «هل من حل؟ ذلك الضباب قريب جدًا ونحن محاصرون».

لم تجبني فورًا فتوترت ووجدتني أقول: «يا إلهي أتمنى لو...».

أوقفني عن إكمال عبارتي خربشتها لي في ذراعي فآلمني الأمر، ونظرت تجاهه غاضبًا مستغربًا فصرخت في وجهي: «إياك أن تتمنى أي شيء، هذا ما يريدك أن تفعله».

أعمدة الإنارة والمباني والعربات من حولنا تُبتلع أو تختفي، بينما تلك الأجساد الهائمة من حولنا في ازدياد، قالت ليل:

- يمكنك أن تخرجنا من هنا، هناك طريقة، هذا العالم صُنع بواسطة رغبتك وتصوراتك، هذا يعني أن تصوراتك المختلفة يمكن تسريبها داخل برمجته، إن جدران هذا العالم في أضعف أحوالها الآن بسبب كل ما يحدث فيه، وهذا يسهل الأمر.

لم أفهم منها شيئًا كما لا أفهم أي شيء مما يحدث، فغرت فمي ببلاهة فقالت ضاغطة على كلماتها:

- أرجوك ركز، شغل خيالك، تذكر ما تريده أن يحدث، تذكر حكاية قرأتها قد تخرجنا من هنا على سبيل المثال.

كنت متوترًا ولا أعرف فيم أفكر أو ما الحل الذي قد امتلكه، فكرت فقط لو أمكنني أن أبتعد عن كل هذا محلقًا في السماء، ما حصل بعد ذلك كان مخيفًا، لقد ارتفعت قدماي عن الأرض، وأحسست بشي يشدني من ملابسي لأعلى، نظرت، فإذا بها مخالب سوداء ترفعني عن الأرض وتتشبث بها ليل، نظرت إلى أعلى فرأيت طائرًا أو ربما رجلًا، لا بل هو مزيج من رجل وطائر، كان بجسد بشري لكنه مجنح ويغطيه الريش وله رأس بمنقار ومخالب طائر جارح بدلًا من الأقدام، وذكرني شكل هذا المخلوق الغريب المخيف بحكاية ما سمعتها ولا أذكر اسمها، فرد الرجل المجنح جناحيه وشق بهما الهواء، كنت خائفًا من مصيري المعلق في الهواء بين مخالب هذا الطائر ونظرت نحو القطة ليل فرأيت في عينيها الواسعتين سعادة وطمأنينة غريبة فخمنت أن هذا الشيء جاء لنجدتنا، العالم في الأسفل عبارة عن كابوس، كل شيء يختفي رويدًا رويدًا أو يغرق قبل أن يبتلعه الضباب، رأيت أيضًا أنه لا يزحف من جهة واحدة، إنه قادم من كل الاتجاهات، يبدو كأنه ابتلع العالم كله ولم يبقَ سوى عدة كيلومترات من بينها ذلك الجزء من النهر الذي نحلق تجاهه الآن، يبدو أن الأمر ينتهي بالقفز في النهر، ربما حينها أهرب من هذا كله، ربما أستيقظ وأجد الحقيقة خلف هذا العالم أو هذا الكابوس.

الضباب أسفلنا يرتفع، بل وبدأ يخرج من بين الغيوم فوقنا، طفقت السماء تمطر بغزارة فجأة، ثم ضربت صاعقة برق الرجل المجنح فأصيب جناحه وتخبط في الهواء، بينما نحن نحاول التمسك بمخالبه حتى لا نسقط، مدت أذرع من الضباب خرجت من السماء نحونا، وقبضت على الرجل المجنح فجذبته إلى السماء وابتلعته كما يقتنص لسان الضفدع الحشرات، لكن وقبل أن يحدث هذا أفلتنا الرجل فسقطنا من ارتفاع شديد العلو، نعم تلك هي اللحظة التي سأستيقظ فيها، إذا لم أستيقظ الآن سأتهشم لألف قطعة، أغمضت عيني وانتظرت الإفاقة، سمعت صوتًا داخل عقلي يقول: «تمنى فقط أن تخرج من هنا».

أسمع صوت ليل وهي تسقط معي تقول: «احذر من تمني أي شيء، لا تدعه يشعرك باضطرارك لذلك، ثق بملاكك الحارس يا أميري».

سمعت فجأة صوت زئير وزمجرة من حولي، ففتحت عيني لألمح شيئًا سريعًا أسود يقفز بين المباني حولي كالنينجا في الأفلام، ثم قفز هذا الشيء نحوي فرأيت فك نمر يُفتح ويقبض على ملابسي، ليحملني بعد ذلك ويوصلني إلى الأرض بأمان، حين أفلتني الفك ونظرت لصاحبه وجدت أمامي نمرًا أسود ضخمًا خرج من الحكايات القديمة، ومع

بعض التركيز عرفت أن هذا النمر ما هو إلا ليل! قالت:

- سيكلفني هذا التحول الكثير، نحن على بعد خطوات من كوبري قصر النيل.

لقد كان ما يحدث جنونيًا بكل المقاييس، لكنه جنون ممتع، جرينا نحو النيل بسرعة قبل أن يلحقنا الضباب حتى أصبحنا أمام الكوبري المار من فوق النيل، وكانت أمي تقف في مدخله لتسد الطريق! لكنها كانت أكثر زرقة وشحوبًا، كانت كجثة.

هزَّت ليل ثم قالت: «هذا ليست أمك، إنها جزء من ذلك الكابوس».

قالت أمي الواقفة أمامنا: «لا تستمع لتلك المفترسة، إنها تذهب بك إلى حتفك، يمكن تصحيح كل هذا، لديك فرصة للعودة بالزمن و...».

قالت ليل: «كفى خداعًا، إياك أن تنجرف خلفها».

نظرت إلى أمي دون تعبير واضح على وجهي، حتى في عقلي لم أكن أملك أي فكرة عما يجب أن أفعل، تسرب إلى عقلي حينها مشهد ذراعٍ زرقاء يتدلى من حوض استحمام، يشبه تمامًا تلك الذراع الشاحبة لأمي الواقفة أمامي، صورة لأبي وأمي وحدنا وأبدو فيها كبير السن، وصورة مثلها لكن

مع أمي بدلًا من أبي على الجانب الآخر، أيهما صحيح؟

- تعال يا بني، تعال إلى أمك.

نظرت إلى الأرض، وقد أدركت شيئًا، لحظة إدراك عميقة بداخلي لا أعرف من أين أتيت بها، لكن وكأنها مخفية في أعماق عقلي، تراجعت للخلف وقلت:

- أمي قد رحلت، أنت أمنا الغولة.

ابتسمت تلك المدعوة أمي، ثم في لحظة تحولت إلى مسخ بطول ثلاثة أمتار يجلس القرفصاء بينما الشعر يغطي وجهها وينزل إلى الأرض ليغطي معظم جسدها، ويمكنك أن ترى وجوه عشرات الأطفال الصارخين المستنجدين نامية على سطح جلدها.

تقدمت ليل لتغطيني بجسدها وقالت: «عليك أن تكبح خيالك عندما لا تحتاجه، لقد حولتها فكرتك لمصدر إزعاج وخطر».

قلت وقد راعني منظرها: «لم أكن أعرف، لم أستطع سوى أن أراها على هذا الوضع».

قالت ليل ناظرة إلى الغولة: «أي ظلام في داخلك يجعلك تتخيل شيئًا كهذا!».

قالت الغولة مخرجة لسانًا طويلًا من بين شعرها الطويل: «تعال يا بني».

زمجرت ليل: «إنه ليس ابنك». ثم انقضَّت عليها.

كان الضباب قد أمسى على بُعد أمتار منا، والأشخاص أصحاب الوجوه المطموسة قد عادوا يحيطون بنا من كل الاتجاهات بأعداد غفيرة، تلف الغولة ليل بلسانها الثخين الطويل وترفعها عن الأرض فتقوم ليل بغرز أنيابها في اللسان اللزج، تتألم الغولة وتصدر عواءً شيطانيًا، لم تكن تعوي من فمها، بل من أفواه ووجوه الأطفال النامية فوق جلدها، يرتخي اللسان حول ليل فتقفز نحو ما يفترض أنه مكان وجه تلك الغولة وتحاول غرز مخالبها فيه، لكن الغولة تقوم برد فعل سريع وتمسك القدمين الأماميتين لليل وتقول:

- يمكنني أن أراكِ تتحركين في أي اتجاه أنتِ فيه قبل أن تتحركي.

لاحظت بالفعل في تلك الأثناء عشرات الأعين الموجودة في وجه الأطفال في جسدها وهي تتحرك في كل الزوايا والاتجاهات الممكنة، تحاول ليل المقاومة لكنها تدرك أن الإفلات صعب؛ فقد قيدت الغولة باقي جسدها بلسانها الطويل كالأفعي، تصيح فيَّ ليل من بين زئيرها المتألم:

- اقفز في النيل بسرعة.. سنلتقي ثانية في العالم خلف ذلك النهر.

كان الوقت قد تأخر، لقد سُد الكبري بأصحاب الوجوه المطموسة فأصبح الضباب من خلفي والعدو من كل الاتجاهات وليس من أمامي فقط، وفي وسط ذلك الخطر المرعب فكرت في فكرة طفولية قليلًا لم أتصور نجاحها، ولكنها نجحت، تحرك الأسدين العملاقين على مدخل كوبري قصر النيل ودبت فيهم الحياة، ثم بدآ يطيحان بكل هؤلاء الزومبي الذين يسدون الكوبري، أتاحا لي بالفعل طريقًا أعبر منها نحو النيل، لكن سرعان ما قبضت إحدى أذرع الضباب القادم من السماء على واحد منهما فقيدت حركته وتكاثر فوق جسده الهوام مطموسو الوجوه، في تلك الأثناء كنت قد استغللت تلك الفوضى ووصلت إلى سور الكبري، نظرت للماء للحظات وسمعت أصوات النداءات البعيدة من جديد، ما زلت غير قادر على فهم ما تقوله النداءات، ألقيت نظرة أخيرة سريعة على المعركة الدائرة خلفي بين ليل والغولة والأسدين الحجريين والعوام مطموسي الملامح، فلاحظت أنهم انتبهوا لي ويحاول أحدهم اللحاق بي، بينما الضباب يمد أحد أذرعه أيضًا نحوي، فقفزت بسرعة إلى الماء، أغمضت عيني وأحسست أن رحلة سقوطي قد استغرقت

وقتًا طويلًا قبل أن يتخلل الماء جسدي.

***

-٤-

لماذا ننظر لمن يسلم جسده إلى الماء

على أنه أحمق هارب من واقعه،

ربما هو فقط يحاول الخروج من هذا العالم

باحثًا عن حقيقته وحقيقة مآسيه.

(١)

هل أغرق أم أطفو؟ ما هذا المكان تحديدًا؟ ولماذا لا أرى سوى الأزرق؟ إنها أصوات النداء من جديد، إنها تصير أوضح، صوت شخص أو اثنين، أو ربما ثلاثة، نور قوي يُغشي الأبصار، أفتح عيني وأغلقها عدة مرات، إلى أن أبصر شيئًا، بل أشياء، غرفة تتشكل من حولي، بسقف وجدران، دولاب وسرير، وملاءة تغطيني و... وجه أمي الشاب المبتسم!

- أمي!

أتذكر وجه أمنا الغولة فأتراجع وأنزوي فوق السرير الذي يحملني، تبتسم أمي من ردة فعلي وتقول: «مهلًا يا صغيري أنا أمك، هذه المرة أنا هي بالفعل». ثم تسكت للحظة ويتغير تعبير الابتسام على وجهها إلى تفكير وتستطرد: «تقريبًا وليس تمامًا لكن... لقد نجحت وخرجت من هذا الوهم الأزرق».

لاحظت حينها أنني أرى الألوان، لست متأكدًا ما إذا كنت أراها كلها أو أراها بوضوح، لكني أصبحت أرى ألوانًا مغايرة للأزرق، أرى بشرتها القمحية الصافية وخديها المتوردين وشعرها البني والدوائر الحمراء على جيبتها المنزلية البيضاء

وحائط الغرفة البنفسجي الفاتح والدولاب البنفسجي الغامق ذا المرآة، إنها غرفتي! لكنها أكثر حياة وبهجة.

جُلت بعيني في كل هذا غير فاهم وغير مصدق، حتى انتبهت إلى صورتي في مرآة دولابي، كنت طفلًا في المرحلة التي تسبق البلوغ، ربما بين العاشرة والثانية عشرة، لم أفهم كيف تقلصت هكذا، وبدا لي الأمر كحلم آخر مربك، لكن هل هذا هو الحلم، أم حياتي السابقة هي الحلم؟ أم أنني شخص مجنون يهلوس في إحدى المستشفيات ذات الأسوار العالية؟ ورغمًا عني سقطت من عيني دمعة، هذا الشعور، الضياع، شعور المرآة الأولى التي ضعت فيها من أمي، أو اليوم الأول بعيدًا عن حضنها في الروضة، لا شيء يعبر عن وضعي الحالي سوى وصف طفل ضائع.

قلت بصوت مختنق يحبس الدمع: «أنا تائه يا أمي».

وضعت يدها الحنون على خدي وابتسمت بحنو، حينها أيقنت أنها أمي، لم أشعر بلمسة الحب هذه سوى منها هي، قالت: «يا حبيبي كل شيء سيكون على ما يرام».

سألت سؤال وأردت أن أسمع إجابته منها: «هل أنت موجودة حقًا، هل أنتي حية أم...؟».

لم أكمل وفهمت هي ما أعنيه فأجابت: «هذا أمر يحتاج

إلى شرح، هل تريد سماع حدوتة؟».

ابتلعت ريقي وشعرت بفرحة طفل تغمرني وسألت بروح طفل حقيقي: «قصة قبل النوم؟».

أجابت: «لا... هذا المرة ستكون قصة قبل الاستيقاظ».

- وما اسمها؟

سكتت قليلًا ثم بدأت تفكر بصوت عال: «إنها قصة عن نجم أزرق سقط من السماء حين لم يتقبل حقيقة العالم وما هو عليه، ربما أسميها «سقوط نجم الصباح».. لا هذا طويل.. سأسميها «سقوط أزرق».

وبدأت تحكي.

***

حدوتة أخيرة: نجم الصباح

«كان يا مكان ومنذ قديم الزمان، أنارت النجوم السماء في الليالي الطوال، عدا نجم واحد لم يعجبه الأمر ولم يتقبله، شعر أن نظام العالم يحتاج إلى التغيير، وأراد أن ينير في الصباح، نفي إلى الأرض فسمى نفسه نجم الصباح، كان نجم الصباح حجرًا زمرديًا أزرق شديد الجمال، تشعر حين تنظر إليه وكأنك تنظر إلى كون صغير، حين لمس الأرض للمرة الأولى حول الجبل التل الذي سقط فوقه تل من الذهب، فتصارع عليه البشر طامعين في قدراته وسحره، لم يكن نجم الصباح نجمًا ميتًا أو مجرد حجر، وإلا ما كان تمرد، لقد كان كيانًا قويّ الإرادة، يختار مالكه بناء على معاييره الخاصة، يبحث عن أصحاب الخيال والمساعي الكبيرة تارة، وتارة أخرى عن أصحاب المآسي والجروح العميقة، كان يتلاعب بالأحلام والطموحات بكل أشكالها وألوانها، لقد صعد بالكثيرين إلى الملك، وأسقط الكثيرين من كراسي المُلك، لكنه في كل الأحوال كان يمتلكهم ويحصل عليهم يحبسهم داخل أوهامهم وأحلامهم، يستمتع باستنزافهم وبتغيير العالم وخططته، اتخذ أشكالًا وأسماء مختلفة أثناء رحلته الطويلة مع البشرية، البعض استخدموه في شكل خاتم، والبعض رصعوا به القلائد والتيجان، بينما البعض الآخر زينوا

به صناديق أو أدوات مختلفة أخرى، بينما لم يملك البعض سوى أن يستخدموه بالهيئة التي وجدوه عليها أيًا كانت، لم يكن الحجر يصنع الذهب أويخلق المادة من العدم، كان فقط يصنع الوهم، يقنع كل من في نطاق قوته بما يريدهم أن يروه ويسمعوه ويحسوا به، يحقق لملاكه أحلامهم قبل أن يمتلك هو بعد ذلك أرواحهم وعقولهم، يعدهم الجنة ويحقق لهم وعده، لكنها جنة مزيفة، لا توجد إلا في خيالك وأنت أسيرها، بنى البعض بمساعدة الحجر ممالك ضخمة، وظن القليل منهم أنهم آلهة وعاشوا في وهم قتلهم، خلال رحلة الحجر في الزمن بين أيادي البشر حمل العديد من الأسماء، فمن وضعوه فوق صندوق مثلًا سموا الصندوق باسم بندورا، وظنوا أن الصندوق يسبب الجنون لمن يفتحه، لكن العلة لم تكن في الصندوق، ومَن عاصروه في شكل خاتم سموه خاتم سليمان لظنهم أنه الخاتم الأداة التي سخر بها سليمان العالم لأمره، لكن الاسم الأشهر له بين كل الأسماء المعروفة وغير المعروفة هو حجر الفلاسفة».

سكتت قليلًا ونظرت إلى وجهي قليلًا وابتسمت لذلك الاهتمام الواضح على وجهي نحو ما تحكي، فاستدركت:

«تعامل البعض مع حجر الفلاسفة على أنه أسطورة، لاختفائه لفترة زمنية طويلة، لكن رجلًا واحدًا من بلاد

الشمال الباردة امتلك من الخيال والطموح والجموح ما يكفي ليغري الحجر باختياره كمالك جديد له في عصرنا الحديث، هذا الرجل نعرفه اليوم باسم هتلر، أعطى الحجر لهتلر من الثقة والقوة ما جعله قادرًا على اقناع أمته كلها بأفكاره وقيادته، أقنع الحجر الرجل بأنه سيجلس على عرش العالم وأنها فقط مسألة وقت، في النهاية حين خسر هتلر معركته تخلي عنه كيان الحجر، وحبس وعيه وذاته داخل العالم الذي يحبس فيه نجم الصباح كل تابعيه ومالكيه، الأثير».

كان بجوار السرير الذي نجلس عليه فنجاني قهوة لا أعرف متى أمسيا هنا، تناولت واحدًا منهم ورشفت منه رشفة، ثم أردفت:

- «كما صدق الكثير في خاتم سليمان وبحثوا عنه، صدق الكثيرون ايضًا قصة الحجر الذي منح هتلر السيطرة على وعي شعبه، وكان منهم جدك».

- جدي! أبوكِ!

لاحظت أثناء نطقي لكلماتي الأخيرة أن صوتي قد تغير، أصبح أكثر خشونة، بل إن جسدي أيضًا قد كبر لأصبح في سن المراهقة.

ناولتني أمي فنجان القهوة الآخر بجوارها وقالت:

- أظن أنك أصبحت في سن تسمح لك بشرب القهوة.

نظرت لها غير فاهم لأي شيء، قبل أن ألتقط الفنجان من بين أصابعها المرتجفة، وقفزت إلى عقلي جملة لا أعرف قائلها ولا أين سمعتها: «أنا لا أعرف ما الذي يجري معي، لكنني أجري معه». إنها تصف وضعي تمامًا، تابعت أمي:

- كان جدك ضمن فريق بحثي اهتم كثيرًا بأسطورة حجر الفلاسفة ووجدوا بعض الأدلة التاريخية التي تربط بين هتلر وبين الحجر، وبين منشأة عسكرية سرية أسفل الجليد على الحدود الروسية، لكن لم يدعم أحد بحثهم أو يموله، فكان عليهم أن يعتمدوا على جهودهم الذاتية.

أثناء كلام أمي كانت هناك صور متحركة للأحداث التي تسردها تُعرض فوق وش فنجان القهوة الذي في يدي، فاجأني الأمر حتى أنني كدت أسقط الفنجان، فاهتزت محتويات الفنجان بقوة، لم تختفِ الصور، لكنها تغيرت، رأيت جدي كما أذكره حين كنت صغيرًا يرتدي ملابس صوفية ثقيلة ويتحرك في منطقة جليدية برفقة بعض الرجال.

- قادتهم سنين من البحث إلى مكان المنشأة العسكرية المخفية أسفل الجليد، تقول ذكريات جدك إن المكان أعلن

عن نفسه فجأة أمامهم وكأنه يريدهم أن يجدوه، أو كأن شيئًا بداخله أرادهم أن يجدوه.

رأيت فوق وش فنجان القهوة بابًا حديديًا يفتح في الأرض وسط الجليد كالسرداب، ويدلف منه جدي ومن معه.

تابعت أمي: «لقد أحس جدك بصوت يناديه ويرشده داخل ممرات تلك المنشأة إلى أن وصلوا جميعًا إلى مكان الحجر، ما حدث بعدها يبدو مشوشًا بعض الشيء، لا يذكره جدك جيدًا ولم أعرفه، لكن يبدو أنهم واجهوا تجربة مرعبة انتهت بانهيار المكان فوق رؤوسهم، ولم ينجُ سوى جدك وبحوزته الخاتم، عاد جدك بخاتم نجم الصباح إلى الوطن، ولأن مهمتهم الاستكشافية كانت سرية وبها علماء من جنسيات مختلفة لم يربط أحد بينهم وبين جدك».

رأيت على صفحة القهوة صورة متحركة متقطعة الحركة لجدي وهو يجري وبيده الخاتم يضيء بالأزرق، وسط مساحة جليدية زرقاء شاسعة، بينما هناك قطعة من الأرض تخسف خلفه.

استطردت أمي: «كنت لا تزال طفلًا في تلك الأثناء، ولم أكن على علم برحلة جدك تلك، لكني رأيت الخاتم في يد جدك حينها، ومُنذ ظهوره في يد جدك بدأت توهماته وأعراض الألزهايمر تظهر عليه جلية، لقد كان جدك يعيش

في عوالم أخرى طوال الوقت ويرتحل دون أن يغادر غرفته».

مدت أمي يدها تلمس فنجان قهوتي فظهرت صور كثيرة متتابعة ومختلفة، أماكن أعرفها وأماكن لا أعرفها، مدينة مبانيها من الذهب، ومدينة يُدلف لها من خلف شلال عظيم، وأخرى تحت الأرض لا يرى سكانها الشمس، وبقايا مدن عملاقة أسفل الماء، رفعت عيني عن فنجان القهوة متعجبًا من سحر ما أرى ومتسائلًا بشأنها، فأجابت وكأنما قرأت السؤال في عيني: «كل ما تراه ليس حقيقيًا، تلك صور من ذكريات جدك لكنه لم يعشها في الحقيقة، كان جدك كثير الأسفار وواسع الخيال ولديه اطلاع واسع على قصص الشعوب والحضارات المختلفة، وقد أورثني تلك الحكايات التي حكيتها لك الكثير منها فيما بعد، ولقد لعب الحجر على ذلك، فخلق له مغامرات وهميه ليعيش بداخلها، كنا نظن بعقله الظنون حين نسمعه يتكلم عن أسفاره العظيمة ووصوله إلى مدن الدهب وأطلانطس وشمبالا، لكنه في الحقيقة قد ذهب إلى كل تلك الأماكن في واقعه الوهمي مع الحجر، انتهى الأمر بجدك ميتًا بعد أن استنزف الحجر روحه، وظننا حينها أنها النهاية الطبيعية بعد سنوات من الألزهايمر، وورثت الخاتم عنه دون أن أعرف عنه شيئًا سوى أنه الخاتم الذي أحب أبي ارتداءه دائمًا قبل موته».

قطعت أمي استرسالها فجأة لتقول لي: «اشرب قهوتك أولًا كي لا تبرد»، ففعلت، لتتمزق الصور على سطح الفنجان.

تابعت أمي: «المصائب لا تأتي فرادى، بعد موت جدك عرفت أن أباك قد أصيب بسرطان المعدة، بسبب عاداته الغذائية السيئة، فجعلني كل هذا هشة نفسيًا مما سهل على الخاتم الذي كنت قد ورثته أن يسيطر عليّ، حين كنت أشتاق لجدك كنت أراه أمامي يتحدث معي ويهون عليّ ويناقشني في مشاكلي، لم أكن مهتمة بمدى حقيقة ما أرى، كنت بداخلي أعرف أنه ربما يكون خيالًا أو حلمًا، لكنه خيال يساعدني على الاستمرار في العيش، لكن مع الوقت امتزج الواقع بالخيال، ولم أعد أعي تفاصيل يومي كاملة، أصبحت خارج السيطرة، وقد أضحى ذلك جليًا في تصرفاتي، حتى آتي اليوم الذي صحوت فيه من غفلتي لأجدني قد ضربتك لأول مرة في حياتك».

على سطح الفنجان يظهر مشهد جديد لأمي تضربني ضربًا مبرحًا وأنا أبكي غير مستوعب لسبب ضربي، ثم يلحقه مشهد آخر لأبي وأمي يصرخان في وجه بعضهما.

- لا زلت أتذكر نظراتك اللائمة لي على ضربك يومها، ربما لا تتذكر ذلك اليوم حتى لكني أتذكره بوضوح وكأنه جزء من وجودي الحالي، لم يعد البيت سعيدًا كما كان، ولم أعد الأم

التي تمنيتها لك دائمًا، لقد كان الخاتم يمتص من روحي شيئًا فشيئًا حتى أقنعني بعقد صفقة معي في أحد تلك الأيام التي أتاني متجسدًا فيها على هيئة أبي.

توقفت للحظة وبدا أنها على وشك أن تبكي، عدلت من وضع جلوسي مقتربًا منها ووضعت فنجان القهوة جانبًا ثم ربتُّ على كتفها، لاحظت حينها أن يدي قد كبر حجمها ونبت الشعر عليها، فخمنت أنني قد كبرت من جديد، ربما أنا في العشرين الآن، أخذت أمي نفسًا عميقًا ثم تبسمت وهي تنظر إلى وجهي بعينيها المترقرقتين ثم استدركت: «حين جاءني لعقد تلك الصفقة وهو متجسد في هيئة أبي قال لي إنه سيأخذني إلى الجنة التي يعيش فيها لأعيش معه، وفي المقابل وعدني أن أباك سوف يشفى من سرطان المعدة وسوف تعيش سعيدًا برفقة أب يرعاك بدلًا من أم تضربك، حين شككت في الأمر جعلك تمرض أمام عيني ثم شفاك حين طلبت منه، بالطبع لم يحدث هذا، كان وهمًا أقنعني به، أقنعني أنها قوة روحانية تجعله متواصلًا مع عالم الأحياء حصل عليها أثناء أحد أسفاره، في النهاية استسلمت له، وقبلت الرحيل عنك لأجل صالحك».

مدت أمي يدها نحوي بفنجان القهوة الخاص بها ثم أخذت بيدها الأخرى يدي ووضعتها على الفنجان، فإذا بمشهد

أعرفه جيدًا يتشكل أمام عيني، يد أمي الزرقاء المتدلية من طرف حوض الاستحمام.

- للعلم، هذا المشهد في الفنجان ليس من ذكرياتي، لم أكن أعرف الطريقة التي تخليت بها عن روحي حتى قابلتك ورأيت ذلك في ذكرياتك.

حتم ما تحكيه على أن أسأل سؤالًا أهم من باقي الأسئلة بالنسبة لي أنا الشخص الذي لا يفهم حتى الآن واقعه من خياله وموضع ما نحن فيه من العالم، فسألتها مباشرةً:

- لا أفهم، هل أنتي ميتة إذًا؟ أم أنك لستِ أمي من الأساس؟

نظرت إلى عينيها مباشرةً أنتظر الإجابة على هذا السؤال، فرأيتها تبتلع ريقها وترددت وكأنها لا تعرف كيف تشرح لي الأمر، قبل أن تقول: «أمك قد ماتت، لكني ورغم ذلك أمك، أو للدقة ما تبقى منها، يمكن أن تقول إنني وعيها أو ذكرياتها، أو روحها، كلها مسميات لي أنا الجزء الذي سلبه كيان الحجر من أمك قبل انتحارها، هذا يجعلني بشكل ما أمك، لدي نفس الذكريات والدوافع والمشاعر تجاهك».

ابتسمت ابتسامة هادئة وقلت: «كان من الأسهل أن تقولي أنكِ روح أمي».

ردت: «هذا مباشر جدًا وحالم بعض الشيء».

- كقصة تحكيها لطفل قبل النوم.

قلت ذلك بينما ابتسامتي تصبح أوسع، بادلتني بابتسامة تماثلها، ثم خبطت على كتفي وطلبت مني أن أتبعها، فتحت باب الغرفة وخرجت منه فخرجت خلفها لأجد أننا خرجنا على مشهد مختلف عن صالة البيت، لقد كنا واقفين في شرفة واسعة كبيرة تطل على بحر أزرق ممتدد دون فواصل يلتقي بالسماء عند خط الأفق، وتزدان تلك السماء بغيوم لطيفة الشكل كغزل البنات ومخلوقات خيالية طائرة كالتي في الحكايات.

- مرحبًا بك في جنتي، جميلة أليست كذلك؟ (سألتني).

- بكل تأكيد.

- لكن لا يجب أن تبقى فيها.

- «لكن لمَ؟» سألت بينما أمسك سور الشرفة وعيني في عين أمي.

- لأن هذا العالم رؤية كاذبة، مكان يهرب إليه الضعفاء من أمثالي، من حطمتهم الدنيا فلجئوا إلى الوهم هاربين من مواجهة مشاكلهم.

- وكيف أخرج من هذا الوهم؟

- بأن تدرك أنه وهم، لقد حاولت أن أنبهك بعدة طرق، كلمتك من خلال بعض الشخصيات المحيطة بك في الوهم، من خلال لعبة الورق، لكن تلك كانت حدودي، أنا مجرد بقايا إنسان هائم في الأثير، محاولة تدخلي دائمًا ستكون قاصرة وضعيفة، فكيان الحجر كان متمكنًا من نسج عالمك وإحاطته، هو رب هذا العالم وخالقه ولا أستطيع اختراق القواعد التي يضعها له، لكن فرصتي أتت حين قمت أنت بتغيير مسار الأحداث والعالم الوهمي كله، حين اخترت أن تجعلني أنا من أحيا بدلًا من والدك.

كنت أتابع كلامها فاغر الفم غير مستوعب لكل تلك المعلومات التي تفجرها في وجهي دفعة واحدة، حتى أنني شعرت بالتشتت أكثر من السابق، ويبدو أنها لاحظت ذلك بينما تتابع.

- أعرف أنك لا تستوعب كل ما أقوله لك في الوقت الحالي، لكن عليك التركيز جيدًا، إن الوهم الذي يبنيه كيان الحجر داخل عقلك قائم على ذكرياتك أنت، يقوم بتعديل الأصوات والصور والأحداث من ذاكرتك ويصنع لك الحدث الجديد الذي تعيش فيه، وفي حالتك ساعده أثر وجود ذكرياتي أنا داخله، لقد استخدمني أيضًا ليحكم السيطرة عليك أكثر

وينسج صورة أقرب للكمال، وكأنه...

توقفت ولم تجد وصفًا دقيقًا فأسرعت أقول:

- ذكاء اصطناعي يعيد معالجة البيانات.

يبدو أنها لم تفهم تمامًا ما أعنيه لكنها تابعت:

- حين تغير الواقع كثيرًا عن الصورة الحقيقية لما حدث فعلًا، احتاج الكيان إلى بناء عالم جديد وذكريات جديدة، وهذا يستهلك الكثير من طاقة وتركيز الكيان والحجر، فصنع لي ذلك ثغرة مكنتني من الدخول إلى هذا الوهم بشكل أقوى، وأصبح في إمكاني التواصل معك بشكل أوضح، فكلمتك على الإنترنت باسم الملاك الحارس، وتجسدت لك في القطة ليل.

قلت مستغربًا: «كنت أنتِ!».

- كان عليّ إنقاذك بأي طريقة ممكنة.

ضربت عقلي ذكريات لا أدري موقعها من الأحداث بالتحديد عن غراب متكلم، سألتها عنه لكنها أنكرت محاولة تواصلها معي عن طريق أي غربان، إذًا لم يكن هذا سوى جزء من لعبة الوهم!

أبعدت عيني عنها ونظرت إلى أسفل الشرفة حيث الماء

وبقيت صامتًا للحظات قبل أن أقرر الكلام:

- مثلك تمامًا يا أمي، كنت أعرف أن ما أمر به ليس حقيقيًا، على الأقل هذا ما أذكره الآن، كانت الأدلة دائمًا حولي لكني أعميت نفسي عنها، لقد استمررت لأنني أحببت الهرب، أحببت الظن بأنني قادر على حل مشاكلي بالهرب منها.

اختلجت عيون أمي بالدموع وقالت:

- أنا آسفة لأنني ربيتك على أن تدير وجهك بعيدًا عن المشكلات، وعلى الظن بأن كل شيء سيكون دائمًا على ما يرام، لقد زرعت فيك الجُبن بدلًا من الطمأنينة، الأمان ليس في الهروب من المشكلات، الأمان يُنتزع بالقوة، واجه مشكلاتك ومخاوفك واهزمها لتجد الأمان بداخلك، خاسر من ينتظر أن يمده أحدهم بالأمان.

احتضنتها بين ذراعي وقد لاحظت أنني صرت الآن أفوقها طولًا وعرضًا بقدر لا بأس به، أظن أنني قد عدت إلى سني وحجمي الذي أعرفه، بقينا على هذا الوضع لبعض، فقالت أمي وهي في حضني:

- لقد كبرت كثيرًا، أنا سعيدة أنني تمكنت من تحقيق حلمي في أن أراك تكبر أمام عيني، تلك هي الجنة الحقيقية التي تستحق أن أستبدل بها وجودي.

شعرت بجسدها يصبح أكثر حرارة فأبعدتها وأمسكتها من كتفيها، ابتسمت بوهن وقالت:

- الأرواح التي تسلب وتسجن في جنان مصغرة داخل الحجر ما هي إلا مصادر طاقة يتغذى عليها الحجر، ويستخدمها في توليد أوهامه وألاعيبه، لذلك فحياتنا داخل الحجر مؤقتة، لكني عجلت من وجودي بأن حاولت التواصل معك واستخدمت ما يتبقى فيا من طاقة لأراك تكبر أمام عيني لحظة بعد لحظة.

بدأ جسدها يضيء بلون أزرق خفيف، فأمسكت يدها أقبلها وأطلب منها بهلع ألا تتركني، وضعت يدها على خدي ونظرت لي بحنو وحزن وقالت: «عليك أن تتقبل يا بني أنني قد رحلت بالفعل منذ زمن، وأن تتقوى بالألم، فوحده قد يحررك من قفص ذكرياتك، اسمعني ولا تقاطعني، للكيان نقطة ضعف، ثغرة في العقد، إنه يلتزم بعقده معك مهما حصل ويلزمك به، العقد بينكم ينص على أن لديك سبع مرات تتمنى فيها أن تخوض التجربة، تجربة السفر الوهمية إلى الماضي وتغييره، لا زلت تمتلك فرصة».

بدأ جسدها يتحول بالتدريج من الأسفل للأعلى إلى فقاعات لؤلؤية صغيرة، وراحت تلك الفقاعات تطفو في الهواء، أمسكت بيدها التي لا تزال على وضعها بإحدى تلك

الفقاعات وناولتها لي فأمسكتها.

- هذا آخر شيء سأعطيه لك، أظن أنه سيكون كافيًا لهزيمة الساحر الشرير.

قالت جملتها الأخيرة ثم تحولت شيئًا فشيئًا إلى فقاعات بالكامل، وطفت بعيدًا نحو السماء، بينما لن أستطيع أن أنطق أو أحرك ساكنًا، لم يمهلني هذا العالم الفرصة للبكاء، لقد اهتزت هذه الجنة الوهمية من حولي وبقرت مخالب سوداء ضخمة بطن السماء، ثم تمزقت هذه الجنة من حولي واختفت لأعود من جديد لأطفو داخل الأثير الأزرق الفسيح المرصع بالنجوم، وبجواري كانت تطفو الفقاعة المضيئة التي تركتها لي أمي.

***

(٢)

نفسي الثقل يقيد جسدي، ذلك الشعور بأنك لا تملك من أمرك شيئًا، الفقاعات التي تطفو حولي مرتفعة نحو الضوء في الأعلى، وأذرع الظلام من أسفلي تشدني وتثقلني، صور كثيرة فوق سطح الفقاعات اللامع، وجوه لأشخاص منهم من لا أعرفه ومنهم المألوف، أماكن ولحظات لا أذكر منها الكثير، صوت أعجز عن تحديد مصدره، يتنامى إلى سمعي صوت أعجز عن تحديد مصدره، وربما من أعماقي، يقول: «يمكنك أن تخرج الآن من هنا إذا طلبت، يمكنني أن أعيد إليك بيتك وأمك وعالمك كله دون أن تفقد منه شيئًا».

ليس لدي أي دوافع للرد أو للتحرك، ربما أستسلم للظلام الذي يشدني فينتهي الأمر، أغمض عيني أحاول أن أتذكر أي شيء يستحق أن أقاوم لأجله، لكن عقلي فارغ، إلا من ذكرى أمي، من كلماتها، وتضحيتها، هناك أيضًا أصوات غير واضحة وبعيدة لا أستطيع تحديد إلى من تعود وما غرضها، لكن شيئًا صادقًا في تلك الأصوات التي تناديني يدفعني لأتابع المقاومة، صوت أمي تقول إن الألم سيحررني، ويطلب مني أن أتقبل رحيلها، لثانية أقرر المقاومة لكن الأذرع غير المادية حولي تزداد قوة وقسوة، الفقاعة التي تركتها لي أمي تطفو بجواري ولم تغادرني بعيدًا كباقي الفقاعات، أحاول أن أمد

يدي نحوها لكني أجد صعوبة مهما حاول أن أفرد ذراعي، يتردد الصوت من جديد في أذني: «يمكنك أن أعيد لك حياتك مع أمك مجددًا، فقط أطلب».

أستمر في المقاومة، مقاومة ثقل جسدي وحتى ثقل لساني، لأتمكن من النطق أخيرًا: «أمي.. قد.. ماتت».

وأنجح في لمس الفقاعة.

***

إنتقلت إلى مكان آخر بمجرد أن لمست الفقاعة، لم تكن الفقاعة سوى ذكرى من ذكريات أمي معي، فيها نجلس متجاورين فوق سريري الصغير بينما تحكي لي حكايا قبل النوم، رأيت أمي تمسك بقصة مصورة صغيرة كتب على غلافها من الخارج (سيف شبورة)، فتحتها وبدأت تحكي لي.

«لقد ورث بطلنا الشاب سيفًا كبيرًا، مميز الشكل لم يكن يعرف عنه سوى اسمه، سيف شبورة، ولم يجد للسيف فائدة بالنسبة له فوضعه فوق الدولاب ونسيه، إلى أن بدأ يقابل شخصًا ما في الأحلام يطلب منه المساعدة، وكان هذا الشخص ساحرًا صغير السن، وسيمًا ذا شعر أصفر، ويرتدي عباءة بنية».

غرقت في تفاصيل وجه أمي بينما تحكي تفاصيل قصتها،

في صور القصة وأرض شبورة وغابتها والمبنى الحجري فيها بسلالمه العجيبة وأبوابه اللانهائية، وفي كيف واجه البطل مخاوفة خلف أبواب المتاهة إلى أن وصل للساحر الشرير وتمكن من هزيمته، وتحطيم بلورته السحرية، ثم أنهت أحداث القصة قائلة:

«رفع بطلنا السيف عاليًا وقال فلتحيا شبورة.. تمت».

قال «أنا» الصغير داخل الذكرى لأمي بعد أن أنهت القصة بينما يتثاءب: «أريد أن أصبح بطلًا وأنا أحمل سيف شبورة».

ردت أمي مبتسمة: «أنت بطلي دون أن تحمل أي سيف».

كدت في تلك اللحظة أتمنى لو يعود بي الزمن إلى تلك اللحظة، لكني انتبهت إلى غباء الفكرة، تغير المشهد وانتقلت من غرفتي إلى صالة شقتنا، لأجد أبي يدلف من باب الشقة، فأجري نحوه محتضنًا إياه، قبل أن يناولني هديتي، سيف بلاستيكيًا يشبه كثيرًا السيف في قصة شبورة، سألني أبي: «هل أعجبك؟».

فقال أنا الصغير بجدية: «سيكون كافيًا لقتل الساحر الشرير».

أصبحت تلك الذكريات واضحة الآن أكثر من أي وقت سابق.

***

(٣)

أعود من جديد إلى الأثير، لا تزال أذرع الظلام تحاوطني، فقاعة أمي أو ذكرياتها التي أمسكها الآن في يدي تتمدد وتستطيل ويتغير شكلها، فتتحول إلى سلاح، بل إلى سيف، تحديدًا سيف شبورة.

أمسك مقبضه بقوة فيضيء كما الفقاعات من حولي، أودع فيه كلمات وعي أمي الأخيرة وأتعافى على الأذرع السوداء حولي وألف السيف لأتمكن من قطع أحد تلك الأطراف المظلمة، ينجح الأمر فتتحرر يدي اليمني قليلًا، فأنزل بنصل السيف على ذراع أخرى.

أحرر معصمي فأشق الذراع الذي يلف معصمي الآخر، ثم أنهمك في تحرير باقي جسدي، أنجح في ذلك وأدفع جسدي إلى الأعلى في الأثير خلف تلك الفقاعات التي تطفو فوقي، تمددت أذرع الظلام نحوي مجددًا فأنتبه في اللحظة الأخرى، أثني قدمي ثم ألمس إحدى الأذرع الأخطبوطية ببطن قدمي وأستخدم الذراع في دفع نفسي إلى الأعلى أكثر، الأمر يشبه كثيرًا طفو رواد الفضاء في الأفلام على سطح القمر، كنت أحاول أن أتخيل الأمر كلعبة فيديو وقد نجح ذلك في التقليل من ذعري، تمكنت أخيرًا من لمس إحدى تلك الفقاعات الطافية فشعرت بالألم يسري في داخلي لمجرد

لمسها، فتراجعت كمن صعقه التيار،

«تقوى بالألم، فوحده قد يحررك».

قررت أن أحاول مجددًا، لكن هذه المرة دفعت يدي بقوة عبر الفقاعة غير عابئ بالألم فاندمجت الفقاعة معي.

«لم تكن الأمور على ما يرام، لقد كنت في حاجة إليك».

مددت يدي مرة أخرى نحو واحدة أخرى وصعقني الألم من جديد حتى أنني صرخت.

«لقد حل الظلام على علاقتنا وعلى قلبي.. وأنا لم أعد قادرة على حبك في الظلام».

كنت أتألم، بل أكاد أبكي من الألم، لكني رغم ذلك أمسكت واحدة أخرى.

«أنا أيضًا آسف.. آسف لأنني أحببتك طوال عمرك.. لكنني عجزت عن طمأنتك يومًا».

كنت أنهل كل ما أطال من فقاعات بيدي، باحثًا عن ماهيتي وعن طريقة للخروج.

لم أكن أدرك بعد ما هو الواقع وما هو الوهم من بين تلك الذكريات الكثيرة، لكني أصبحت أتذكر الخطوط العريضة للأمور، أثناء انشغالي في جمع الفقاعات طالتني الأذرع

من جديد، مهما ابتعدت أو هربت فلا مفر من سطوتها، أنا محكوم بقواعد هذا المكان، عاد الصوت يكلمني:

- حاول من هم أقوى وأشجع منك وأكثر خيالًا الهروب لكنهم لم يفلحوا، الجميع في النهاية يخضع لنجم الصباح، تلك النجوم حولك ما هي إلى جنان صغيرة يعيش فيها كل من تبعني، لقد وعدتهم الخلاص وحققته لهم.

قلت صارخًا: «هذه جنة مؤقتة، وهم بقايا بشر، إنك تستخدم طاقة أرواحهم كبطاريات، بينما تحبسهم في ذلك الوهم».

تغير الأثير من حولي فجأة، أظلم الأزرق بينما بقيت النجوم على حالتها تزين تلك الظلمة، كنت كمن يحلق في الفضاء الفسيح الآن، ظهرت أسفل قدمي أرض مستوية صحراوية واسعة يضيء ثراها ضوء النجوم، قال الصوت:

- العالم كله وهم.

من بعيد ظهر شخص ما يمشي نحوي، ظل يقترب حتى أمسيت أرى حدود جسده بوضوح إلا أن ملامحه لم تكن واضحة، قال بنفس الصوت المميز الذي كان يخاطبني مُنذ ثوان: «تلك النجوم في السماء ما هي إلا أدوات لصنع الوهم، نقاط بينها اتصال في نسيج ضخم هو نسيج ذلك الكون،

نسيج يخضع لقوانين محددة برمج على أساسها دون أي قدرة على التغيير أو الخيال، مبرمج هذا الكون لا يحب أصحاب الخيال، لكني كنت مختلفًا».

أضحى وجهه الآن واضحًا، كان الواقف أمامي هو سامر، أو تجسد كيان الحجر في هيئة سامر.

تابع الكيان: «كنت أطمح لأن أصنع عوالمي الخاصة، أن أدفع عقول الكائنات الحية إلى أقصى مدى، أن أنير الصباح عكس القواعد التي وضعها لنا، لذلك أسقطني».

رأيت في السماء التي تعلوني نجمًا أزرق وهاج يندفع كالشهاب نحو الأرض بسرعة، وخلال ثوان اصطدم بالأرض فشكل انفجارًا ضخمًا ذهبي اللون غير مجال بصري.

بمجرد أن عدت لأبصر كان المشهد قد تغير، رأيت مجموعة من البشر يتسابقون صعودًا فوق تل من الذهب، حتى يحصلوا على الحجر الأزرق فوقه.

«لقد كنت معجزة بالنسبة لكم، منكم من لم يصدق في وجودي، ومنكم من تنافس حتى الموت للحصول عليّ، لكني كنت أختار مالكي، أختار من يريدون مثلي تغيير الواقع من حولهم».

رأست مملكة ضخمة تبرز من الأرض، مملكة لا عين رأت

مثلها ولا خطرت على قلب بشر، يدور في أرضها وسمائها مخلوقات مغريبة، متباينة الشكل، منها الطيار ومنها السيار، منها الضخم ومنها القزم، والحيوانات بها تشكل جيوشًا كالبشر، وفوق عرش تلك المملكة يجلس رجل توارت ملامحه في ظل قبة ماسية ضخمة، لا يظهر من تفاصيله سوى الخاتم الأزرق في يده.

قال الكيان: «قابلت منكم من استحق بخياله وحكمته أن يُخضعني فخضعت له راضيًا متمتعًا، وجعلته باستخدام خياله يُخضع ممالك وجيوش، لكن للأسف، البشر فانون، وتزول ممالكم بزوالهم».

زالت المملكة أمام عين وتبخرت وظهرت بدلًا منها مملكة بابلية الطراز تحيط بنا، وفي ساحة كبيرة رأيت رجلًا شيطانيّ المنظر يملؤه الكبر، يرتدي فوق رأسه تاجًا مرصعًا بحجر أزرق براق.

«ومنكم من ظن أنه إله فزدته وهمًا فوق وهمه». صوَّب الرجل سهمًا نحو السماء، فعاد له السهم مضرجًا بالدماء، فصرخ الرجل الشيطاني فرحًا، قائلًا إنه قتل إله السماء.

استدرك: «فسحقت روحه وجعلت وهم حشرة صغيرة يقضي عليه، زدته وهمًا فظن أن في إمكانه استبدال رأسه برأس من الذهب».

رأيت الرجل الشيطاني في مشهد آخر في نفس الساحة يضع رأسه أسفل مقصلة بينما وضع بجوار المقصلة رأس ذهبية نحتت بنفس ملامحه، فوق وسادة كبيرة مطعمة بالذهب، يُنزل أحد الجنود نصل المقصلة فوق رقبة ملكه بأمر من الملك نفسه فتغرق الدماء المشهد ليختفي كما اختفى الذي قبله.

«لقد بنيت حضارات وأسقطت حضارات، وعرفت عن البشر كل ما يمكن أن يُعرف، لقد أمتعوني حقًا».

حولي في الفراغ رأيت ملكًا مصريًا قديمًا يتوج وعجوزًا كثيف الشعر والذقن بملابس رومانية وسوار مطعم بحجر أزرق يوهم من حوله أنه يتحكم في البرق، رأيت أممًا تباد تحت أقدام جيش من الثيران الغاضبة، حين أمعنت النظر فيهم اكتشفت أنهم في الحقيقة ليسوا سوى بشر فوق جياد، وفي جانب آخر جموع ترتدي زيًا حربيًا أكثر حداثة يرفعون أذرعهم نحو السماء تحت علم أحمر رسم عليه صليب معقوف، رأيت ورأيت، حتى ضحك الكيان وقال: «أبعد كل هذا تشك في قدرتي على منحك وعدي؟ إن بيني وبينك عقدًا، ولا يمكن خرقه، ولا أنوي أن أتركك بعد تمامه بائسًا، فقط ابنِ تصورك الأخير لحياة فيها كل ما تحب وكل من تحب، حياة سيُمحى فيها كل ألمك، ستعيش في تلك

الحياة إلى الأبد حتى بعد أن تُسلم الروح ويفنى الجسد».

كان قد أعدني حينها إلى الأثير، اختفى كل ما رأيت ولم يبقَ سواه هو بهيئة سامر، يطفو قبالتي، ينظر إليّ وينتظر قراري، بينما كنت فاغر الفاه أتنفس بصعوبة بينما عيناي متسعتان، والسيف في يدي يكاد يسقط.

«إذا استمررت في مسح أخطائك وإعادة الرسم ستستمر في تكرار الأخطاء، أبقِ الخطأ قائمًا أمام عينيك سيسهل عليك التعلم منه وتقويمه».

لا أعرف لما أتذكر هذه الكلمات في هذا الوقت تحديدًا، يبدو وكأن عقلي يحاول مساعدتي، الأصوات المنادية تعود أقوى، يمد الكيان يده نحوي، فأتردد قليلًا، قبل أن أشد على السيف في يدي وأمد يدي الأخرى ليده، أكبح مشاعر الرهبة والخوف داخلي، ثم أحسم قراري وأقول:

- أريد أن أحاول لمرة أخيرة.. لكن ليس في زمن آخر، بل ربما في عالم آخر، انقلني إلى أرض شبورة.

وتمكنت من أن أرى علامات العجب فوق ملامح وجهه قبل أن يغمرنا الأزرق للمرة الأخيرة.

***

-٥-

عقل مرهق.. روح معذبة.. نفس لائمة..

الأمان يُنتزع بالقوة، خاسر من ينتظر أن يمده أحدهم بالأمان.

الفتى:

هذه المرة كنت أرتقي داخل الأثير الأزرق عاليًا، وحولي راحت تتشكل بعض الغيوم، كان الأمر أشبه بالطيران كأبطال القصص المصورة، بعدها بدأ بعض الضباب الخفيف يغطيني حتى أعماني، ثم صرت لا أبصر شيئًا، مكثت لبعض الوقت في حالة الطيران الأعمى تلك إلى أن لفظني الضباب أخيرًا، فألفيت نفسي واقفًا فوق أرض صلبة، أنظر إلى نفسي فإذا بي ألبس دروعًا كالتي يرتديها الفرسان في الحكايات الخيالية لا يليق إطلاقًا بالنظارات الحمقاء التي تعلو أنفي الحاد، وفي يدي سيف شبورة يلمع تحت ضوء الشمس، وفي أثناء دهشتي مما أرتدي اصطدمت أمامي بما هو أغرب وأكثر مدعاة للدهشة، غابة من الأشجار العالية غريبة الشكل والتي تذكرني بالأشجار المنقرضة العملاقة في الأفلام التي تصور العصور الجيولوجية القديمة للأرض، الأشجار مصطفة بجوار بعضها البعض كالسور وتحتضن أغصانها بعضها لبعض وتتشابك كتشابك أيادٍ عاشقة، بحيث لا تسمح لك أن تعبر خلالها سوى من مداخل أو مفارق قليلة جدًا بينها، ورغم علو تلك الأشجار فإنها لا تمنع الناظر من أن يلحظ قمة المبنى الهرمي الذهبي وراء الغابة، التفت التفاتة بسيطة أنظر خلفي فإذا بالضباب يلف الأرض من كل الاتجاهات، هنا أدركت أن الأمر قد نجح، أنا الآن أقف أمام غابة التيه في أرض شبورة.

شددت على السيف في يدي وقد عرفت ما الخطوة التالية، عليّ أن أعبر الغابة باحثًا عن الطريق الصحيح للخروج، والوصول إلى المبنى الهرمي، دلفت عبر الأشجار من خلال أحد المداخل الموجودة وسط الأشجار المتشابكة، ورحت أعدو داخل ذلك الممر الممهد وسط الاشجار، ينحرف الطريق فأنحرف معه، يلف بي يسارًا ثم يمينًا لأجد أنني بعد دقيقة من الدوران، قد عدت إلى خارج الغابة وأمامي الضباب، كان عليّ أن أفكر بالقوانين والمعطيات التي يمنحها لي ذلك المكان والتي وضعت في الأساس بناءً على خيالي وذكرياتي، لدينا شمس هنا أظن أنها تتجه ناحية الغرب، أمامي مباشرةً، في نفس اتجاه الهرم، وظلال الأشجار في الاتجاه المعاكس، لذا عليّ أن أمشي عكس اتجاه الظل نحو الغروب لأصل إلى المبنى وأعبر التيه، دلفت إلى الغابة مجددًا، مستخدمًا الضوء كبوصلة هذه المرة، كانت الغابة من الداخل متاهة حقيقية بها ممرات عديدة تتفرع من بعضها البعض، وأغلب تلك الممرات ضيقة فلا تسمح بدخول ضوء الشمس ما جعل فكرة الاعتماد على الضوء غير موفقة تمامًا، لكن الممرات الضيقة تقود غالبًا إلى مساحات شاسعة كالغرف داخل ذلك التيه تسمح برؤية اتجاه ظل الأشجار على الأرض وإعادة تقويم اتجاهات المرء، يمينًا ثم يسارًا، ثم يسارًا مرة أخرى أصل في أحد الطرق إلى غرفة مسدودة

فأعود إلى الوراء، لأسلك طريقًا آخر قبل أن أصل إلى مفترق طرق آخر، أمامي الآن تفرعان يبدوان متماثلين تمامًا، ويبدو أن أحدهما أو ربما كلاهما يقوداني إلى الخارج، مكثت أنظر إلى الممرين لبعض الوقت حتى اطمأنت عيني لظلال الممر الأيسر واستقرت نفسي له، فدلفت إليه، مشيت فيه قليلًا لا أتعجل الخطى وأنظر إلى الأشجار التي تحاوطني بإمعان فلاحظت شيئًا عن يميني! وكأنني رأيت من خلال الفرج الموجودة بين الأشجار المشكلة للممر شخصًا ما يمشي معي في المتاهة، بل أظن حتى أنني لمحت سيفًا في يده، استيقظت كل حواسي وتحفزت لكني بمجرد أن لمحت هذا الشخص اختفى! وفكرت أن ما رأيته ربما لعبة من ألاعيب المتاهة التي كانت في القصة، ربما لحظة تخيل شطحت مني فقامت بذلك التأثير، لكني لم أقلل من تحفزي، تابعت الطريق إلى أن وجدت نفسي أخيرًا وقد خرجت من غابة التية، أرى أمامي الآن منازل أرض شبورة ذات الأسطح الحادة مستقرة على سفح ذلك الهرم العملاق اللامع بالأزرق والذي أضحيت الآن أراه بوضوح.

نفس:

مكثت أنظر إلى الممرين لبعض الوقت حتى اطمأنت عيني لظلال الممر الأيمن واستقرت نفسي له، فدلفت إليه، وبمجرد

أن دخلت إليه شعرت بألم لحظي يجتاح قلبي، وكأن شيئًا نزع من جسدي، وقفت للحظات ألتقط أنفاسي ثم تابعت السير، مشيت قليلًا لا أتعجل الخطى وأنظر إلى الأشجار التي تحاوطني بإمعان فلاحظت شيئًا عن يساري! وكأنني رأيت من خلال الفُرج الموجودة بين الاشجار المشكلة للممر شخصًا ما يمشي معي في المتاهة، بل أظن حتى أنني لمحت سيفًا في يده، عدت خطوتين إلى الخلف واستيقظت كل حواسي وتحفزت لكني بمجرد أن لمحت هذا الشخص تكثفت الغيوم وحجبت ضوء الشمس للحظات فلم أعد أرى الشخص خلف الأشجار، وحين عادت الشمس لتضيء، كان قد اختفى!

تابعت بعدها المشي داخل ممرات التيه علني أعبره إلا أنني بدلًا من ذلك وصلت لإحدى تلك الساحات الواسعة وسط الأشجار، وكانت تلك الساحة مغلقة من جميع الجهات عدة من الجهة التي أتيت منها، لكنها وعلى عكس أي ساحة أو غرفة رأيتها داخل هذا التيه لم تكن فارغة، كان بها طفل صغيرا! اقتربت بتؤدة وحظر أستطلع أمره وضيقت عيني وركزت بينما أعدل من وضع النظارات فوق أنفي، لأكتشف أن هذا الصغير ليس سوى أنا! إنه نسخة أخرى مني في الثانية عشر ربما، تسمرت من الدهشة قليلًا فلاحظ الصغير وجودي، رفع عينه نحوي فرأيت الدمع يترقرق في عينيه،

تسربت منه دمعة، فشقت طريقًا فوق وجنته، لقد شقت الدموع وجهه بالمعنى الفعلي للكلمة، حتى أن الشقوق التي تشكلت من الدمع فوق وجهه بدأت تتفرع وتتزايد، مد الصغير يده نحوي وكأنما يستنجد بي، لكن مشهد وجهه المتشقق أفزعني وأعادني عدة خطوات إلى الخلف، بدأ وجهه ينهار متحولًا إلى تراب، فهالني الأمر واستدرت أجري من تلك الساحة، هرولت في الاتجاه المعاكس في نفس الممر الذي جاء بي إلى هنا، نعم أدري أنه وهم، لكننا نفزع من الوحوش في ألعاب الواقع الافتراضي المرعبة على الرغم من إدراكنا لكوننا داخل لعبة لمجرد أن عيوننا مخدوعة، أثناء جريي وفزعي وتفكيري لم أنتبه إلى ما أنا على وشك أن أصطدم به، اصطدمت بشيء أسود حي ذي مخالب، فوقعت على الأرض، وفقدت الوعي.

روح:

أجري وسط بيوت أرض شبورة متجهًا نحو الهرم وهناك عشرات بل مئات الناس الواقفين جوار المنازل، على الرغم من عدم قدرتي على تمييز ملامحهم وسط حالة الطمس العام تلك فإنني متأكد من أن أعينهم ترمقني، كما أن هناك صمتًا مقبضًا في العالم من حولي، حتى أني لا أسمع صوت أقدامي بينما أعدو، ربما أقف للحظة أو اثنتين لأتساءل عن

المكان من حولي وعن سبب وجودي فيه وماهيتي وما أفعل، قبل أن أتذكر فأعود إلى طريقي، أتابع وسط تخبطي ذلك حتى أصل إلى الهرم المدرج اللامع الضخم، في القصة كان الهرم ذهبيًا، لكني أراه الآن يلمع ببريق أزرق فقط، يُفتح الباب دون تدخل مني وكأن المكان ينتظرني، باب عادي لا شيء مميز فيه، أعبر الباب إلى الداخل فيغلق خلفي تلقائيًا، أنظر حولي وأمامي فتلجم الدهشة جسدي ولساني، كنت داخل متاهة أرض شبورة التي كنت أراها صغيرًا على صفحات قصة مصورة كما وصفتها القصة وعبرت عنها أيادي الرسامين وعالجها عقلي وسحر الحجر، المكان بالداخل يختلف عما يوحي به خارجه، من الخارج قد يبدو لك الهرم ضخمًا لكن في الداخل المكان كان لا نهائيًا، آلاف السلالم الصاعدة والهابطة والحلزونية في كل الاتجاهات والزوايا، كما أن السلالم على عكس القصة المصورة لم تكن ثابتة، كانت تتحرك يمينًا ويسارًا، تلتحم وتنفصل فتتغير خريطة المكان ومعالمه في كل لحظة، السلالم تؤدي إلى ممرات بدون أسوار وبهذه الممرات أبواب معلقة في الهواء دون جدران، كان عدد الأبواب داخل هذا المكان لا يُحصى، متاهة مركبة ومعقدة سيفنى عمرك بينما تبحث داخلها، وبينما أنا غارق في تأملي للمتاهة سمعت صوتًا يخاطبني من كل الاتجاهات، ويصدر من كل ذرة في الهواء:

«لقد أحببت اللعبة، أعجبني الأمر، أنت الذي اخترت مكان اللعبة لكني من وضعت قوانينها، لذلك أعدك أن روحك ستفنى داخل العالم الذي اخترته أنت».

كنت أدرك تمامًا أنها الجولة الأخيرة، ربما أقول لنفسي إن الخسارة والفوز في وضعي سيان، فلقد خسرت كل شيء بالفعل، إلا إن شيئًا بداخلي ما زال يريد أن يحارب لأجل ذاتي.

أمامي سُلَّمان، الأيمن يؤدي إلى الأعلى، سلم طويل لا أرى نهايته بوضوح، أما الأيسر فكان سلمًا صغيرًا يصعد عدة خطوات ثم يتفرع منه سلم آخر يؤدي إلى ممر معلق في الهواء على ارتفاع ثلاثة أمتار مني، وفي هذا الممر يوجد ثلاثة أبواب، رأيت أنه سيكون من المنطقي أن أبدأ بحثي من الممر ذي الثلاثة أبواب الذي يؤدي إليه السلم الأيسر، بالفعل صعدت ووصلت إلى الممر ثم خطوت داخل الممر المعلق في الهواء حتى أصبحت واقفًا أمام الباب الاول، استدرت ووقفت أمام الباب مباشرةً، ثم مددت يدي نحو المقبض وفتحته، حين تنظر إلى تلك الأبواب السابحة في الهواء قد تظن أنها لا تؤدي إلى شيء، لكنها كانت تؤدي إلى أماكن أخرى، وكأنها بوابات مكانية، خطوت داخل المكان الذي يؤدي إليه الباب بتؤدة وحذر مما قد ينتظرني، في البداية

كان المكان مظلمًا، ثم بدأ المشهد يتضح رويدًا رويدًا كصورة في شريط فيديو يتم تحميضها، السيراميك أضحى واضحًا، ومعه باقي أجزاء الحمام بما فيها حوض الاستحمام، لكن الحوض لم يكن خاليًا، هناك جسد غارق بداخله ويد زرقاء تتدلى من حافته، يد أمي.

عقل:

شيء ما دفعني لاختيار السلم الأيمن على الرغم من عزمي في البداية على اختيار الأيسر، ربما ارتأيت أن وصوله إلى نقطة عالية قد يسرع عملية بحثي، وبينما أنا آخذ في الصعود درت بمقلتيّ في الأبواب السابحة في كل اتجاه من حولي، أفكر في أن كيان الحجر يجب أن يكون خلف أحدها، حينها رأيت أحدًا ما في الهرم غيري، توقفت عن الصعود ونظرت له بتمعن فإذا به يرتدي نفس زيي ونظاراتي ويمسك سيف شبورة في يده، إنه بشكل ما أنا، كان أنا الآخر هذا يقف بعيدًا عني بأمتار في ممر أبواب باب من ثلاثة، وقبل أن أناديه أو أحاول أن أتواصل مع هذا الشخص أيًا ما يكن، تحرك السلم بي مبتعدًا عن مكان تواجد هذا الشخص الذي اختفى داخل الباب! لم يتوقف السلم الذي أنا فوقه حتى اتصل في منتصفه بممر يؤدي إلى باب، حاولت أن أعود للتركيز في رحلتي فتابعت الصعود بعد أن استقر السلم

ووصلت إلى الممر ثم إلى الباب وفتحته متمنيًا أن أجد فيه ما يسرني، وبالفعل سرت عيني بما رأيت، فلقد وجدت نفسي داخل غرفة حجرية تصرخ الرسوم فوق جدرانها بكونها في مصر القديمة، إنها جدران المعابد في زهوة عصرها، بينما أنا في دهشتي تلك انغلق خلفي الباب الذي دخلت منه، وتبع ذلك دخول شخص للغرفة، شخص يمكن بنظرة واحدة أن تستنتج أنه المسئول عن هذا المكان أو كاهن المعبد، صرخ الرجل وصاح بلهجة متوعدة، واستدعى صوته شابين قويين يحملان في يدهما رماحًا ذهبية حادة، أشار نحوي الكاهن معطيًا تعليماته إلى الشابين فأمكنني رؤية القلادة المطعمة بحجر أزرق فريد تتأرجح في رقبته، لكني لم أتوقف عند تلك الملاحظة طويلًا، فلقد تراجعت باحثًا بعيني عن أي مخرج للهروب من ذلك المأزق، لمحت بطرف عيني مدخلًا جانبيًا يقابل المدخل الذي دخلت منه، وبه باب يشبه الباب الذي دخلت منه وأبواب البوابة الطائرة، فهرعت نحوه قبل أن تمزقني الرماح الذهبية، بينما هما يلاحقاني في الخلف، خطوة واسعة فالأخرى، عبرت الباب وأغلقته خلفي بسرعة ووقفت بعدها ألتقط أنفاسي بصعوبة من شدة التوتر والرعب، لكن الضجة التي كانت حولي لم تسمح لي بالتقاط تلك الأنفاس، رفعت عيني أنظر فمصدر الضجة فإذا بمدرج حجري يتحلق حولي كملاعب كرة القدم به مئات المشاهدين

المتحمسين، تلك الأزياء التي يرتدونها أيعقل أنها... كان هناك باب حديدي يقابلني داخل ساحة المسرح، ارتفع كأبواب الجراجات فخرج منه رجل ضخم الجُرم يرتدي خوذة لامعة وتعلو الدروع صدره وذراعيه، بينما يحكم قبضته على مطرقة ضخمة، لا يحتاج الأمر إلى متخصص لإدراك أين أنا، أنا وسط قتال حتى الموت داخل مسرح روماني.

نفس:

كم من الوقت فقدت الوعي؟ هل فقدت الوعي من الأساس؟ وهل يمكن لمن في حالتي تلك أن يفقد الوعي؟ لا يهم ما حدث بالضبط، فبعد الاصطدام والسقوط فتحت عيني لأجدني ممددًا على الأرض أنظر إلى جذوع الأشجار التي تحاوطني وهي تنشر فروعها داخل السماء كما العروق في اللحم، شعرت بوخز في صدري حينها فحاولت أن أرفع رأسي قليلًا عن الأرض وهبطت ببصري نحو صدري فإذا به واقفًا فوق صدري يغرز مخالبه بي بينما يحك ريش جناحه الأسود بمنقاره، الغراب الصغير إياه، يبدو أنه شعر بحركتي وتغير وضع صدري قليلًا فكف عن نقر جسده ونظر إلى للحظة قبل أن يتكلم:

- من الجيد أن نلتقي، وأنك لم تغب عن الوعي.

- كيف؟ لماذا أنت هنا؟

- أخبرتك قبلًا أنني بطريقة ما مرتبط بك، أنا موجود أينما تحل.

قلت وأنا على تلك الوضعية نصف الممددة:

- حسنًا ولما أنت هنا في ذلك التيه؟ لماذا لا تحلق مبتعدًا، هل كنت تبحث عني؟

وجه منقاره وعيونه الداكنة للأعلى وقال:

- لم أحتج أبدًا لأن أبحث عنك، لقد كنت أنت دائمًا من تجدني، ثم إنني لا أستطيع التحليق عاليًا، شيء ما يمنعني من الارتفاع.. لم أكن يومًا قادرًا على الارتفاع عاليًا، وأنت لم ترني يومًا أحلق عاليًا، شيء ما يكبح جناحيّ، شيء داخلي لا أفهمه.

سَكَت وسكتُّ، ثم بدأت أقوم قاعدًا فقفز مبتعدًا عن صدري، التقطت سيف شبورة الذي كان واقعًا جواري ثم وقفت منتصبًا وبدأت أتحرك داخل التيه، فتبعني دون أن يتكلم محترمًا صمتي، بعد دقائق من التيه والصمت قلت:

- يمكنك أن تريح جناحيك فوق كتفي.

شكرني وفعل، في تلك اللحظة خطر لي خاطر بسيط أضحكني فخرجت مني ضحكة شديدة القصر، سألني الغراب

عن سببها فقلت:

- قبل أن أصل إلى هنا اكتشفت أن قطة أمي هي أمي نفسها، لذلك تخيلت لو اكتشفت أنك أبي.

قال: سيكون هذا أغرب من كل الأفلام الهندية الفانتازية مجتمعة، ثم إنني لا أستطيع إعداد معكرونة مقلية بنفس الجودة مثلًا.

قلت مبتسمًا: «لا أحد يستطيع». وانتبهت بعد قولي هذا إلى علمه بمعكرونة أبي فنظرت إليه مستغربًا بطرف عيني ولم أقل شيئًا.

بعد أن مشينا طويلًا وجدنا فتحة بين أشجار الممر على اليمين، أسرعت مع الغراب أعبر الفتحة فإذا بي داخل إحد الساحات الواسعة داخل التية، بمجرد أن أصبحت بداخلها سمعت صوتًا من جهة اليمين، نظرت نحو مصدر الصوت فإذا بي أرى أمي! كانت راكعة على الأرض تحتضن نسخة صغيرة مني في الرابعة أو الخامسة تقريبًا، كان أنا الصغير ينشج ويبكي بينما أمي تكرر في أذنه: «لا تخف يا عزيزي، سيلتئم الجرح بسرعة».

نعم كان هذا حين كنت في الرابعة حين تعثرت واصطدمت بالطاولة فتسببت بجرح جبهتي، لمست موضع الجرح في

جبهتي متذكرًا ذلك اليوم، بينما المشهد يحصل بالفعل أمامي وكأن عيني جهاز عرض يعرض المشاهد التي في عقلي، دخل أبي ذو الثلاثين عامًا إلى المشهد حينها وصاح: «دعينا نذهب به إلى العيادة». رفضت أمي بحدة وهي تشدني بقوة إلى حضنها وقالت: «لن أجعلهم يغرزون إبرهم في وجه ولدي، الأمر لا يستحق، سيكون على ما يرام». قالت جملتها الأخيرة وهي تنظر إلى عين نسختي الصغيرة، ثم أعادتها عليّ مرة أخرى وهي تحيط وجهي الصغير الدامع، وقالت: «أخبر أباك أنك على ما يرام، وأنك لا تريد أن تُشك بإبرهم». فهززت رأسي الصغير خوفًا وتحت تأثير كلمات أمي.

لهذا تركت تلك الندبة علامة لا تمحى مع الوقت.

أتاني صوت آخر من مكان مختلف داخل الساحة الواسعة فاستدرت نحو المصدر.

- ماما، هل سأحصل على أزياء جديدة للعيد؟

كان مصدر الصوت نسخة أخرى مني في العاشرة تقريبًا، وكانت النسخة تكلم أبي وأمي الجالسين على كرسيين متباعدين في الصالة، ردت أمي: «بالطبع سنفعل».

قال أبي وهو ينظر نحو أمي نظرة معترضة: «لكننا اشترينا زيًّا جديدًا بالفعل قبل فترة!».

قالت أمي متجاهلة كلماته: «نعم، ويمكننا شراء آخر».

خرجت نسختي الصغيرة سعيدة من إحدى فتحتين موجودتين في الساحة غير التي دخلت منها، بينما لم أتحرك أنا تابعت كمالة المشهد.

قال أبي بصوت خفيض:»نحن نمر بضائقة مادية!».

قالت أمي ردًا عليه: «لا يجب أن يشعر الولد بهذا».

- لكنه لم يعد صغيرًا، عليه أن يدرك أن ليس كل ما يطلبه أوامر.

- إنه في العاشرة! يجب أن يكبر شاعرًا بعدم احتياجه لشيء، وأن أباه قادر على تقديم الدنيا له على طبق من فضة.

أتذكر هذا الحوار لأني في صغري كنت أتنصت على حواراتهم، لكني لم أكن أفهمها أو ربما لم أهتم بأن أفهمها طالما أن أموري على ما يرام.

اختفى أبي وأمي لكن صوتهما لم يختفي، آتاني صوت أمي وأبي يتشاجران من أحد الممرات التي تتفرع من الساحة، صوت شجار أيقظ فيّ ذكريات قديمة. غادر الغراب كتفي وطار نحو الممر الذي يأتي منه الصوت، هرولت خلفه، توقف فتوقفت معه أمام فتحة تؤدي إلى ساحة أصغر، بداخلها كان

أبي وأمي، لن يختلفا كثيرًا عما رأيته قبل قليل، فقط أصبحا أكثر شحوبًا وبؤسًا، ماذا يحاول هذا التيه أن يفعل؟

صاح أبي في أمي: «لماذا ضربتِ الولد، ما مشكلتك؟».

قالت أمي منفعلة: «لا أدري، لم اقصد، أنا فقط..»، سكتت فقالت أبي وهو يحاول أن يقلل من حدة انفعاله:

- أنا مصاب بالسرطان، قد لا أبقى لكما، أعرف أنك تحتاجينني كما أحتاجك الآن أكثر من أي وقت، أخبريني ماذا بك؟

- أنا بخير.. كل شيء على ما يرام، ستتعافى وسيكون الولد بخير، لقد كنت أتكلم مع أبي البارحة وقال..

قاطعها أبي بحدة:

- أبوك! أسنعود لسيرة أبيك الذي يكلمك؟! لقد مات والدك مُنذ مدة.

صرخت أمي: «لا تكرر هذا أبدًا».

سكتا عند هذا الحد، ثم أدارت أمي رأسها ببطء نحوي وكأنها لاحظت وجودي، هل تراني؟ اقتربت مني فتراجعت خارجًا من الساحة لشدة توتري، هنا دخلت بدلًا مني نسخة أخرى مني أصغر سنًا، كان كالطيف، عبر من خلالي وتوجه

نحو أمي لأفهم أنه كانت تنظر له وليس لي رغم أننا واحد، أمسكت أمي بأنا الصغير بكلتا يديها وركعت على الأرض وسألته: «لماذا لست نائمًا وتقف عند الباب كالجواسيس؟».

قال أنا الأصغر بصوت مرتجف وكأنه يكلم ملك الموت:

- لماذا تصرخان في بعضكما؟

كان من الواضح على وجه أمي أنها تعاني بينما تحاول كبح انفعالاتها قبل أن تقول: «أبدًا، كل شيء بخير، كنا فقط نجرب التمثيل كالمسلسلات، أنا وأبوك من المستحيل أن نتشاجر.

لا أظن أن نسختي الصغيرة قد اقتنعت بالأمر، لكنه تجاوزه وسألها: «هل ستحكين لي حكاية؟».

- ليس اليوم.

- هل أنتِ غاضبة مني؟

بدا عليها الغضب وردت بنبرة حادة: «لا لست غاضبة لكني سأغضب إذا لم تعد لغرفتك الآن».

لاحظت ارتعاش الجسد الصغير قبل أن يعود من حيث أتى، قبل أن تدفن أمي وجهها في يدها لتنخرط في البكاء، فوقف أبي خلفها يربت على كتفها.

تبادلت النظرات أنا والغراب الواقف على كتفي فوجدتني

أقول: «لقد كانت تحاول حمايتي».

رد الغراب: «لقد جعلتك أنانيًا».

قلت مدافعًا: «كانت تحاول طمأنتي».

- فحولتك إلى شخص سلبي يهاب مواجهة مشاكله.

عدت أنظر إلى المشهد فوجدته قد اختفى، الساحة خالية، قلت: «يبدو الأمر كذكرى بعيدة جدًا، بل وكأنه لم يحصل، إنه يتلاعب بي».

قال الغراب بنبرة ناعقة غاضبة: «لا، لقد حصل، لكنك هربت منه طيلة عمرك، قررت أن تحذف تلك الذكريات حتى تحتفظ بصورتك المثالية عن أمك وطفولتك، لا تذكر أمك الغاضبة أو الحزينة أو اليائسة».

- لقد كانت أمي أكثر شخص أحبني وأحببته.

- لهذا لم تتقبل أنت أذيتها لك، ولم تستطع هي العيش مع ما سببته لك من أذى.

- كانت تريد أن تجعلني سعيدًا وآمنًا.

- لم يكن ما أرادته واقعيًا، إلى متى كانت ستحميك وتجعلك تهرب من مواجهة كل مشاكلك؟

قلت منفعلًا: «لم تكن حياتي مليئة بالمشاكل، كانت لدي فترات سيئة فقط».

حدق بعينيه الداكنتين في عيني مطولًا ثم قال بعد صمت طال: «هذا ما أعنيه».

عاد يطير متحركًا إلى الأمام عبر الممر، ناديته فقال دون أن ينظر نحوي: «اتبعني».

روح:

صدمتني رؤية يد أمي الزرقاء المتدلية من حافة الحوض، لكن ما صدمني أكثر كان رؤية تلك اليد تتحرك!

تمسك اليد بحافة الحوض ليستند الجسد النائم داخل الحوض وينهض، وقفت جثة أمي منتصبة داخل الحوض، بينما يقطر الماء من جسدها الشاحب الأزرق، ومن أماكن التحلل المتواجدة في أماكن مختلفة من جسدها، هالني المشهد فارتعشت، دارت برأسها ونظرت نحوي فإذا بعينيها داكنتين كالغربان، تراجعت خطوة للخلف فحاولت أن تنقض عليّ، فأسرعت أجري هاربًا من ذلك المكان، خرجت من الباب فخرجت خلفي، بسرعة فتحت باب آخر من الأبواب الثلاثة في الممر وولجت إليه، ثم أغلقت الباب خلفي بسرعة قبل أن تغرس أظافرها المتآكلة فيّ، وقفت أستند إلى الباب الذي

أغلقته في اللحظة الأخيرة وأنا أتنفس بصعوبة، بينما لا يزال صوت زمجرتها الوحشية يتنامى إليّ من خلف الباب، حين هدأت حدة ضربات قلبي بدأت أنظر إلى المكان الذي أخذني إليه الباب، أنا في غرفة عناية مركزة أعرفها، وأمامي سرير يستلقي به رجل أعرفه جيدًا.. أبي.

- خفت ألا أراك قبل أن أرحل.

كان أبي المتصل جسده بعشرات الأجهزة ذات الأزيز والصفير هو قائل تلك العبارة، فثُبت في مكاني ولم أبدِ أي رد فعل، استدرك أبي: «أرجوك اقترب».

كل شيء حقيقي تمامًا ويبعث الرغبة في قلبي، حتى أنني لم أقدر على رفض طلبه فاقتربت، نزع أبي حينها غطاء الأكسجين عن وجهه وتكلم:

- «سأموت الآن.. هنا.. أنت تعرف هذا، سأموت دون أن أطمئنك أو أشعر بحبك». صدر منه تأوه بسيط ثم أردف: «أنت تدرك الآن أن كل محاولاتك وما مررت به لم يكن سوى وهم، لم نتبادل أي حديث صريح يومًا، لم نتكلم حول أمك بل كانت أحاديثنا إعادة معالجة لذكريات أمك الموجودة في هذا العالم، لم نخرج معًا ولم نكن أبًا وابنه أبدًا، كل ذلك لم يكن سوى وهم قبلت به لتنكر حقيقة ما حدث».

كانت كلماته ثقيلة الوطأة على قلبي، رغم أنها تحكي عن أشياء لا أتذكرها بوضوح، إلا أنها تحطم العديد من الصور الجميلة الباقية في ذاكرتي، تحولها إلى ضباب وكأنها لم تجد، أو هي بالفعل لم توجد سوى داخل عقلي في الأساس.

سعل أبي بقوة، وتزايدت ضربات قلبه على جهاز، لكنه على الرغم من ذلك استطرد: «الحقيقة الوحيدة هي أنك تركتني أموت هنا على هذا السرير من المرض والألم والحسرة، وجئت تقف بجواري في اللحظات الأخيرة لتكفر عن السنوات التي تركتني فيها وحيدًا». أنزل جفنيه ببطء ثم أخذ نفسًا بصعوبة ليفتح عينيه ويستدرك ضاغطًا على كلماته: «كُنت.. أسوأ.. ابن.. تمنيته».

قال كلماته الأخيرة تلك ثم صدع بعدها صوت الصفير المميز لجهاز ضربات القلب في الغرفة، ورأيت علامات الحياة تنسحب من وجه أبي ليحل محلها اللون الأزرق، انهرت على الأرض حينها جوار السرير وشعرت برغبة في أن أبكي، كلماته ترن في أذني كالسوط تجلد روحي.. فتؤلمني، بكيت.. بكيت بحرقة ورحت أطرق بقبضتي على الأرض، أطرق بغضب وحرقة وندم، أطرق أملًا في أن تنشق الأرض فتبتلعني.

أثناء طرقي وبكائي لم ألحظ أن أحد أبواب الغرفة قد فُتح

ليُلقي عليّ بضوءه، سمعت صوت خطوات خفيفة على ملاط الغرفة فانتبهت وتوقفت عن الضرب على الأرض، رفعت رأسي أنظر لصاحب الخطوات فأتاني صوتها قبل أن أرى وجهها يقول: «بكّاء كبير كما كنت دومًا».

لم أحتج أن أرى الوجه لأعرف صاحبة الصوت، فقبل أن تلتقي الأعين عرفت أنها حورية.

عقل:

أنا الآن على وشك أن يتم سحقي بمطرقة مقاتل روماني، داخل ساحة قتال مسرح يعود إلى سنين قبل الميلاد، الجماهير من حولي تهلل باللاتينية، وعلى رأسهم رجال الدولة والأغنياء الذين يسهل معرفتهم من ملابسهم المطرزة بخيوط الذهب وحليهم، وموقع جلوسهم المميز، كان يتوسطهم رجل في الخمسينات ذو حضور قوي وطاغٍ، بمجرد أن وقف وأشار بيده لأعلى حدث شيء لما أتوقعه، لقد ضرب البرق الأزرق الأرض في نقطة بيني وبين ذاك المقاتل الضخم فتوقفت الجميع عن التهليل والصياح، أخذتني الدهشة للحظة قبل أن ألحظ السوار اللامع على ساعده، فلقد كان مزينًا بحجر أزرق أعرفه، هذا الرجل هو جوبتر، أو من عرفه الإغريق باسم زيوس.

في اللحظة الأخيرة انتبهت لمطرقة المحارب التي كادت

تفتك برأسي فعدت خطوة للخلف وتجنبتها، لقد كانت ضربة البرق تلك إعلان بدأ القتال على ما يبدو، رفع المطرقة الضخمة من جديد بسهولة وكأنه يرفع طفلًا رضيعًا ليوجه لي ضربة قاتلة، فجريت من أمامه كالفأر، لتتناهى إلى مسامعي ضحكات الجماهير في مدرجات المسرح، ليضحكوا كما يشاءون، من المستحيل أن أدخل مواجهة كتلك بسيفي هذا وخبرتي المعدومة وكرشي المتدلي.

جرى خلفي ليلحقني فتعالت أصوات الضحكات أكثر، حاولت أن أُطمئن نفسي متذكرًا أن هذا وهم، لكن حرارة الشمس فوق جلدي والعرق المتسرب من مسامي وأصوات خطوات ذاك الفيل خلفي لا يبدون كوهم إطلاقًا. بينما أنا على تلك الحالة من الفر دون كر، أبحث بعيني عن أي مخرج من ذلك المأزق، لاحظت وجود باب خشبي أزرق من أبواب المتاهة التي أتت بي إلى هنا، ففكرت أن أجري نحوه عله المخرج، إلا أن الأوان كان قد فات وقتها، فلقد تمكن ذلك الخرتيت البشري من محاصرتي بجسده في أحد جوانب المسرح عند الجدار، وتوجهت أعين المشاهدين فوق المدرجات نحونا بتحفز، رفع المقاتل مطرقته عاليًا استعدادًا لأن يطأ معدنها عظام جمجمتي، فلاحظت أنه يقف في وضعية حيث قدماه منفرجتان، ثم نزلت المطرقة بقوة فوق مكان وقوفي. بالطبع لم يحصل لي شيء، لقد استغللت

جسدي الضيئل في الهرب من فرجة قدميه، كان رد فعلي وحركتي أسرع مما تخيلت، كان الأمر أشبه بأن فكرت ثم نفذت ما فكرت به بمنتهى السهولة دون أي عائق فيزيائي! حين أدرك المقاتل هربي زمجر غاضبًا واستدار ليجري نحوي ليفتك بي، إلا أنني قررت أن أحاول الجري أسرع ففعلت، استجاب جسدي لمجرد الرغبة فقط، جريت بسرعة إلى باب المتاهة الذي رأيته ثم فتحته، لا زال المقاتل الخرتيت خلفي يتوعدني، يرفع مطرقته عاليًا ثم يقف قفزة واسعة تمكنه من الاقتراب بشدة مني، أرمي بنفسي عبر الباب وأغلقه خلفي بسرعة قبل أن تطالني المطرقة، فإذا بالباب يتحطم من خلفي بعد أن أغلقته إلى عشرات الأجزاء.. ويختفي.

كان المشهد الذي خرجت إليه مرعبًا أكثر من الذي هربت منه، أنا الآن أمام مدخل بيت حجري صغير وأمامي مئات الجثث الغارقة في الدماء والاسلحة والدروع المتكسرة، وفوق تلك الجثث كان لا يزال بعض الجنود يتقاتلون، أمكنني أن أميز أن أحد طرفي الحرب يتميز بملامح آسيوية ودروع ذات فراء وخوذات مدعومة بقرون ثيران.

من بعيد لمحت مجموعة أخرى مهاجمة من الآسيويين ذوي الخوذات المقرنة، فبدو لي كقطيع مهيب من الثيران يدهس كل شيء أمامه، وكان يتقدمهم رجل عظيم المنكبين

ذو شارب غريب وذقن خفيفة طويلة، عرفت من النظرة الأولى أنه قائدهم. انتشر الجنود الشبيهون بالثيران في كل مكان يذبحون كل من يقابلهم، بينما توجه قائدهم نحوي أنا بالتحديد، كان ينوي أن يزيح رأسي من فوق جسدي بسيفه إلا أنني وقفت وتصديت له بسيف شبورة، ضايقته محاولتي دفع سيفه فجزّ على أسنانه بغضب ليتفاعل الحجر الأزرق المثبت في الدرع فوق صدره مع ذلك الغضب، ليتحول فجأة أمام عيني إلى نصف ثور بشري ونصفه السفلي توحد مع جسد حصانه فأضحى أشبه بالمينوتور الإغريقي، أدركت أنها خدعة، وهم داخل الوهم، إنه يستخدم الحجر ليزرع تلك الصورة الوهمية في نفسي، لم أستمر معه في ذلك الصراع، اتبعت استراتيجية الفر دون كر التي اتبعتها قبلًا وجريت وأنا على يقين أنه سيلحق بي، شعرت بالخوف الشديد من هيئته حتى أنني خفت أن أموت هلعًا قبل أن يطالني سيفه، كنت أبحث بعيني عن باب، أي باب من أبواب المتاهة يأخذني بعيدًا عن هنا، بالفعل وجدت أحد الابواب متصلًا ببقايا بيت حجري مهدم، فجريت نحوه واقتحمته إلا أن سيف ذلك الثور البشري كان قد ترك أثرًا على كتفي، قبل أن أصفق الباب بقوة خلفي.

لأجد نفسي في موقف غريب في مكان عجيب وهادئ، كنت راكعًا على ركبتيّ داخل غرفة مكتب يزدان جدارها

بالعلم النازي بينما يداي مقيدتان، خلف المكتب وقف رجل يسند يداه الاثنتين على سطحه، رجل بشارب صغير وقصة شعر مميزة يحكيان كل شيء، نظر إلى الرجل بعيونه الحادة القوية وتكلم بعربية واضحة: «أرجو أن تكون قد استمتعت بالرحلة، لقد أسعدني اللعب معك».

ميزت خاتم أمي والحجر الأزرق في أحد أصابع يده، للمرة الأولى ألاحظ أن مخالب الطائر التي تقبض على الحجر بالخاتم قد صممت معقوفة لتُحاكي شكل الصليب النازي، انشغلت في تحليل وضعي والمشهد كله، استدرك:

- عقلك مرهق.. أليس كذلك؟ لا زال لدي الكثير.. يمكنني أن أدمر عقلك إذا أردت.

من يكلمني تحديدًا الآن؟!

كان سيف شبورة قد اختفى من يدي، لكن بدلًا عنه شعرت بأداة حادة كالسكين تنزلق من كم القميص الذي أرتديه، تصورت كما الأفلام إمكانية أن أقطع باستخدامه الحبال حول معصمي فألفيت الأمر يتم بسهولة، لقد حررت يدي فقفزت فوق المكتب وغرزت السكين في صدر هذا الرجل الذي يتمثل في هيئته الكيان، وكرد فعل على تلك الحركة لم يحرك هو ساكنًا بل ابتسم وقال:

- أتظن أن في إمكانك قتلي؟

نزعت السكين من جسد ذلك الشيطان، وقررت التراجع وربما الجري، جريت خارج المكتب، فلم يكن بابه يؤدي إلى مكان حقبة أخرى، كان بابًا عاديًا يؤدي إلى ممر، اصطدمت أثناء جريي مع السكين المدمّى بالجنود على الباب، فأخرجوا بنادقهم وبدؤوا يعمرونها، كنت في تلك الأثناء قد وجدت بابًا من أبواب المتاهة ففتحته ودلفت إليه دون أن أنظر إلى المكان الذي يوجهني إليه، أغلقت الباب خلفي بينما طلقات الجنود في طريقها لخرق جسدي، فخرقت بدلًا منه الباب وصنعت به عدة ثقوب.

لقد أعادني الباب إلى داخل الهرم مرة أخرى، لكني في مكان آخر حيث أمامي سُلّمان يؤديان إلى اتجاهين مختلفين، لقد نجوت، أو هو من أرادني أن أنجو، إن لعبته لم تنتهِ هنا، إنه فقط يستنفزني لأقصى مدى.

نفس:

تبعت الغراب في ممرات التيه الشجرية مدفوعًا بالفضول والأمل في الخروج، انحرفنا يمينًا مرة ثم يسارًا مرتين حتى وصلنا إلى ممر به عدة فتحات كالأبواب، ثبت الغراب في الهواء أمام الفتحة الأولى بينما لا يزال يحرك جناحيه ليحافظ على ارتفاعه في الهواء، فلحقت به ووقفت جواره

ونظرت عبر الفتحة، فوجدتنا نطل على ساحة مربعة وسط الأشجار بها سرير ومكتب صغير ودولاب مع مرآة وبعض الرسومات المعلقة هنا وهناك، وعلى السرير فتى مطلع المراهقة يذاكر، إن ما أراه نسخة من أساس غرفتي قبل سنوات، والفتى فوق السرير نسخة أخرى مني، لكنها أكبر من كل النسخ التي رأيتها، ربما في الثالثة عشر، دخل أبي إلى ذلك المشهد وبحوزته كرة قدم جديدة لامعة، وناولها إليّ بود حقيقي وسعادة وهو يبتسم، فتناولها أنا الصغير دون اهتمام بعد أن شكرت أبي دون حتى أن أنظر إلي عينيه، ما ترتب عليه أن أحبطت ابتسامة أبي وخرج خائب الرجاء.

طرأت فجأة بعض التغيرات على الأساس وتغيير موضع جلوس أنا الأصغر ليمسي جالسًا على كرسي المكتب، يدخل أبي إلى المشهد ثانيةً ويناولني عدة كُتيبات ومجلات، أشكره مرة أخرى دون أن أبدي أي تقدير لصنيعه، يتبدل المشهد من جديد، ليتكرر نفس الموقف أمامي عدة مرات، في كل مرة يعطيني أبي شيئًا جديد فآخذه دون اهتمام مرات، أو آخذه مع كلمة شكر مقتضبة في مرات أخرى، وربما في إحدى تلك المرات أصحب شكري بابتسامة بسيطة، الغرفة تتغير تغييرًا بسيطًا مع كل مشهد يمر، تظهر مكتبتي وتكبر وأكبر أنا معها في العمر، مرّ أمام عيني شريط قصير ملخص عن حياتي مع أبي، قال لي الغراب وأنا أشاهد هذا:

- لقد حاول جاهدًا أن يخطب ودك ويتقرب لك.

قلت: لم تكن الهدايا ما أحتاجه.

- لقد ظن أن تلك هي الطريقة التي ستشعرك بالأمان، ظن أن الأمان المادي سيكفل لك عيشة سعيدة ويعطيك الحب.

- لماذا لم يحاول أيٌّ منا التواصل مع الآخر بشكل صحيح؟

- لقد كان أبوك يتيمًا منذ كان رضيعًا، علم نفسه وعاش يكافح ليعيل نفسه ويعيل جدتك المريضة وعمتيك، لم يعرف أبوك معنى الأبوة، ولا كيف يتواصل معك، وكنت أنت صغير السن حينها، لا تلم نفسك ولا تلمه، لقد حاول بطريقته.

بعد أن أنهى كلامه، طار نحو فتحة أخرى من فتحات ذلك الممر الطويل، وتوقف أمامها، فتبعته، وكان ما رأيته هذه المرة لا يختلف في غرابته عما ما سبق، هذه المرة رأيت مقهى مليئًا بالكراسي الخالية عدا كرسيين، يجلس عليهما أنا في مرحلة متقدمة من مراهقتي قبل العشرين، وعلى الكرسي الآخر جلس رفيق وهو في نفس العمر، باديًا عليه الغم والحزن، قال رفيق:

- حاولت أن أكلمها لكنها قامت بحظري من كل وسائل التواصل الممكنة، حين لاحظت ذلك شعرت بالخدر في

جسدي، ونمت بعدها أكثر من عشرين ساعة، لقد كنت متألمًا ولا أريد مواجهة العالم.

على الجانب الآخر من الحوار جلس أنا المراهق يقلب في هاتفه الجوال وهو يهمهم بعدم اهتمام حقيقي، وحين انتهى رفيق من كلامه، قال أنا: «لا يهمك.. أنت تضخم من أمر تلك الفتاة، إنها حتى ليست بذلك الجمال.. فكّك.. ودعني أحدثك عن أمر مهم».

يتغير المشهد قليلًا، شكل الكراسي من حولنا والطاولة وملابسي أنا ورفيق ووضعيات جلوسنا، إنه حوار آخر بيني وبين رفيق، يقول الأخير بغضب:

- لماذا تتكلم وتتصرف وكأن شيئًا لم يحدث؟!

سألت أنا بعدم فهم حقيقي: «ماذا تقصد؟».

قال: «ماذا أقصد! لقد سببتني أثناء شجارنا الأخير ثم قلت إنك لا تريد أن تعرفني وحذفتني على فيس بوك، واليوم ترسل لي طلبًا جديدًا على فيس بوك وتتكلم وتطلب مقابلتي وكأن شيئًا لم يكن!».

ابتسم أنا المراهق وقال ساخرًا من ردة فعل رفيق:

- «لا تكن عبيطًا، نحن أصحاب، لا تركز في هكذا أمور

تافهة، لم يحدث شيء يستدعي كل هذا».

كنت أتابع هذا الحوار الدائر داخل المشهد مع الغراب وقد بدأت أدرك كم كنت صديقًا بغيضًا. لم تتوقف المشاهد عن التوالي، ظهر مشهد آخر لي أنا ورفيق في سن أقرب لما نحن عليه الآن، أوائل العشرينيات، يبدو في هذا المشهد رفيق مهمومًا محزونًا، يسأله أنا بلا اهتمام واضح في نبرة الصوت عن سبب كآبته، فيرد بابتسامة باهتة: «لا شيء مهم.. لم أنم جيدًا». أتخطى حينها الأمر بسرعة وأشرع في التطرق لأمر آخر، بعد هذه الذكرى، أدركت للمرة الأولى حقيقة ما كانت عليه علاقتي مع رفيق، قال الغراب:

- لم تكن يومًا مهتمًا حقًا بمشاكله، وقد أدرك هو هذا مُنذ سنين، وكف عن الكلام، تعامل مع واقع أن كل الأمور بالنسبة لك بسيطة وغير مهمة، حتى أمسى يشعر أنه من العيب أن يعبر لك أحيانًا عن كرهه لذلك.

وقفت أسمع الغراب أثناء مراقبتي لمشهد رفيق المهموم يمشي جواري بينما أنا أتكلم ولا أتوقف عن الكلام دون أن ألقي له بالًا.

تركني الغراب وحلق للمرة المئة تقريبًا وتوجه نحو الفتحة الثالثة والأخيرة في الممر، حين لاحظت ذلك لحقت به هذه المرة بخطوات متمهلة وكلي ترقب لما تخبئه لي تلك الفتحة

من وقائع، حين وصلت له أخيرًا ونظرت إلى ما ينظر إليه الغراب رأيت ما توقعت أن أراه في تلك المرحلة، ساحة أخرى صغيرة وسط الأشجار في أحد زواياها جلست أنا وحورية على طاولة من بين عدد من الطاولات المتراصة في الساحة، وكان الجدار المكون من جذوع الأشجار قد ازدان بشعار مقهى الدونتس الذي كنا نفضله، قالت حورية بلكنة رقيقة:

- «we need to talk.» ثم استدركت باقي كلامها بالعربية: «لدينا العديد من الأمور و المشاكل التي علينا مناقشتها».

رد أنا الجالس أمامها على الطاولة:

- أي مشاكل؟ أنا أرى أننا أفضل من أي اثنين عرفتهما أو رأيتهما؟

قالت منفعلة: «حقًا لا ترى أي مشكلات؟! حتى إذا قلت لك أنني أشعر بعدم الأمان».

قال أنا متململًا: «حورية.. نحن بخير لم يتغير شيء.. أنا كما أنا مُنذ عرفتيني.

- إذًا أنا المشكلة؟

اندفع أنا يقول: «لم أقل هذا، ربما تلك فترة ضغط فقط بسبب كليتنا العملية والمجهود الكبير الذي تبذلينه مؤخرًا، سنتخطى هذا مع الوقت.. لا تقلقي».

قالت حورية بعد أن ابتلعت ريقها بعدم اقتناع: «تمام».

قلت أنا بعد أن رأيت المشهد وسمعت الحوار مكلمًا نفسي:

- كالعادة لم أكن مهتمًا بمعرفة المشكلة طالما لا أراها.

قال الغراب معقبًا على كلامي: «لم تكن تريد أن تراها».

لحق كلماته تلك تبدل المشهد أمامنا، أنا وحورية نبقى العنصران الثابتان بينما يتغير المكان وشكل الطاولة والأزياء، وكالمشهد السابق تمامًا تبدأ حورية في الكلام:

- أخبرك أنني تعيسه وغير مطمئنة.

قال أنا منفعلًا بصوت خفيض: «أنا بالفعل لا أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل، صدقيني لا أفهم أين المشكلة، ولا أعرف حلها بالضرورة، هل المشكلة في تقدمي لخطبتك؟ أم في أنني مضغوط ومتخبط مؤخرًا؟ أيًا كانت المشكلة فهي فترة مؤقتة وستمر، وتحل كل المشاكل».

قالت: «أنا دائمًا أتحمل ومطالبة بأن أتحمل، حتى أصبح الأمر عاديًا، وأصبحت لا ترى أنني أتحمل شيئًا».

- إذًا.. أخبريني ماذا أفعل؟

قالت بجدية: «هذه المرة لن أخبرك بما عليك أن تفعل.

كنت أراقب هذا وقد بدأت أفهم كلماتها وأشعر بها بوضوح للمرة الأولى، لقد كانت تحاول وتحاول في كل مرة وأنا لم أتعامل مع محاولاتها بجدية، بل كنت أحيانًا أرى محاولاتها مصدر إزعاج، أحملها مسئولية وجود المشكلة وإيجاد الحل، قال الغراب ردًا على أفكاري وكأنه يسمعها:

- أضف لذلك، كنت دائمًا مترددًا وخائفًا من أخذ أي خطوات جدية إيجابية نحوها قد تحملك أي مسئوليات حقيقية في وقت قريب، لقد أحسست بذلك، كنت دائمًا تتكلم عن تطلعاتك أنت وعن حياتك أنت.. وليس حياتكما.

رأيت ما يشبه الدمعة تنحدر من عين الغراب أثناء كلامه فعجبت من كونه يبكي! ولم أكن متعجبًا من بكائه لأنه غراب، فهو يتكلم أساسًا فلا عجب، لكن ما عجبت له هو بكاؤه وإحساسه بالأمر وكأنما يعنيه!

انسحب الغراب من جواري وطار نحو وجهة جديدة، ترددت في البداية بينما أتبعه وفكرت في التراجع، لكن صوت البكاء الذي سمعته قادمًا من الممر الذي طار خلاله الغراب هز شيئًا داخلي، وجعلني أسرع الخطى.

روح:

- بكّاء كبير كما كنت دومًا.

رفعت رأسي لأنظر إليها، لعينيها الصغيرتين وأنفها الدقيق، وشفتيها المرسومتين بعناية، وقرط الفراولة المعلق بأذنيها، أردفت: «هكذا تتعامل مع كل مشكلاتك، تبكي، وكأن البكاء سيحل أي شيء، لقد استنفذت مشاعري حتى لم أعد قادرة على أن أحبك كما كنت.. آسفة.. لكنك آذيتني».

تمتمت وأنا أحاول أن أقف باسمها وبكلمات الاعتذار وطلب للغفران غير واضحة، فبدأ وجهها في الاحمرار وتلألأت الأدمع فوق مقلتيها وقالت: «لقد أعطيتك الكثير من الفرص وقبلت الكثير من الاعتذارات، لكن آسفة، أنت آخر خيار ممكن بالنسبة لي».

نزلت كلماتها تلك على روحي كدلو ماء بارد، استدارت معطية ظهرها لي، لتعود من الباب الذي أتت منه، فتبعتها بينما أناديها فاصطدمت بمجرد أن عبرت الباب بشيء لم أتوقعه، ألفيت نفسي في مدخل عمارة أنظر إلى دراجة نارية دهشت أحدهم، اليد الملتوية الظاهرة أسفل الدراجة أعرفها، الملابس الزرقاء الغارقة في الدماء، حورية ولا شك.

سقط قلبي من خلف أضلعي، تراجعت للوراء وأغلقت

عيني هاربًا من المشهد، وأنا أردد: «هذا لم يحدث، هذا ليس حقيقيًا». حين عدت من الباب الذي دخلت منه اصطدمت بأحدهم، نظرت لمن صدمته فكانت حورية، قالت بينما تذرف الدمع: «لكن ما حصل لرفيق عمرك حقيقي».

سمعت صوت رفيق قادمًا من خلف باب ظهر خلف حورية، أسرعت نحو الباب وفتحته، فكدت في غمرة اندفاعي أن أسقط ويتهشم جسدي، لكني تراجعت خطوة في اللحظة الأخيرة، لقد فُتح الباب على منحدر جبلي يطل على وادي، صوت رفيق يأتي من أسفلي واضحًا، أنظر فإذا به يتمسك بنتوء ما في المنحدر الجبلي بيد، ويمد اليد الأخرى نحوي، قال: «لا تتركني لأسقط مجددًا، لا أريد العيش عاجزًا». تجمدت أمام هذا المشهد لثوان أستوعب ما يجري، فاستدرك رفيق والذعر واللوم يجتمعان في عينيه:

- ستخونني مجددًا؟ ستتركني لحالي رغم أن لديك الفرصة لإنقاذ..

كاد يسقط، لكني أمسكت معصمة في اللحظة الأخيرة، وحاولت شدة لأعلي، في تلك الأثناء سمعت صوت حورية من خلفي تقول: «كما توقعت، البقاء معك هاوية، لذلك كان علي الرحيل قبل أن أسقط فيها أنا أيضًا، لقد انتهت حكايتنا». شعرت بها تستدير خلفي لترحل، فاستدرت

بجسدي نصف استدارة جهة اليسار بينما أقبض على معصم رفيق بيدي اليمني، لأتمكن من القبض على معصم حورية بيدي اليسرى، جثوت على الأرض بركبتي حتى لا أشد إلى الهاوية وجززت على أسناني وأنا أحاول أن أرفع رفيق بيد واحدة وقلت لحورية: «لن أدعك ترحلين مجددًا، لن ترحلا هذه المرة».

عقل:

كان عليّ أن أتابع رغم ما أصابني من إرهاق، يجب أن أدلف لباب آخر، الخيارات في ذلك المكان لا نهائية، ولا يمكن توقع ما الذي تخفيه تلك الأبواب خلفها، قبل قليل كان جنديان نازيان على وشك أن يفجرا رأسي، فما التالي بعد ذلك؟ ديناصورات تقضم الرؤوس! الكيان يقبع خلف أحد أبواب ذاك المكان، لكن لا يمكنني الجزم بمكانه، ربما أقضي عشرات السنين في البحث هنا دون حل، لكنه موجود، هكذا كانت القاعدة في أرض شبورة، وهذا المكان صمم تبعًا لخيال القصة، لذلك يخضع لقواعدها.

صعدت سلم قابلني على يميني أثناء تحليلي للوضع الراهن، فأوصلني السلم إلى ممر يحمل بابين، عليّ أن أختار واحدًا منهما رغم أنني متأكد أنني لن أجده خلف أحدهما، أنا أدخل للمكان الذي يختاره هو لي وليس الذي أختاره

أنا، لكني سأخوض تلك اللعبة للنهاية علّي أصل إلى السبيل الصحيح، أشعر أنني مستسلم ومنقاد إلى مصيري أيًّا يكن، وكأني أستحقه، هناك ألم يتعاظم بداخلي يثقلني، فتحت الباب الأيمن وعبرته، فكان ما رأيته مختلفًا عن كل ما سبق، لقد دلفت إلى ممر مظلم مبني بتكنولوجيا حديثة نوعًا، ربما تنتمي إلى القرن الماضي، لم يكن هناك مصادر للضوء، فقط الأضواء التي تصدرها الكشافات الملحقة بخوذاتنا، لم أكن وحدي، كنت ضمن مجموعة مكونة من خمسة رجال، أنا وثلاثة رجال في الأربعينيات ورجل في الستين يقودنا، تكلم أحد الرجال بلغة ألمانية فهمتها رغم عدم دراستي لها:

- هل هذا هو الممر المؤدي للغرفة المطلوبة؟

رد الرجل الذي يقود المجموعة بنفس اللغة:

- نعم من المفترض أن نجد كنزنا هنا.

قال رجل آخر وكأنما يكلم نفسه: «من يصدق أن يُبنى مكان كهذا وسط جبل جليدي مجهول على الحدود الروسية!»

قال قائد المجموعة: «هذا رجل خطط لحكم العالم، والأساطير حوله لا تنتهي، المشكلة أن الناس يتناقلون الأساطير عنه دون تصديق فيها، لكن تصديقي أنا وأنتم

لحقيقة وجود هذا المكان وما فيه هو ما أوصلنا إلى هنا».

رد الرجل الذي يتقدم المجموعة: «نعم من المفترض أن نجد كنز هذا الرجل هنا».

تابعت السير معهم دون إرادة مني بينما أحاول فهم فحوى الحديث لكن جملهم كانت غارقة في الغموض. بعد دقيقة من السير انتهى الممر بباب حديدي، فأمر قائد المجموعة أحد الرجال بإخراج صاروخ تقطيع المعادن من بين معداتهم، ففعل الرجل ووصل تلك المُعدّة بمولد كهربائي صغير، استدرك القائد: «لا بد أن أنظمة الأمان قد انهارت بعد كل تلك السنين، هذا سيسهل مهمتنا». تم قطع القفل المعدني وفُتح الباب، فعبر الرجال الأربعة وأنا خلفهم إلى داخل الغرفة المصفحة الفارغة تمامًا، عدا من صندوق معدني، تحرك الرجل صاحب الصاروخ نحو الصندوق لفتحه بعد أن تفحصوه وبدأ في تقطيعه بحرص، إلى أن تمكن من إخراج ما يحتويه، الخاتم! أمسك قائدهم الذي بدا مألوفًا لي الخاتم الفضي ذو الحجر الزمردي الأزرق سداسي الأضلاع والنقوش الحلزونية الحادة بيده وتأمله بانبهار بالغ، بينما تضاحك الجمع وهنئوا بعضهم وهنئوني بالألمانية فوجدت نفسي أرد بها أنا أيضًا، ليحدث بعدها ما لم يتوقعه أي أحد، أخرج قائد المجموعة من جيبه جهاز تحكم صغير وضغط على أحد

أزراره فشعرت بموجة ألم تسري في جسدي، لم أكن وحدي، بل الثلاثة الآخرين حدث لهم نفس الشيء فسقطنا جميعًا على الأرض نرتعش، لقد صعقنا بالكهرباء! نطق أحد الرجال بصعوبة غير مصدق: «أجهزة التـ تبع!».

قال القائد: «نعم.. كانت أجهزة لصعقكم كهربائيًا، أنا مضطر، هذا الشيء لا يجب التعامل معه كقطعة أثرية في متحف، لقد حرك ذاك الحجر حروبًا وأسقط وأقام حضارات، سيبقى هذا معي». قلب عينيه بيننا: «للأسف.. لقد كُنتم رجالًا مخلصين وشجعان». قال آخر: «ستندم.. لن تفلت». توقف القائد بعينيه عندي وحدق إليّ مباشرةً وقال: «لذلك لزم أن تكون تلك الرحلة سرية، لا أحد يعلم بوجودنا هنا غيرنا.. ولن يعلم أحد». انتهى ثم صعقنا مرة أخرى، لكنها صعقة طويلة وأخيرة، أدركت قبلها أخيرًا ماهية ذلك الرجل، لقد كان جدي! بعد ثوان من الصعق المستمر، أصيب جسدي بالخدر، وفقدت الوعي.

حين استعدت وعيي وجدت نفسي في غرفتي، فوق سريري وأسفل لحافي، حتى أنني ظننت للحظة أن كل ما مررت به مجرد حلم، بل كابوس، لكن ما نفى تلك الفكرة هو أن الغرفة لم تكن كما أذكرها، بل هيئتها ومحتوياتها تعود إلى زمن آخر مضى، لاحظت أيضًا أن جسدي الظاهر من

أسفل اللحاف أضحى صغيرًا، أنا في جسد طفل الآن، لم أركز على هذا طويلًا فلقد أخذ صوت أمي الجالسة على الفراش جواري كل انتباهي، كانت توليني ظهرها، بينما تتحدث إلى شخص ما غير موجود، حاولت أن أتحرك، أن أمسك بها، ألفت انتباهها وأحتضنها لكني شعرت بحركتي مقيدة، عاجز عن الحركة جسدًا وروحًا وعقلًا، ثم توقفت عن المحاولة حين رأيت جدي يتجسد أمام أمي من العدم، قالت أمي له: «هل عليّ أن أفعل ذلك الآن؟»، فرد جدي أو الشيء الذي يتجسد في هيئته: «نعم، كي يبرأ زوجك ويحصل ولدك على الحياة السعيدة التي تريدينها له، لقد سبق وقررت بالفعل، ستأتين لتعيشي معي.. في الجنة». أنهى كلامه ثم مد يده إلى أمي فأمسكت بيده وقامت تتحرك معه نحو باب الغرفة، بينما أنا عاجز ومقيد مكاني لا أستطيع حتى تحريك لساني، لا ليس هذا، لا أريد أن أرى هذا يحدث، لم يستمر قيدي طويلًا، فبعد دقيقة ربما تمكنت من الحركة، فقفزت من سريري وخرجت من الغرفة لألحق بها، مررت بصالة بيتنا ثم ذهبت إلى الحمام، أمسكت المقبض ودفعت الباب لأفتحه بينما أنادي أمي، لكني لم أجدها ولم أجد الحمام!

أنا في المختبر أو المعمل أو أيًا ما يكون ذلك المكان الذي أوهمني فيه الكيان أنه سامر، هل قابلت سامر من قبل ولو مرة حتى بعد أن كبرنا؟ لا أذكر حقيقة كما لا أذكر الكثير

عن هذا المكان، لكني أعرف أن كل محاولتي الماضية كانت تبدأ منه وتعود إليه، حين دخلته في البداية كان خاليًا، لكن سرعان ما خرج لي يمشي بثقة وثبات من خلف أحد الأجهزة العملاقة بالمكان، صديق طفولتي سامر.. أو الكيان، نظر في عيني مباشرةً ثم ابتسم وقال:

- كان عليك أن تفهم أنك تحت سيطرتي بالكامل مهما تلاعبت بقوانين اللعبة، كنت أنت من وقع في فخي، قسمتك وتلاعب بك كيفما أريد، إن نفسك الآن ضائعة، وروحك مقيدة، وعقلك..»، توقف عن الكلام للحظات بينما يرمقني بنظراته الساخرة ثم أردف: «.. مُتعب إلى أقصى حد، أنت مسلوب الإرادة الآن، لا يمكنك محاربتي أو المساس بي، لقد كانت قصتك ممتعة أعترف بهذا، لكن لكل الحكايات الممتعة نهاية، ولا يشترط أن تكون سعيدة».

مشى نحو باب من أبواب المتاهة ظهر من العدم وسط المختبر وفتحه، فوجدت قدميّ تمشيان نحو الباب دون تحكم مني، ووقفت حين وصلت عتبة هذا الباب لأحدق في المشهد الذي يطل عليه، كان يطل على الهاوية، خطوت إلى الداخل خطوة فأصبحت أقف فوق السور الحديدي لأحد الكباري بينما النهر يمتدد أسفل قدمي وسماء الفجر تمتد أعلى رأسي ليتقابل الاثنان أمامي عند خط الأفق، النهر

يصدر لحنًا هادئًا يدعوني للمجيء، لأن أرتمي في أحضانه واعدًا بأن ينتهي كل هذا فأصبح أخيرًا على ما يرام، لم يكن لي خيار الرفض، فلقد كان جسدي ثقيلًا بالفعل وقدماي تميلان لأن تزلا، أظن أنني لو امتلكت خيار الرفض ما كنت لأرفض، ربما بداخلي حقًا أردت أن ينتهي كل هذا، ربما هذا المصير وهذا ما أستحق، فردت ذراعي وتركت جسدي يميل واحتضنت النهر الأزرق.

نفس:

تبعت الغراب في الممر الذي طار عبره، وصوت بكاء الطفل القادم من نهايته يمسي أقرب وأقرب، قادنا الممر في الأخير إلى ساحة من جملة الساحات الواسعة وسط المتاهة، وكانت بحجم غرفة نومي وبها سريري ودولابي ومكتبي ورسومي البسيطة التي كنت أرسمها في صغري، لم تكن الغرفة خالية بالطبع، كنت أنا هناك، نسخة صغيرة مني في الثالثة عشرة، أجلس منكمشًا فوق السرير وأبكي، بينما الغراب الذي سبقني يقف فوق الفراش جواري.

أشار الغراب لي برأسه أن أقترب فاقتربت، جلست جوار أنا الأصغر سنًا فانتبه لوجودي ورفع بصره من حجره وحدق فيّ، كان الأمر مختلفًا عن كل الصور والذكريات التي رأيتها قبلًا هنا، إنه يراني ويتفاعل معي، تمامًا كالغراب، وكأنه كيان

ضائع هنا مثلي، تبادلت النظرات مع الغراب ثم مع الفتى الصغير قبل أن أقرر الكلام: «لم تبكي؟».

ابتلع أنا الأصغر ريقه ثم نشج وقال: «لقد رحلت أمي، تركتني، رأيتها تخرج من هذا الباب ولم أمنعها». كان يتحدث بينما يشير إلى المدخل الذي جئت منه ويقع في نفس الموضع الذي من المفترض أن باب غرفتي يوجد به، أدرك عن ماذا يتكلم، لقد عشت لسنوات ألوم نفسي على أنني لم أحاول منعها من الخروج تلك الليلة من باب الغرفة، رغم أنه ليس ذنبي ولم يكن بيدي، ربما لا زلت ألوم نفسي حتى اليوم في بعض الأحيان، تكلم الغراب حينها:

- لم يكن هذا ذنبك يا فتى، ربما كان هذا هو الطريق الأفضل لك، ربما تلتقي فيما بعد بأصدقاء وأحباء يعوضونك ولو قليلًا عما فقدت.

لم يبد الصغير مستغربًا من أن الغراب يتكلم، لكني لم أقف عند هذا وعلقت: «صحيح.. أتعرف بعد أن ماتت أمي أصبح لدي الكثير من الكتب وتعلمت الرسم وصار عندي صديق أحبه ويحبني، وفتاة جميلة تحبني أيضًا، كان الفقد مؤلمًا في البداية، ربما لا يزال يؤلم بعض الشيء حين أذكره الآن، لكني على الرغم من ذلك كنت سعيدًا بشكل حياتي وما آلت إليه، أخبرك أيضًا، حين تخيلت حياتي حيث أمي تبقى حية،

اكتشفت أنني لم أكن لأحب حياتي حينها، واكتشفت أن موت أمي غير كل شيء نحو أفضل مسار ممكن، ورغم أنني لا زلت أفتقدها..»، قاطعني الغراب مكملًا كلامي: «فإن بعض الأشياء لا يمكن منع حدوثها».

سأل أنا الصغير: «إذًا تقول أن عليّ تقبل رحيل من أحب فربما هذا أفضل لي؟».

سكت حينها ولم أجب، كانت الصياغة المباشرة للسؤال مباغتة، لذلك فكرت بتمعن في إجابة مستجمعًا كل ما لدي من ذكريات وخبرات، بينما أنقل بصري بين الفتى الصغير والغراب.

روح:

«لن ترحلا هذه المرة».

كنت أصرخ بها بينما أقبض على معصمي حورية ورفيق بكل ما فيّ من عزم، تحاول حورية الفكاك فأجذبها أكثر، أكاد أفلت حينها رفيق فأنتبه وأجذبه نحوي أكثر، كنت مقيدًا، كمن تم دق أطرافه فوق صليب خشبي، كنت أتألم، وتتألم حورية من إحكام قبضتي على معصمها، وحتى رفيق كان يتألم من صخور المنحدر التي أدمت جسده بفعل احتكاك جسده بها، أشعر أن أوصالي تكاد تمزق، وبرغبة عارمة في

البكاء، البكاء خوفًا من رحيلهم مرة أخرى، وألمًا من تمسكي بهم وتألمهما أيضًا.

عقل:

هذه المرة لم يكن سقوطًا عاديًا كأي مرة، لقد كنت أغرق، كنت أفنى في ذلك النهر الأزرق، أحتضنه ويحتضنني، كنت مستسلمًا.. مرهقًا.. ومتعبًا.. لا أقوى على المحاولة ولا أريد، فهذا آمن، هناك أصوات تقطع ذلك السكون البديع، إنها النداءات التي أسمعها من آن لآخر تعود مرة أخرى، إنها واضحة لكن لا تزال غير مفهومة وبعيدة، أشعر مع تلك الأصوات بالألفة، أريد أن أتحرك نحوها، أن أعرف مصدرها وأصحابها، لكني لا أقدر، أشعر أنني مقيد، وجسدي مستسلم تمامًا، ويستمر سقوطي.

نفس:

طال صمتي ولم أرد على سؤال أنا الصغير، فقال الغراب:

- «عليك تقبل ذاتك بماضيها وحاضرها». قال كلماته تلك بينما يحرك منقاره بيني وبين أنا الصغير: «أنتما كالبرق والرعد، السبب والنتيجة، لن يكن لك مستقبل، لن تجد ذاتك وستبقى في غرقك للأبد».

أخذت نفسًا عميقًا ثم جلست بجوار الصغير على السرير

ولففت ذراعي حوله، وضممته إلي وقلت أخيرًا:

- «نعم.. سيكون عليك تقبل رحيل من تحب أحيانًا دون ندم، حتى لا تؤذيهم ولا تؤذى أنت، هذا إذا كنت تحبهم حقًا».

روح:

ما هذا السلام الذي غمرني فجأة بينما أبكي وجعلني أكف؟ بل حتى ابتسم! هذا التقبل لما في ماضيّ وحاضري، ووجدتني أقول لنفسي: «عليّ تقبل ما حصل حتى لا أتأذى وأؤذيهم». قبل أن أفلت يد رفيق وحورية في نفس اللحظة.

عقل:

وكان قيدي قد انفك فجأة، أصبحت قادر على الحركة، قادر على السباحة، كما أضحت الأصوات أكثر قربًا ووضوحًا، حتى أنني أضحيت قادرًا على التعرف على صاحبي النداءات، كان صوتاهما يوجهاني نحو باب الخروج من هذا الغرق الأبدي، باب رأيته يطفو على سطح الماء وسط النور، فدفعت جسدي لأعلى وسبحت.

نفس:

سألني أنا الصغير سؤالًا لم أتوقعه: «إذًا أنت لا تكرهني؟».

قلت بسرعة: «لا أبدًا، لم تقول شيئًا كهذا؟!».

قال بينما يعود بنظره إلى ما بين قدميه المضمومتين: «هذا لأنك لا تتقبلني، أنا أعرف من أنت وأعرف أنك لم ترني يومًا سوى جزء يجب التعايش معه لكنك لا تتقبله، فأنا ماضيك الصعب، سقطاتك، ألم قلبك وأوجاعك، لم أرد سوى أن يتم تقبلي، أن تتقبلني أنت كما حاول من أحبوك تقبلي، لكن ما فائدة تقبلهم هذا إذا لم تتقبلني أنت نفسك، إذا لم تساعدني في أن أكبر وأتعلم، بدلًا من تركي هنا غارقًا في ترددي وخوفي».

لم يكن سوى طفل خائف يطلب يد المساعدة، طفل حملته فوق طاقته من الألم بدلًا من أن أساعده على النضج، قال الغراب:

- عليك تقبل ذاتك، تقبلنا، حينها ستجد نفسك الضائعة، وستعثر على طريق الخروج من متاهتك.

نظرت للغراب بتمعن وتركيز، لم أكن أراه بعيوني، بل كنت أراني هذه المرة بعيونه، وللمرة الأولى أدرك أنه ليس سوى جزء ضائع من ذاتي داخل كل هذا تمامًا مثلي، الجزء المنسى والمنفي والضائع من نفسي، كل ما خفت أن أعترف به وأواجهه، يحاول إرشادي وإرشاد نفسه، مددت يدي نحوه فقفز فوقها، رفعته إلى كتفي وقلت: «أنا أتقبلكما وأحبكما

كثيرًا». فتمسح الغراب برقبتي، وضمنى الصغير أيضًا.

ظهر أمامنا بعدها ثلاث طرق متفرعة من مساحة الغرفة التي نجلس فيها، قام ثلاثتنا ونظرنا إلى الطرق معًا.

تكلمت أنا الغراب: «أحد تلك الممرات بالتأكيد هو المخرج».

سأل أنا الصغير: «هل سيدخل كل منا ممرًا؟».

رد أنا الكبير: «بل سندخل واحدًا معًا؟».

هنا حلق أنا الغراب عاليًا فأصبح بإمكاني أنا الكبير والصغير رؤية المتاهة بعينيه من الأعلى، وكأن عقولنا توحدت، فعرفت أي ممر نسلك للخروج، دلفت أنا الكبير والصغير إلى الممر الأوسط، وبقينا نجري فيه حسب ما تنقله رؤية الغراب، إلى أن وصلنا إلى غرفة في نهاية الممر ولحق بنا الغراب، غرفة أخيرة تفصلنا عن فتحة الخروج، أوسع غرفة أو ساحة قابلتني وسط تلك المتاهة، بل وكانت الأغرب، حورية تقف أمامي في المنتصف، وعلى اليسار يقف رفيق في سن مراهقتنا وقت تعرفت عليه، تقريبًا في نفس سن أنا الصغير، وعلى اليمين كانت أمي مستلقية على سرير مستشفى، وجوارها أبي، تسمرت بكياني الثلاثي -الكبير والصغير والغراب- في مكاني قليلًا قبل أن تمشى حورية مقتربة مني بتؤدة وهي تبتسم، كانت ترتدي نفس البلوزة

الزرقاء الفضفاضة التي ارتدتها في أول مرة رأيتها، وتمد يدها نحو أنا الكبير قائلة: «أنا حورية». فلم أعرف بماذا أجيب.

اقترب رفيق من جهة اليسار نحو أنا الصغير وناوله الكرة المخروقة التي قام بإصلاحها بينما يقول: « إذا لم تكن تعرف فأنا اسمي رفيق.. محمد رفيق.. هلا ذكرتني باسمك؟».

بينما حدقت أنا الغراب في المشهد الثالث على اليمين لأمي وأبي يحملني رضيعًا، سألت أمي: ماذا نسميه؟».

رد أبي وهو يبتسم بحب: «لا أعرف أنا محتار بين عدة أسماء.. يبدو وكأنه خُلق توًا.. أفكر في أن أسميه..».

روح:

كففت عن البكاء بينما أنا راكع على الأرض حين أتتني لحظة إدراك صدمت وعيي، شعرت بلحظة بين لحظة وأخرى أنني أدرك جيدًا من أنا، والأهم من كل هذا، أنا أتذكر اسمي!

ابتسمت ببله وفرح، فسمعت صوت باب يُفتح خلفي وحده، قمت عن الأرض واستدرت ومشيت نحوه، وقفت لحظة أمامه، أخذت نفسًا عميقًا، ثم خطوت بقدمي عتبته، شاعرًا وللمرة الأولى مُنذ زمن أنني لست تائهًا أو ضائعًا.

عقل:

أصبحت مدركًا أخيرًا لما تقوله أصواتهم ومعنى ندائهم، إنهما يناديانني باسمي، هذا اسمي.. أنا أتذكره!

دفعت نفسي للأعلى أكثر نحو الباب الطافي، تاركًا أصواتهم ترشدني، حتى وصلت، فتحت الباب، واندفعت عبره.

نفس:

قلت اسمي.. تذكرته، كان كذكرى تم تشويهها لكنها رُممت وعادت، عادت لتعطي لوجودي هوية، لأكون أخيرًا فردًا كاملًا، أفسح الواقفون في الغرفة الطريق لنا، فعبرت من بينهم بكياناتي الثلاثة، عبرت المخرج كثلاثة، وخرجت كواحد.

روح وعقل:

حين عبرت الباب شعرت أنني أكثر كمالًا من أي وقت مضى، شعرت للمرة الأولى مُنذ وقت غير معلوم أنني قوي ومدرك لكل شيء أيما إدراك، راحت الذكريات والأحداث تتجمع.

النازيون برصاصهم، أثناء محاولتي الهرب منهم، لكن لم يكن في نفس الموقع أو الممر الذي أتذكر أنه كان به، وكأن

الأبواب هي أيضًا تتحرك، لم أقف عند هذا كثيرًا وتحركت، لم أخاطر بفتح أي باب فكفاني ألاعيب، أحاول قدر الإمكان ألا أتورط في ألعاب جديدة، صعدت سُلم يؤدي إلى أعلى مرتبط بسلم يلتصق بالسقف، ويعود إلى أسفل ويمر أثناء ذلك بعدة أبواب، ثم يصل لممر علقت به خمس أبواب، حين وصلت إلى ذلك الممر، كنت قد بدأت أشعر أنني سأبقى في تلك المتاهة إلى الأبد، لكن ما وجدته غير كل شيء، لقد كان الباب الأوسط بين الخمسة مثقوب هو الآخر بنفس الطريقة بالرصاص، حين رأيت هذا وقفت أنظر من الممر إلى الأبواب المكشوفة من حولي القريبة والبعيدة داخل الهرم، فلاحظ للمرة الأولى شيئًا غير نظرتي لكل شيء، هناك عدد كبير من أبواب المتاهة مثقوب بنفس الطريقة بالرصاص! وكأنها كلها باب واحد. وتترابط في عقلي دفعة واحدة، نعم أنا مدرك لماهيتي وما أفعل وما جرى، مدرك انقسامي وتجمعي، مدرك لكل شيء مُنذ ولادتي وحتى اللحظة، لكني مدرك أيضًا لشيء ما أفتقده داخل نفسي، شيء لم أجده أو يجدني بعد.

تأملت المتاهة الشاسعة من حولي فشعرت وكأنني أراها للمرة الأولى، أراها بألوان زاهية وعميقة كما تخيلها الرسام في القصة، ليست باهتة أو مزرقة، هذا المكان بكل تعقيداته يحتاج بناؤه إلى الكثير من طاقة الحجر، عكس أي ذكريات نقلني إليها من قبل، لا بد من وجود ثغرات هنا، لا بد من

طريقة توصلني إلى المركز حيث يختبئ الكيان كما تقتضي القصة أو اللعبة التي نلعبها هنا، بدأت أتجول بين الأبواب والسلالم باحثًا، صعدت سلم قادني إلى ممر به عدة أبواب، قفزت منه إلى سلم آخر قادني نحو مجموعة من السلالم، اخترت واحدًا وصعدت عليه فتشقلب بي حتى أصبحت كمن يمشي على السقف ضد الجاذبية، يبدو أن لكل سلم جاذبيته الخاصة، السلالم تتشقلب وتدور وتلتف وتنقلب دون أن تسقطك، اصطدمت أثناء انتقالي بين السلالم بالباب الذي خرقة الجنود

«باب واحد.. التكرارات». تمتمت بتلك الكلمات مستعيدًا عدة صور وأحداث من تجاربي السابقة مع أوهام الحجر، الشوارع والأشجار والبيوت والبشر، في كل قفزاتي السابقة كانت دائمًا تتكرر، وخصوصًا تلك الأماكن التي لا أملك ذكريات كاملة عنها وعن تفاصيلها، كان من الممكن أن أجد شارعًا يحمل عدة أفرع لنفس المطعم بنفس الشكل، هذا يفسر لا نهائية المتاهة، هذا الحجر يعمل بنفس طريقة عمل الذكاء الاصطناعي في برامج الجرافيك والتعديل على الصور، هو لا يقوم بخلق تفاصيل جديدة، فقط يعتمد على قاعدة البيانات الموجودة بالفعل ويقوم بإعادة استخدامها بشكل مختلف وتكرارها، هذه المتاهة بالكامل ليست سوى عدة صور لعدة أبواب وممرات وسلالم قام بنسخها وإعادة

معالجتها وتكرارها، هذا يعني أن بإمكاني تضييق دائرة البحث بشدة، تمنيت لو يعود إلي سيف شبورة فظهر في يدي من العدم، فلقد أسقطته فيما سبق من أحداث، قمت باستخدامه بنقش الرقم واحد على أول باب قابلني، جُلت بعدها بعيني في الأبواب المعلقة في الهواء من حولي فإذا بعدد كبير منها قد ازدان بالرقم واحد بالفعل، ما إن تأكدت من صحة أفكاري حتى رحت أجعل السيف في كل باب يقابلني لم يرقم، رقمت ستة أبواب بالأرقام من واحد حتى ستة، فرقمت كل الأبواب بشكل تلقائي، عدا باب واحد اكتشفته وسط المتاهة بينما أبحث عن باب لم يرقم بعد، يبدو أن ذلك الباب الذي أصبح مكشوفًا جدًا لي هو الباب الوحيد غير المكرر في تلك المتاهة، سلكت طريقي نحوه فبدأت سلالم المتاهة في التحرك، لتتغير الطرق والسكك بين الممرات والأبواب، نظرت نحو الباب المستهدف فوجدت أنه يطفو وحيدًا دون أي سلالم تتصل بالممر الذي هو فيه، إنه يحاول أن يبعدني عن ذلك الباب، هذا يعني بالضرورة أنه بالفعل خلف هذا الباب، حاولت أن أقترب من مكان تواجد الباب المنشود، فغير السلم الذي أجري فوقه اتجاهه فجأة فتعثرت وسقطت نظرًا لعدم وجود (درابزين) لتلك السلالم، لحسن الحظ التقفني سلم آخر أسفل السلم الذي سقطت منه، تألمت قليلًا من أثر اصطدام أحد الدرجات بأضلعي ولم يبدو

لي الألم وهميًا أبدًا، لكني نسيت الألم حين لاحظت أن السلم الذي أنا فوقه قريب من موقع الباب كان يمر فوقه بمسافه مترين تقريبًا، هنا تحاملت على ألمي وقمت أصعد على السلم حتى أصبحت تمامًا فوق الباب، أقرب نقطة يمكن أن أصل إليها من الباب، لا زلت على علو أمتار منه لكن السقطة التي سقطتها قبل قليل أوحت لي بفكرة.. سأقفز، شددت على سيفي واستعددت للقفز، إلا أن السلم الذي أنا عليه تحرك ليبتعد من فوق الباب، فبدأت المسافة بيني وبين الباب تتسع حتى أمسى هناك هوة واسعة بيننا، أصبح القفز مخاطرة أكبر، وكل لحظة تردد تصعب المهمة، لذلك بدون لحظة تردد أخرى قفزت.

قالت لي أمي إن عليّ أن أنظر ألف مرة إلى اتجاهي الطريق حين أعبر الشارع، لذلك كنت أستمر في مراقبة الطريق حتى بينما أعبر، و كنت أتجمد في مكاني إذا لمحت سيارة تقترب، كاد ترددي أن يقتلني عشرات المرات، حتى أدركت أن عليّ أن أتابع العبور وألا أتوقف مهما حصل، طالما أنني أخذت الخطوة.

هل سقطت؟ هل أخطأت الممر الذي به الباب؟ نعم كان هذا وشيكًا، لولا أنني غرزت سيف شبورة في حافة الممر بقوة فتعلقت به، تعلقت بيدي الأخرى التي لا تمسك السيف

وساعدت نفسي على الصعود والوقوف منتصبًا وبيدي سيف، وقفت في مواجهة الباب مباشرةً الوحيد الذي لم يُرقم، كنت سأنقش على بابه الرقم ٧ لكني تراجعت عن الفكرة، ليبقى دون أي علامات مميزة، ثم أمسكت المقبض وفتحته، ودلفت داخله مستعدًا للقاء الساحر الشرير.

نفس:

بعد أن توحدت ذاتي وخرجت من غابة التيه أصبحت أطل بعيني على الهرم المدرج الضخم بوضوح، بينما الشمس تغرب خلفه وتداعب بآخر أنفاس النور لديها درجات الهرم ومنازل سكان شبورة الساكنة عند سفح الهرم، أشعر بأن جزءًا مني لا يزال هناك لا زلت غير مكتمل، هرولت نحو مدخل الهرم، عابرًا أثناء ذلك خلال بيوت أرض شبورة، هناك قابلت عشرات الأشخاص الواقفين جوار أبواب المنازل يرمقونني، لم يكونوا مطموسي الملامح، كنت أعرفهم جميعًا، يمكنني تمييز وجوه زملاء دراستي وعملي، جيراني وأساتذتي، أميز أصوات الطبيعة من حولي، صوت الريح والطير وأوراق الشجر وخطوات أقدامي، والألوان الزاهية، لقد انزاحت الشبورة عن عقلي، وصلت أخيرًا لباب الهرم، فانفتح من تلقاء نفسه ودخلت.

روح وعقل:

حين دخلت حل عليّ الظلام ثم انقشع بعدها فألفيت نفسي جالسًا على كرسي، أرتدي خوذة تكثيف الوعي الكاذبة داخل المختبر الوهمي، وكيان الحجر يقف أمامي متجسدًا في هيئة سامر، لكن هذه المرة لم يكن كما اعتدته، لقد محيت ابتسامة الثقة عن وجهه وظهر فوق سطح وجهه شق كشقوق الحائط يبدأ من خط شعره، يقسم جبهته ويمر بعينه اليمنى حتى يصل إلى نصف خده تقريبًا، لقد ظهرت حقيقته الشيطانية لأول مرة.

خلعت الخوذة عن رأسي وقمت شادًا بقبضتي على مقبض سيفي متحفزًا، قال لي حينها:

- لم أعتد الخسارة، ربما خضعت أحيانًا لبعضكم، لكنهم كانوا مميزين، استحقوا أن أخضع لهم.

قلت بحدة: «كلنا مميزون كل بطريقته، أنت فقط تخشى أن ندرك ذلك، هذا يجعلك بلا قيمة، أنت لست سوى تكرار لصورنا نحن البشر، ذكاء اصطناعي تتلقى البيانات وتعيد معالجتها دون خيال أو إبداع، متمرد بلا فكرة أو خطة منطقية، لست مبدعًا.. أنت فوضى غير خلاقة».

جز على أسنانه فكبر الشق عند خده وتفرع، أشار بيده فظهر خلفه باب أمسك بمقبضه، فرفعت سيفي واندفعت نحوه لأغرز السيف في قلبه إن وجد، ففتح الباب خلفه،

وهرب عبره، فتبعته، نقلني الباب إلى صحراء يتقاتل فيها الجنود والمحاربون بالسيوف والرماح والدروع، ولاحظت أيضًا أن ملابسي أنا أيضًا قد تبدلت لتصبح كملابسهم ودروعهم، لم أقف عند هذا كثيرًا، درت بعيني في أرض المعركة حولي فرأيته يجري مبتعدًا بزي حربي كالذي أرتديه، لحقت به عبر أرض المعركة بينما أتفادى ضربات السيوف ورفسات الأحصنة، أحاول التفكير في أنني داخل لعبة وإلا سأموت من الهلع، ضغطت على عضلات قدمي معتمدًا على الإمكانيات التي يعطيني إياه الوهم، فصرت أسرع بالفعل وكدت ألحق به، بل لحقت به بالفعل، وضربته بسيفي، لكنه أخرج من الغمد حول وسطه سيفًا وصد ضربتي، ثم دفعني إلى الخلف وقفز عبر باب آخر ظهر من العدم، قفزت أنا أيضًا عبر الباب قبل أن يختفي، وقبل أن أستوعب إلى أين أخذني ذلك الباب شعرت برصاصة تخترق قدمي، فضرب الألم ساقي وشلني، جثوت على الأرض أتألم بينما أبحث بعيني عن مصدر الطلقة، فوجدت أنني في أرض معركة أخرى، لكن أكثر تطورًا، أصوات دانات المدافع والقذائف من حولي تهز الأرض، تغيرت ملابسي مرة أخرى لزي مموه وتبدل شكل السيف إلى بندقية، كان الكيان يقف أمامي بالأفارول المموه، والبندقيه التي أصابتني في يده، ابتسم بوجهه المتشقق ثم أشار إلي مودعًا قبل أن يظهر باب جواره، دلف إليه واختفى

الباب بعدها.

لا يفترض أن تقودني القصة إلى هذا الوضع، لقد وصلت إلى بؤرة تواجده، لا يفترض أن توجد هنا أبواب ليهرب إليها.

نفس:

السلالم في تلك المتاهة تتحرك بلا توقف، تحاول إبعادي عن الباب الوحيد الذي لم ينقش عليه رقم، هذا الباب هو الهدف، شيء ما يجذبني نحوه، شعور بالحاجة إلى الدلوف للداخل، وإلا سأخسر كل شيء، صعدت السلالم، قفزت بينها، وها أنا أخيرًا أصل لأكون فوق الباب تمامًا، أقفز لثلاثة أمتار فأنزل أمام الباب مباشرةً، لم أفهم حينها ما الذي حصل فجأة، هل ذلك من أثر القفز؟ هل كسرت قدمي؟ شعرت بألم كبير يضرب قدمي وأنا أمام الباب، وكأن أحدهم ضربني بطلقة، صرخت من الألم لكني سرعان ما تحاملت على نفسي وركزت ثقل جسدي على قدم واحدة، مشيت وأنا أعرج نحو الباب، ثم فتحته وعبرت.

المعركة الأخيرة

حين دخل الجزء المتبقي مني وعبر الباب توحدنا معًا فصرت أكمل صورة مني بكل فضائلي ومساوئي.

ضربتني بعدها لحظة تنور قوية بينما أنا وسط أرض المعركة، الكيان لم يهرب خارج حدود الأرض التي أقف عليها الآن، نحن في نفس الغرفة لم نغادرها، إنه فقط يوهمني بعملية الانتقال، يُغير المشهد من حولنا فقط، حين دخل الجزء الناقص مني دخل إلى أرض هنا مباشرةً، لم يمر بالمختبر أو المعركة التي سبقت تلك، إن الكيان هنا في وسط أرض المعركة تلك، وتمنيت حينها لو امتلكت مرآة الحقيقة التي كانت تحكي لي أمي عنها لأكشف موقعه، لاحظت أن جرح قدمي قد التأم بسرعة وبدأ الألم يقل في قدمي، فقررت التحرك لكشف موقعه، كنت أقتل كل من يقف في طريقي من الجنود لعلمي بأنهم صور وهمية، ثم استوليت على إحدى المدرعات المزودة بسلاح آلي، وفتحت النار على أرض المعركة بالكامل، الطلقات لا تنتهي والسلاح يستجيب لي بسهولة، لقد قتلت تقريبًا كل الجنود الواقفين حولي، لذلك توقعت أن يكشف عن نفسه في أي وقت.

بدأت الأسلحة والدبابات والقذائف ترتفع عن الأرض بما في ذلك الدبابة التي أركبها، قفزت منها بسرعة لتبدأ جميع

الأسلحة في الانجذاب نحو نقطة واحدة في الهواء حتى الطائرات العابرة في الجو لم تسلم، لقد بدأت هذا الأسلحة تشكل هيئة رجل آلي ضخم مدجج بالسلاح بارتفاع مبنى من عشر طوابق، وتردد صوت قوي في أرجاء السماء:

- تظن أنني لن أقتلك؟ لا أحتاج لوعيك البائس، سأسحقك الآن.

وجّه مدفعًا ضخمًا خرج من صدر ذلك الربوت العملاق نحوي، وخرجت القذيفة منه نحوي، قذيفة تفوقني حجمًا.

دمرت القذيفة كل شيء كان على الأرض حينها، لكن لحسن حظي لم أكن على الأرض، كنت أحلق في السماء على ظهر تنينة زرقاء تمتلك حلقة ذهبية في أحد أقدامها، لقد خرجت من أسفل قدمي في اللحظة الأخيرة وارتفعت بي بسرعة بعيدًا عن جهة القذيفة، ابتسمت بينما أنظر نحو قمرة القيادة التي يجلس بها الكيان، أنا الآن أفهم اللعبة، أصبحت أستخدم قواعد هذا العالم لصالحي، ويمكنني أن أنقل اللعبة إلى أرضي لأفرض قواعدي، طرت بالتنينة نحو العملاق الآلي فوجه الآلي ترسانة قذائفه نحوي، ونجحت في صد بعضها بكرات نار تنينتي، والبعض الآخر تفاديته، وفي النهاية وصلت إلى العملاق وأحرقت بنار تنينتي قدمه فبدأ توازن العملاق الآلي يختل، رأيت سامر -الكيان- يخرج من

قمرة القيادة الموجودة في رأس العملاق ويهرب منه قبل أن يسقط، فطرت نحوه، رأيته يقفز في الهواء مخططًا للهرب، فقفزت من فوق ظهر التنينة خلفه، وتمكنت من اللحاق به وإمساكه من ياقة الزي المموه، رأيت حينها الشق في وجهه وقد تفرع بقوة، وزحف فوق باقي وجهه، وبينما نحن ممسكين ببعضنا البعض، على وشك أن نصطدم بالأرض، ظهر باب مفتوح مسطح على الأرض أسفلنا، سقطنا داخله فأخذنا إلى مكان آخر، وجدت نفسي على سطح بناية في مدينة مظلمة، أرتدي زي باتمان الشهير وأمامي كان سامر في حلّة الجوكر ووجهه الضاحك الملون، كان بيده مسدس، وجهه نحوي فقفزت وتفاديته، جريت نحوه، ففتح باب آخر من العدم، وقبل أن يقفز هو به دفعته أنا إلى الداخل، هذه المرة أنا أسقط في الهواء وبيدي عصا سحرية ألوح بها بينما سامر أمامي تغير شكله، ارتدى عباءة سوداء وأمسى وجهه شاحبًا ذا ملامح ثعبانية، وجهت عصاي نحوه وأنا أردد تعويذة «إكسبليارموس» ففعل المثل وردد تعويذة: «أفادا كدابرا» يصطدم هجومانا السحريان ببعضهما، أثناء سقوطنا المستمر ذاك، لكنه يتمكن من إبعاد هجومي ويفتح بابًا آخر تحته يسقط داخله، وأتبعه بالطبع، هذه المرة نتلاحم في قتال بسيوف الليزر، كان هو في زي أسود يغطي جسده بالكامل ويلبس فوق وجهه خوذة سوداء، وأنا في زي

محاربي الجيداي، يدير سيفه بمهارة يحسد عليها ويتفادى كل محاولتي لضربه، ثم وبعد عدة تصديات يكف عن الدفاع ويبدأ بالهجوم، يتمكن من جرح ذراعي، ويوشك على اقتلاع رأسي، فأنحني لأتفادى ضربته ثم غرزت السيف في كتفه، سمعت صوته من خلف القناع يتألم، واندفعت به إلى الخلف، هذه المرة كنت أنا من تخيلت واخترت، فُفتح باب من العدم خلفه، ودفعته إليه، أنا وهو الآن نسقط إلى ما لا نهاية، ولا نعرف إلى متى يستمر ذلك السقوط، تغيير السيف المغروز إلى كتفه ليتحول إلى سيف شبورة، بينما هو نفسه يتغيير شكله بشكل عشوائي ومجنون، كاهن مصري.. ملك أشوري.. محارب مغولي.. جندي ألماني.. جدي.. أمي.. أبي.. حورية.. رفيق.. حتى أنه اتخذ شكلي.. عشرات الأشكال والصور التي راح يتنقل بينها كبرنامج تلفت ملفاته، ثم اتخذ أخيرًا شكل محدد.. سامر يرتدي عباءة سوداء كعباءة ساحر أرض شبورة بالقصة، وبعد فترة من السقوط استقرينا على الأرض أخيرًا، هبطت أنا واقفًا كبطل خارق، بينما سيفي في كتفه وهو راكع على الأرض ينظر إليّ والشقوق قد احتلت وجهه وبدأت بعض أجزائه تتقشر ليظهر من خلفها مادة زرقاء ملتهبة كالحمم أظن أنها جسده الحقيقي، قال بصوت مزج المرارة بالغضب وعينه تضيء بشرر أزرق:

- أيهزمني فتى يحمل سيفًا بلاستيكيًا!

أخرجت السيف من كتفه، ثم رفعته عاليًا وقلت: «لكنه كان كافيًا لهزيمة أي ساحر شرير في أي حكاية».

ثم طعنته بالسيف مباشرة في قلبه، فتشقق جسده بالكامل أمام عيني، قبل أن ينفجر بضوء أزرق قوي غمرني.

***

-٦-

أزرق لأنني أحبه..

(١)

«واليوم.. بعد ما عشت حكايات كتير صارت بعيدة..

قديش فرحت وحزنت والنهايات مش دايمًا سعيدة»

***

٢٠ إبريل ٢٠٢١

لن يساعدك أحد للقيام بعد كل سقوط سوى نفسك، لكن هذا لا يعني أن دعم الأحبة والأصدقاء والعائلة غير ضروري.

حين استيقظت في المستشفى التي تم نقلي لها بعد إنقاذي من محاولة انتحار قمت بها أثناء فقداني الإحساس بالواقع، وجدت حجر الصباح وقد تكسر إلى عدة أجزاء وفقد بريقه، وكأنما تحول إلى قطعة من الحجر، أيضًا عرفت أيضًا من الممرضة أن هناك فتى وفتاة كانا دائمي التردد عليّ للزيارة ومتابعة حالتي، أخبرتني أنهما كانا يجلسان جواري يناديانني باسمي في أحيان أو يتكلمان معًا عني في أحيان أخرى، وربما يبقيان طيلة الزيارة ساكتين لا يتكلمان، ولم أكن أحتاج لأي معلومات إضافة لأعرف من هما، فلقد صحبني صوتهما طيلة رحلتي.

بعد أن تم التأكد من تعافي التام وإنهاء بعض الإجراءات

القانونية الخاصة بمحاولتي الانتحار وضمانة عمتي لي خرجت من المستشفى وعدت إلى البيت، لأجد الأتربة المتراكمة والفوضى يستقبلانني، لقد كنت تائهًا كليًا خلال الشهرين الماضيين ويبدو أنني لم أترك شيئًا إلا وحركته من مكانه، من الجيد أنني لم أفجر تلك الشقة عمدًا أو بالخطأ.

دخلت غرفتي التي لا تقل سوءًا عن باقي الشقة فوطئت شيئًا ما في خطوتي الأولى داخلها، نظرت تحت قدمي فإذا بها ورقة كنت قد رسمت عليها بورتريه ذاتي سريع لي ومزقته، رفعت الرسم عن الأرض وأحضرت شريطًا لاصق، وأعدت تجميع نصفي الرسم قمت بلصقه جوار باقي الملصقات الخاصة بي على الحائط، نفضت يدي من التراب العالق بها بينما أجيل بصري في الفوضى من حولي ثم أخذت نفسًا وقررت العمل.

أعدت ترتيب كل شيء وإعادة كل موجود لموضعه الصحيح، بدأت بالصالة ثم مررت بغرفة أبي ودولابه الخاص، وانتهاءً بغرفتي، خلال يومين كنت قد أعدت البيت لسابق عهده، وأعدت تنظيم حاجياتي وكتبي مستمتعًا بقدرتي على قراءة كلماتها وتأمل جمال أغلفتها، أضفت أيضًا لحائط غرفتي بعض الإطارات الجديدة، إطار يحمل الصورة التي ألصقتها لي أمي في صغري، وإطار يحمل الصورة التي

ألصقتها أنا حين عدت، وأخيرًا إطار كبير به صورة قمت بتكبير حجمها تجمعني في صغري بأبي وأمي بينما تحمل ليل وهما يبتسمان بينما أنا عابس متزمر وسطهما، كما أضفت أيضًا لملصقاتي المعلقة على الحائط ملصقًا رسمته مباشرة بعد عودتي إلى البيت، كان الرسم عبارة عن محارب يشبهني ويرتدي نظارتي، يرفع سيفه عاليًا، وخلفه يوجد باب مفتوح تظهر منه متاهة معقدة من السلالم والممرات والأبواب.

بعد أن انتهيت وقفت أتأمل غرفتي في حالتها الجديدة وتبسمت، حينها شعرت أن هناك فكرة تداعب عقلي، سجلتها في ورقة مع جملة الأفكار التي دونتها مؤخرًا لمشروع تخرجي، ثم دخلت إلى المطبخ لأعد بعض المعكرونة المقلية، وأضفت إليها الفلفل الحار والكمون كما كان يحب أبي أن يضيف، وبينما أنا آكل فتحت اللاب توب وفتحت قائمة أغاني المفضلة لفيروز، وبدأتها بأغنية «حكايات كتير» ثم شرعت في عملية البحث والتغذية البصرية اللازمة للعمل على مشروع تخرجي، فكان أول ما كتبت في صندوق البحث «أزرق»، فقالت فيروز..

«مش كل شي صار كان دايمًا بإيدي..

بس رغم هيك.. أنا أكيدة.. أني آمنت..

وما استسلمت.. وعشت حياتي».

***

(٢)

٢٥ إبريل ٢٠٢١

حين رأتني والدة رفيق أقف أمامها على الباب حدقت بي للحظات قبل أن ترحب بي وتسألني عن أحوالي وصحتي الآن، لا أعرف هل حدقت بي لطول غيابي عن زيارة بيتهم؟ أم لأنني صرت شديد النحول؟ أم لمعرفتها بمحاولة انتحاري؟ لا يهم السبب فقد أبدت ترحيب كبير بزيارتي، أخبرتني أن رفيق في غرفته لم يغادرها مُنذ فترة ثم سمحت لي بالدخول إليه حيث كان جالسًا على كرسيه المتحرك يوليني ظهره وينظر عبر النافذة إلى السماء، لاحظت أن صلعته نبت بها بعض الشعر وهذا يعني أنه لم يحلق مُنذ مدة طويلة، كما أن ذقنة غير المهذبة ظاهرة من الخلف.

بمجرد أن أحس بوجودي استدار إليّ بالكرسي، وتبادل معي نظرات طويلة وقاسية، لكن ما طمأنني أنها كانت نظرات عتاب، قررت أن أبدأ بالكلام فقلت:

- علمت أنك جئت لزيارتي في المستشفى.

سمعت صوته يخرج واهنًا من حنجرته وهو يقول: «لم أكن لأتركك».

كانت كلماته كالصفعة على وجهي، صفعة مستحقة، سألته:

- هل تحسن وضع قدميك إذًا؟

- قال بلا اكتراث حقيقي: «ربما.. يقولون إنني أتحسن لكني لا أحس بفرق، لا زلت لم أغادر الكرسي».

كنت أرتدي حقيبة ظهري، فأنزلتها عن كتفي ثم فتحتها وأخرجت منها كرة أمكنني أن أحس نظراته المهتمة حين رآها، كرة قدم أصلية الصنع تم خرقها وأعيد تعبئتها من الداخل بواسطة كرة بلاستيكية زرقاء.

قلت وأنا أضعها على الأرض وأدفعها بقدمي نحو قدميه:

- يجب أن تشفى في أسرع وقت حتى نلعب الكرة معًا.

رأيت على وجهه شبح ابتسامة مليئة بالحنين فاستدركت:

- هذه الكرة كانت دائمًا تمثلنا، الطبقة الخارجية جميلة الشكل وتبدو صلبة لكنها في الحقيقة مخروقة، لا يشد من أزرها وشكلها سوى تلك الكرة البلاستيكية داخلها، تمامًا كما كنت تفعل معي دائمًا، كنت تلعب دور الكرة البلاستيكية، حين أتى دوري لألعب أنا دور الكرة البلاستيكية عجزت». اقتربت منه وأنا أتابع كلامي: «لكن اليوم بعد أن أدركت كم كنت صديقًا سيئًا جئت أطلب منك فرصة لأن ألعب دور الكرة البلاستيكية، لأنني لن أكون خائفًا هاربًا نادمًا مرة

أخرى، أيمكن أن تعطيني تلك الفرصة؟ فرصة أن أكون الصديق الذي لم أكنه يومًا».

بعد أن انتهيت سكت، ولم يتكلم هو أيضًا، طال صمتنا حتى تحرك أخيرًا وانحنى يلتقط الكرة من أسفل قدميه، وضعها على حجره ونظر إليها قليلًا ثم بكى، فانحدرت دموعه فوقها، ثم تمتم بعدها: «يبدو أن كلينا قد خاض ويخوض رحلة طويلة». ثم مسح دموعه بكفه وقال سائلًا: «أيمكن أن تقترب؟»، نفذت طلبه على الفور واقتربت حتى أصبح بيني وبينه عدة سنتيمترات، وعلى حين غرة، كور قبضته وضربني في صدري، قلت بتلقائية وأنا أتألم: «آه.. غبي.. قلبي هنا».

قال: «حاول أن تهزمني حين أشفى أيها الفاشل».

كدت أنفعل لكني تجمدت للحظة أترجم الموقف، فرأيت بسمة تولد ببطء فوق ثغره، فسقطت في الضحك، ليسقط معي فيه أيضًا.

***

حدوتة الهروب إلى الأزرق

٢٩ يوليو ٢٠٢١- درجة الحرارة ٣٧

مُنذ سقطنا من عدن ونحن في بحث دائم عن الجنة وعن طرقها المختلفة رافضين مواجهة واقعنا، فسعينا عبر العصور إلى ابتكار طرق مختلفة للهرب إلى جنان مؤقتة متحولين بذلك من باحثين عن الحقيقة والنعيم إلى هاربين من حقيقة الحياة وأنفسنا.

كانت تلك الأسطر القليلة هي ما كُتب معبرًا عن فكرة مشروع تخرجي الذي اخترت له اسم حدوتة الهروب إلى الأزرق.

طبعت تلك الأسطر على ورقة ثم طبعت اسم مشروع التخرج مرفقًا باسمي والسنة على ورقة أخرى، ثم انطلقت نحو أحد آتيليهات قسم الجرافيك حيث كان مكان عرض مشروع تخرجي، كان المشروع معلقًا بالفعل على الحائط مُنذ البارحة، فأرفقت الورقتين اللتين طبعتهما بالمكان الذي ارتأيته مناسبًا وواضحًا، ثم أخذت خطوتين للخلف لأتامل المشروع كاملًا بشكل واضح، كان مشروعي عبارة عن ثلاث لوحات كبيرة تراصت كفصول حكاية كل واحدة بمساحة ٧٠ في ١٠٠ سنتيمترًا من ورق الكانسون الأبيض، وكانت الخامة

التي استخدمتها للرسم هي أحبار الإيكولين لما لها من قدرة على التعبير الرشيق والناعم، ولسهولة التحكم في مدى شفافيتها، وتنويع درجات اللون الواحد، ويغلب في المشروع استخدامي لأنواع مختلفة من الأزرق مع لمسات بسيطة من بعض الألوان الأخرى.

اللوحة الأولى كُتب أسفلها على ورقة بحجم إصبع اليد (الذوبان) كعنوان فرعي لهذا الفصل من الحدوتة، كانت تصور رجلًا جالس تراصت أمامه على الأرض بعض أصناف المخدرات ويقف على حجره غراب صغير، يسند يسراه إلى فخذه، ويمناه يمسك بها زجاجة خمر، بينما ملامح وجهه مطموسة تمامًا ورأسه توشك أن تذوب تمامًا كالشمعة، كان بطل اللوحة ملونًا بلون أزرق غامق قوي تداخلت معه بعض الألوان القليلة الأخرى الممزوجة بالأزرق ليتوحدوا جميعًا في حالة واحدة، أما خلف البطل نجد عدة شخصيات واقفة، ابن صغير وزوجة تحمل رضيعًا، وقد ذابت رؤوس تلك الشخصيات أيضًا وانصهرت ملامحهم، بينما تتساقط حولهم أوراق وإيصالات مختلفة وعملات، وقد لون ورسم كل ذلك بلون أزرق واحد تم تنويع درجة شفافيته ليبدو العالم بالكامل خلف بطل اللوحة مونوكروميًا.

اللوحة الثانية اخترت لها اسم (المحو).

تُظهر بطل اللوحة أيضًا جالسًا لكن بظهره على الأرض أمام شاشة كبيرة يمسك في يده شيئًا ما يمكن أن تخمن من السلك الظاهر أنه ذراع تحكم يتصل بجهاز (بلاي ستيشان) يقف فوقه غراب صغير آخر، وقد عُلق جوار التلفاز صورة لعائلة من طفل وأم وأب وعلى الأرض ثلاث ورقات لعب، شايب وولد وبنت وضعت فوق بعضها بطريقة عشوائية، وجوارهم أدوات رسم وكتاب مفتوح بينما نجد لونًا أبيض قويًا هو لون الورقة يزحف فوق تلك العناصر التي تحيط بالبطل على هيئة تنشيعات أكلت تفاصيل وملامح الأم والأب في الصورة وألوان الرسم والرسم فوق أوراق اللعب، والحروف فوق الكتاب ويتابع ذلك الأبيض طريقه بموجه من اللون الأزرق تسبقه لتأكل بطل اللوحة في المنتصف، والذي تم تلوينه بعدد من الألوان الممزوجة بالأزرق الغامق كبطل اللوحة الأولى.

أما الثالثة والأخيرة، فكانت بعنوان (السقوط).

وكانت ببساطة تصور بطلنا من زاوية خلفية، أثناء سقوطه من السماء وفي يده هاتف ذكي، وفوق أذنه سمعات أذن تفصله عن العالم، كان يسقط داخل دوامة متكونة من أثير أزرق بالكامل يشبه الماء، لكنه مزين بالنجوم، ويخرج الهاتف العديد من الفقاعات التي تحمل الأيقونات الخاصة بموقعي

فيس بوك وتويتر، وفي أعلى اللوحة يمكن أن نرى غرابًا صغيرًا يحلق بعيدًا قادمًا نحو البطل، بالإضافة إلى غراب يحلق بالأعلى هابطًا نحو بطل اللوحة، وتميز بطل اللوحة كالعادة بألوانه التي تشربت بالأزرق.

مع مرور الوقت بدأ أهالي وأصدقاء زملائي في التوافد والحضور لمشاهدة المشاريع التي تنوعت بين الرسم والتصوير والتصميم والطباعة والنحت والرسوم المتحركة، فإزدحمت كليتي الصغيرة وضجت بالحياة، مرّ بي العديد من زملاء الدراسة الذين يهنئون ويباركون قبل أن يقولوا رأيهم المجامل بشأن مشروعي ثم يلتقطون معي ومع المشروع الصور، كان من بين من مروا بي نورا التي قدمت لي وردة بنفسجية جميلة من مجموعة ورود جائت تهادي بها أصدقائها كهدية تليق باسمها، فشكرتها بابتسامة صادقة، أبدت إعجابها بمشروعي وتحديدًا لوحة السقوط، التي تذكرها بلوحتها سقوط آدم، فتبسمت مجددًا لتذكري ذاك المعرض، أما أهم من مرّ بي يومها كان رفيق، تقدم نحوي مستندًا على عجازيه فاتسعت ابتسامتي وتقدمت أحتضنه.

- «أرى أنك تتحسن»، قلت له.

- «بالطبع.. فأنا أنوي أن أبدو أوسم منك بكثير حين أتخرج مع الدفعة القادمة». رد بثقة.

- كنت أتمنى لو تخرجت معي هذا العام.

رد بطريقته الساخرة: «أولًا هذا ليس من مصلحتك، فمشروعي كان ليخطف عيون الفتيات عن مشروعك، ثانيًا لا تكلمني وكأنك ضمنت التخرج، هناك احتمال كبير أن ترسب في مادة أو اثنتين على الأقل بسبب تغيبك لترم كامل تقريبًا، ثالثًا وهذا الأهم، أظن أنني لا زلت أحتاج لوقت حتى أتصالح مع كل ما مضى، لأكتشف نفسي أكثر».

قلت متفقًا: «نعم.. هذا أهم بكثير».

طلبت من أحد زملائنا أن يلتقط لنا صورة معًا بينما أنا أسند يدي على كتفه، حينها استدركت: «عسى أن تجد جنتك يا صاحبي».

بعدها أقبلت ثلاث فتيات لطيفات من زملاء الدراسة علينا ليهنئنني وليطمئنوا على رفيق، وقف يتكلم معهن ونسيني تمامًا، ثم تحرك معهن حين تحركن دون حتى أن يودعني، فوقفت أنظر له وأنا أضرب كفًا بكف.

وسط تلك المعمعة كان من الطبيعي أن أنشغل عن مشروعي لبعض الوقت، ربما حتى أبتعد عنه لمتر أو اثنين لأكلم الناس وأسلم عليهم وألتقط الصور، وفي إحدى المرات التي غبت فيها عن مشروعي لبعض الوقت وعدت، وجدت

ما أسقط قلبي من بين أضلعي، لقد كانت حورية واقفة أمام مشروع تخرجي، تنظر إليه بتمعن واهتمام، حتى تحسب أن عينيها الصغيرتين تكادان تلتهمان تفاصيله، لاحظت أيضًا في عينيها ذلك البريق الذي أحب أن أراه في عينيها حين تنظر للوحات، لماذا أشعر أن ضربات قلبي تكاد تحطم أضلعي؟ لماذا ارتبكت؟ ولماذا تجمدت في مكاني؟ وما هذا الكم من المشاعر المتضاربة الذي أصابني حين رأيتها؟!

أخذت نفسًا عميقًا وكسرت حالة التجمد التي حلت بي، لأقترب منها وأقول بينما أحاول الابتسام دون أن يبدو عليّ التوتر: «إزيك؟».

إنتبهت لوجودي فنظرت إليّ وابتسمت حتى بدا نابها المعوج وقالت: «إزيك انت؟».

ردت: «أظن حقًا أنني على ما يرام».

هزت رأسها برضا وعادت تنظر إلى المشروع وقالت:

- أعجبني كثيرًا.. مبروك.

قلت مبتسمًا: «الله يبارك فيكِ، سعيد أنه أعجبك».

رسمت على وجهها ذلك التعبير الذي أعرفه حين تتردد في قول شيء وأصدرت همهمة بسيطة قبل أن تسأل بخبث:

- لماذا الأزرق؟

قلت مبتسمًا: «أزرق.. لأنني أحبه».

عادت تبتسم بصدق وقالت: «إنه يستحق هذا الحب».

طلبت مني تصوير المشروع فرحبت بذلك، ثم باركت لي بعدها مجددًا قبل أن تودعني وترحل، شاهدتها تبتعد وتخرج من الآتيليه حتى اختفت عن نظري، لكني شعرت حينها بشيء في داخلي أود قوله، ربما تساؤل أردت أن أطرحه، لذلك لم أتردد في أن ألحق بها، خرجت من الآتيلية مسرعًا ونزلت على السلم متعجلًا مخاطرًا بأن أصطدم بالعديدين، باحة الكلية مزدحمة، والطرحة الزرقاء اللبنية التي تعلو رأسها قد اختفت وسط المعمعة، جلت بعيني في كل اتجاه فلم أرها، لكن شيء ما نبهني لمكان وجودها، وكأن اهتزاز قرطا الفراولة خاصتها يرسل إشارات عبر الهواء، التقطتها عيناي عند مخرج الكلية بين الداخلين تحاول الخروج، سرت خلفها عكس تلك الموجة البشرية، أحاول أن أعبر بسرعة لألحق بها، فكرت أن أناديها لكن ما كانت لتسمعني، خرجت من الباب والتفت لتمشي جوار سور الكلية فاختفى الأزرق، استأذنت كل من يقابلني أن يفسح لي لأعبر بصوت عال متعجل، وخرجت بسرعة خلفها فظهر الأزرق، جريت لعدة أمتار خلفها حتى بات بيني وبينها مترين تقريبًا، فتوقفت

وتوقفت هي الأخرى بعد أن شعرت بي.

- «كنت أتساءل...»، تكلمت بينما ألهث، فاستدارت تنظر لي باهتمام فاستدركت:

- هل يمكن أن تجتمع أقدارنا من جديد بأي شكل يومًا ما؟ أن نتبادل الأحاديث حتى كالأصدقاء؟

ابتسمت ابتسامة هادئة تحمل بعض الحزن في مكنونها قبل أن ترد بعد ثوان من التفكير: «يبدو أنك قطعت رحلة طويلة خلال الفترة الماضية، يمكنني معرفة ذلك بمجرد النظر إليك، لكن أنا.. لا زلت أحتاج إلى الوقت حتى أخوض رحلتي.. وحدي».

هززت رأسي متفهمًا وأنا أبتسم فتنهدت وقالت: «اعتنِ بنفسك». فقلت: «وأنتِ أيضًا، اعتن بنفسك .. لأجل نفسك».

استدرنا وخطونا كل في طريقه، هي لتكمل رحلتها وأنا لأعود إلى الكلية، وبينما أنا في طريقي سقطت قطرة ماء فوق وجنتي، فتحسستها متعجبًا ورفعت بصري لأعلى، فتبعت القطرة عدة قطرات أخرى انحدرت فوق وجهي، أمطار صيفية.. أكثر ندرة وعذوبة كدموع الفرح، تسللت نسمة هواء طيبة إلى قلبي فبعثت فيّ السكينة، فتحت فمي بينما أنا أنظر إلى السماء فبدأت زخات المطر تتسلل إلى

حلقي، وكما أذكره من أيام صباي، كان طعم ماء المطر عذبًا.

أطبقت فمي على ما تسلل إليه من قطرات، ثم ابتسمت هانئًا، لكن حين قررت أن أتابع طريقي لاحظت أو تخيلت أن ظلال سور الكلية وأشجارها قد تحركت من أماكنها للحظة، ثم عادت إلى مواقعها!

وقفت حينها وتأملت الظل لثوان، ثم ضحكت بقوة داخلي وقلت في نفسي: «هذا ما قد تفعله ليالي السهر والعمل بأشخاص لديهم وسواس نحو الواقع مثلي».

***

تمـــــــت بحمد الله

٢٠-٩-٢٠٢٢ الكتابة الأولى

١٦-١٠-٢٠٢٢ الكتابة الثانية

إلى الأبطال الحقيقين خلف هذا العمل، شكرًا..

محمود مسعد

سمر سعيد

نورا محمود

عبد الله عثمان

محمد الأشول

أندرو سعد

أ/ أحمد محمود الدماصي

فرح شوقي

سلمى الشرقاوي

مروان كامل

إسلام رمضان

فادية أشمون

وإلى عائلتي التي لا تكف عن دعمي

***

عن الكاتب

مواليد القاهرة ١٩٩٧م، تخرج في كلية الفنون الجميلة جامعة حلوان قسم الجرافيك، شعبة الرسوم المتحركة وفن الكتاب.

كاتب قصصي وروائي اشتهر بكتابة قصص الرعب الإذاعية في العديد من البرامج أشهرها برنامج كلام معلمين.

صدرت له العديد من الروايات، روايته المشتركة الأولى مع الكاتب سامي ميشيل (خطايا آدم) ٢٠١٨ وعمله المنفرد الأول (خلف ستار الموت) في صيف ٢٠١٨.. الناسخ(الإنترنت المظلم) معرض الكتاب ٢٠١٩ ووصلت إلى التصفيات الأخيرة في مسابقة إبداع ٨ على مستوى جامعات مصر.

ثم رواية في فئة الرعب الساخر بعنوان (توكتوك من الجحيم) ٢٠١٩ ، وكل ما سبق صدر عن دار إبداع.

وصدرت له رواية (جنة قابيل) ٢٠٢٢ عن دار نون، وتم تصعيدها لتمثيل جامعة حلوان في مسابقة إبداع ٩ على مستوى جامعات مصر ٢٠٢٠م.

أسس فريق (المخوفاتية) عام ٢٠١٧ مع الكاتب سامي ميشيل، وقام فريقه بعمل وتنظيم العديد من الإيفينتات المرعبة في القاهرة والعديد من محافظات مصر وجامعاتها..

بالإضافة إلى كُتب المخوفاتية المجمعة للكتاب الشباب.

للتواصل مع الكاتب